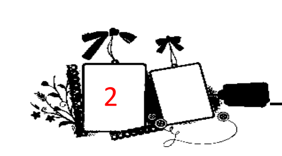
القبس الخالد

في رسالة التوحيد

للداعية الإسلاميّ الكبير الأُستاذ

مَحْمُود عِزّ الدِّين بَرَكَات





بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : القبس الخالد في رسالة التوحيد

المؤلف : الداعية / محمود عز الدين بركات

رقم الإيداع :

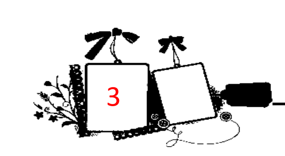
الطبعة الأولى 2010

مكتبة جزيرة الورد

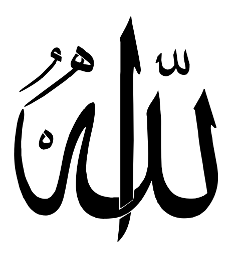
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com



المكتبة الإسلامية



(جَلّ جلاله)

الْكِتَابُ الْمَكْنُونْ

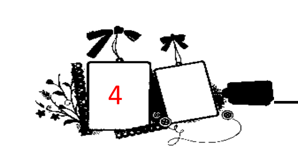
من مؤلفات العالم الجليل المغفور له بإذن الله تعالى

مَحْمُود عِزّ الدّين بَرَكَات

من كبار علماء الدقهلية

إمام وخطيب مسجد حسين بك بالدقهلية سابقًا

÷ وأرضاه وطهَّر ثَرَاه ونفع بعلمه أُمَّة المسلمين آمين



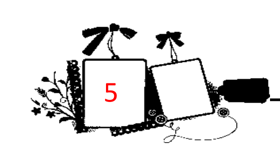
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۞ ﴾ [النور: 35]

صَدَقَ اللّهُ العَظِيم

قرآن كريم

(اللّهُ - النُّورُ - الهَادِي)



إهــــداء

عودة الذاكرة

بقلم: حامد عز الدين

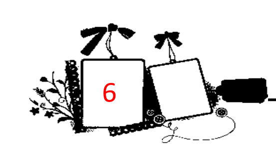
عندما وضعت أمامي نسخة من « الكتاب المكنون » لمراجعتها لغويا قبيل دفعها للطباعة ، كانت هذه الأوراق هي أول أوراق للإمام الراحل والدي وشيخي الكبير (محمود عز الدين) تقع عليها عيناي منذ انتقاله – رحمه الله – إلى الرفيق الأعلي قبل ذلك بنحو 37 عاما كاملة ليلة أول رمضان عام 2009، فيما كان انتقاله عليه رحمة الله في العام 1972 .

وقد صدرت بحمد الله طبعتها الأولى في العام الماضي بفضل دأب وإخلاص من شقيقي الأصغر/ أشرف عز الدين جزاه الله عنها خير الجزاء .

جلست بمفردي بعد صلاة الفجر ويا لدهشتي ، فبمجرد أن طالعت عيناي كلمات الصفحة الأولى حتى وجدتني أستمع إلى الأوراق ، فقد امتلأت أذناي بصوته وكأنه يقرأ لي أو يملي علي ما أطالعه أمامي .

وهكذا أمضيت نحو ثماني ساعات معه أستمع إليه وهو الذي كان – على ما يبدو – قرر الخروج من عقلي منذ وفاته التي رحت بعدها فيما يشبه الغيبوبة الكاملة في مدينة المنصورة حيث توفاه الله ، وعدت منها بعد العودة إلى القاهرة .

لم أكن أملك شيئا البتة من آثاره في تلك الفترة بل إنني أنسيت كل شيء يتعلق به، وبدت ذاكرتي وكأنها مسحت أو أن طبقة كثيفة من الشمع قد غطت جزءا من العقل ، فلم أتذكر أيا من أصدقائه الذين كان يحرص على اصطحابي معه في زياراته لهم ، وأنسيت مواقع خلواته في المساجد التي كان يؤم المصلين فيها وأنسيته وهو يضعني في حجره انتظارا لصعوده إلى المنبر .



ولم أبذل أي جهد في البحث عن أي من آثاره المكتوبة التي تركها وكنت أعرف عنها كل صغيرة وكبيرة .

في تلك الظهيرة من أول رمضان من العام الميلادي 2009، استغرقت في النوم لأراه للمرة الأولى يحيطني بذراعيه مبتسما ويدثرني بعباءته متمتما بكلمات لم أتبينها لكنني يقينا فهمت معانيها، فقد كنت أشعر به وأشم رائحة الطيب الذي كان يتعطر به .

وكانت ابتسامته تحمل الكثير من المعاني التي شملتني الحيرة في تفسيرها : هل هو يحاول أن يؤكد على أنه آن أوان عودة الذاكرة التي ظننتها ضاعت ؟..

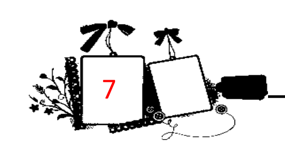
أو تراه كان يحاول أن يثبت فؤادي مؤكدا أن الصوت الذي سمعته كان واقعا لا خيالا ؟ ..أم تراه كان يؤكد لي أنه كان وراء مسح الذاكرة عامدا متعمدا لأسباب لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ؟ ..

أم ترى ظهوره لي بعد كل تلك السنوات ، التي كنت خلالها أرجو المولى سبحانه من كل قلبي أن يساعدني لأراه ولو مرة واحدة في المنام دون جدوى ، كان إيذانا بعودته إلى عقلي مجددا ؟..

أو ربما جاءني ليملأني يقينا بأنه كان هناك معي في كل تلك السنوات التي مضت يعينني على تحمل كثير من قساوات الحياة ويشملني بدعواته إلى الله سبحانه وتعالى ، فيخرجني من كل مأزق ويحيطني بتوفيقه سبحانه وتعالى الذي أبعدني عن الأخطاء والخطايا ، وحماني من الزلات والذلات وأعطاني أكثر بكثير مما كنت أتخيل ورفعني إلى مواقع أكبر مما كنت أراني أستحق .

وتذكرت عشرات المواقف الصعبة ، وكيف أنجاني الله من براثنها واسترجعت آلاما عانيتها وكنت وحدي ، فإذا بي أجد الناس جميعا إلى جواري وكأنهم يستجيبون لدعاء جاءهم من بعيد ، أو ربما جاءني ليفتح لي أبوابا كانت مغلقة وأذن الله لها أن تفتح ؟..





وجدتني حريصا بعدها على زيارة الكثير من الأماكن التي زرناها سويا – و كنت متعلقا بيده وأنا طفل صغير ثم وأنا صبي وحتى بلغت الخامسة عشر من عمري قبل أن يتوفاه الله بشهور قليلة – في قرى ومدن وبلدات محافظة الدقهلية وفي أماكن أخرى في أزقة وشوارع القاهرة ، وحرصت على أن أبحث عن هؤلاء من مريديه وتلامذته لأجلس إليهم أشم فيهم ومعهم عبق الذكريات ، وهم الذين كانوا قبلها ضاعوا من ذاكرتي واختفوا من مخيلتي .

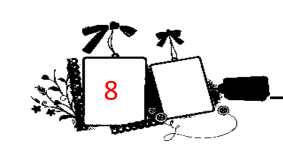
يا أبي ويا شيخي الكبير ويا مولاي :

إن حبي لك ، الذي لم يتوقف نموا ونماءا على مدى سنوات عمري التي جاوزت الخمسين بثلاث أو يزيد ، كان هو الزاد الذي أعطاني القدوة والقدرة على أن أظل واقفا على قدمي لا تهتز لي قناة ولا تأخذني أناة ..

هذا هو الحب الذي جعلني على الدوام أتوقف عن الحديث عن الأنا لأنك قلت لي ذات يوم : إن من قال «أنا» وقع في «العنا» ! .. فعلمتني أن أحب الناس ، كل الناس لأنهم بشر خلقهم الله وخلق فيهم ما يعينهم على الحياة وعلى العطاء سواء بإرادتهم أو من دونها ، وهكذا جعلتني أحظى بحب الكثيرين .

واليوم وبعدما عدت إلي وعادت معك ذاكرتي ، أو حتى نكون أكثر تحديدا ذاكرتك أعدك بأن لا أتوقف مطلقا عن الإعلان عنها والبوح بها ، في سبيل صنع اليقين بالله الواحد الأحد ، الذي ربط اسم ذاته العليا العلية بأعظم صفاته وأسمائه الرحمن «الذي وسعت رحمته كل شيء خلقه » .. الله سبحانه وتعالى الذي ما عبدناه حق عبادته ولا قدرناه حق قدره ، تعالت أسماؤه وصفاته .

ستظل – بمشيئة الله – ذاكرتك حية في عقلي لأن ذكراك داخلي تملأ كل جوارحي وتعيش على هديها نفسي وتختلط بها أنفاسي .



وسوف يتواصل على الأرض – بمشيئة الله– عطاؤك وستستمر نفحاتك الى أن ألتقيك في الحياة الحقيقية ، بعد انتهاء مرحلة العبور من الدنيا الدنية الفانية الى دار الحق ، دار السلام : ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ ، **حيث تختفي** نوازع البشر المادية بمجرد أن يجيب الجميع على التساؤل الذي يستهدف اليقين : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]، وبالله التوفيق .

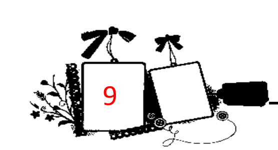
حَامِد عِزَ الدِّينْ بَرَكَاتْ

مدير عام وكالة الأخبار العربية

القاهرة

2010م





(مَرثِيَّة الطِّفل اليتيم إلى أبيه)

بعد أن سمَا إلى السَّمَاءْ

ذكرى الرحيلِ والحُضُور .. مِنْ وليدِكَ الصَّغِير :

وَالِدي وسَيِّدي ..المُعَظَّمَ .. المُظَفَّرْ

تحيةً وبعدْ ..

هَا أَنْتَ يَا سَيِّدِي تـعُودُ

مِنْ جَدِيدْ ..

تُوَاصِلُ الْقِتَالَ مِنْ مَقَامِكَ

التَّلِيدْ [1].

تَحُثُّنا نَـعُـودُ

كَي نقود ..

كَيْ نُقَاوِمْ .

تُعِيدُنا لذاتِنَا الشَّريـدَة..

الطَّريدَة ..

---

(1) التليد : العريق الأصيل القديم .

تَهُزُّنَا كَلِمَاتُكَ الْعَرِيقَة

تدلُّنَا..

تُبَاهِر[2] الأبْصَارَ والأَفْهَامَ

وَالعُقُولْ ..

في رحلةِ البحثِ عن ..

الحَقِيقَة ..

وَسْطَ بَحْرٍ مَائِجٍ يَغُصُّ

بالهُمُومِ وَالْألَمْ .

* * * *

وجُلَّنَا [3] يا سـيِّدي

– لَكَ أَعْتَرِفْ –

قُلُوبُهُم عَمْيَاءُ أو ...

هَـوَاءْ

وهَا هُـوَ الخَـوَاءُ

والْفَنَاءُ

وَالْعَدَمْ ..

(2) والانبهار فقد القدرة من العين للرؤية لشدة انعكاس الضوء عليها .

(3) جُلُّنا : معظمنا أو أكثرنا .

يُفَاخِرُ الأَهْلَ والأَصْحَابَ والأَحْبَابْ

بِالذِّهَابِ والإِيَابِ – مُطْلَقًا – في ..

سرابيلِ الذَّهَبْ

فِي سراديبِ المدائنِ

والبُيُوت ..

مُبَشِّرًا في سفاهةِ المَزْهُوِّ جَهْلاً

ومُعْلِنًا على المَلأْ ..

هَزِيمَةَ العَرَبْ.

* * * *

يعودُ صوتُك الجَسُورُ

هَادِرًا

مُنَازِلاً [4] شَيْطَانَهُمْ

ونَازِعًا عَنِ القبيلَةِ [5]

---

(4) **منازلاً** : مبارزًا ومقاتلاً من النزال .

(5) **نازعًا عن القبيلة** : مغايرًا متميزًا وضاربًا في سبل جديدة .

مُبَاهِيًا

بفَهْمِكَ العَمِيقْ

وحِسِّكَ الرَّقِيقْ

ولفْظِكَ الرَّشِيقْ

وفِكْرِكَ المُضِيءِ ظُلْمَةَ المَحَالِكْ [6].

❊ ❊ ❊ ❊

وفي الْفؤَادِ سيِّدي ..

ما يفُوقُ قُدْرَتِي ..

على التَّلَفُّظْ..

أمامَ أعْتَابِ فيضِ علمِكَ المُبَارَكْ

من لَدُنْ ربٍّ كريمْ

عِشْتَ مِنْ حُفَّاظِ ذِكْرِهِ المَجِيدْ

بَارَكَ الحَقُّ العَمَلْ .

❊ ❊ ❊ ❊

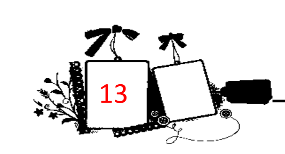
والتَّقَرُّبُ سَيِّدِي ...

من سَاحَةِ العِلْمِ المُصَفَّى

حَقُّ طفلٍ لم يُهَاهِلْهُ الزَّمَنْ

بُرْهَةَ الرِّيِّ الشَّغُوفْ

(6) **المحالك** : الليالي حالكة السواد ، ويراد بها المحن والشدائد .



ومَاؤُهُ كَانَ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ

لِكَفِّهِ الغَضِّ الصَّغِيرْ.

❊ ❊ ❊ ❊

من جديدٍ نلتقي يا سَيِّدي

حَسْبَ ميعادٍ قديمْ…

قد تحدَّد في الأَزَلْ

وكانَ مَعْقِدَ الأَمَلْ

❊ ❊ ❊ ❊

عَلَّمْتَنَا يا سَيِّدي أن الرِّضَا سِرُّ القَضَاءِ..

بلطفه وبرحمته ..

❊ ❊ ❊ ❊

يا والدي…

وأَنْتَ في عَلْيَائِكَ المُكَرَّمَة

نـرْنُـو إليـك وكُـلُّنا..

خوفٌ ورَهْبَة....

أن تكونَ شفيعَنَا

يوْمَ التَّغَابُنْ.

❊ ❊ ❊ ❊

يا سيدِّي وقائدي

يا قُدْوتي وعُزْوتي

(أَيْنَ فِي الرَّمْضَاءِ [7]

ظِلٌّ مِنْ ظِلالِكْ ؟!!).

❊ ❊ ❊ ❊

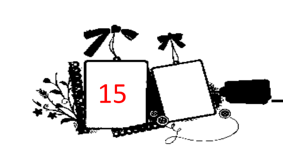
بتَواضُع من أصغر أبنائك

شعر/ أَشْرَفْ مَحْمُودْ عِزّ الدِّينْ بَرَكَات

القاهرة 2010م– 1431 هـ



(7) الرمضاء : وقت الحر الشديد ويسمى القيظ كذلك .



مُقَدِّمة تمهيديَّة

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 16].

الحمد (لله) (العليّ –العظيم– القدير – الحليم) ، ما عَرَفْنَاه حقَّ معرفته ، ولا تَلَوْنا كتابه حقَّ تِلاوته ، (ربّ) العرش (العظيم) ، (مالك المُلْك) والملَكُوت .

والصلاةُ والسلامُ على رسوله الكريم (**محمد بن عبد (الله)**) ﷺ (**النبيّ**) الأُمِّي، حامل لواء آخر وَحْي السَّماء ، صلاةً وسلامًا تُخْرِجُنا من الظلُمات إلى النُّور.

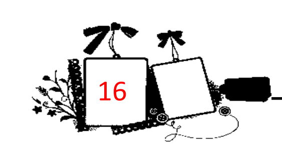
أحمدُه تعالى حمد مُنيبٍ إليه مُعْتَمِدٍ عليه ، وهو منه بدأ الحمد وإليه الحمد يعود ؛ لأنه – وحده – واجب الوجود .

أمَّا بعد...

فإن (الله) ﷻ فوق مدارك العُقول ، والظن بأن ذات (الله) تعالى خاضعة للرسم والوصف والتعريف كفر صُراح ؛لأنه – سبحانه – ليس جسمًا ولا حادثًا ؛ولأن الباحث يبحث بعقله، و(الله) تعالى هو (خالق) العقل وما سواه ، و(**هو (المحيط) بكل شيء**)؛ فكيف يكون شيءٌ – مهما بلغ – محيطًا به؟. وهذا هو أول ما جاءت به (**رسالة التوحيد**) (لله) سبحانه وتعالى .

فإذا قال أحدهم :

إن نقطة الدائرة في المركز يمكن أن تُحيط بالدائرة نفسها،كان ذلك ضربًا من الوهم والتخبُّط ؛ إذ كيف يمكن للجزء أن يحيط بالكل ؟!.



ثم إن عدم إحاطة الإدراك بذات (الله) – جلَّ وعلا – إدراك في حد ذاته؛ (**فالعجز عن درك الإدراك إدراك**) ، كما ورد في الأثر عن (**أول الخلفاء الراشدين**) ~ أجمعين .

وقد سبقنا قوم، راودهم (**الشيطان**) كثيرًا في (**مسألة وجود(الله)**) ؛ فخرج علينا شرذمة من (**الملاحدة**)، الذين قالوا بأن الأكذوبة الكبرى هي الزعم بوجود (الله) جلَّ شأنه،لكنهم فشلوا وطوّحت بهم متائه أفكارهم؛ فضلوا وأضلوا: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** ﴾ [**الإسراء**: 17] .

وقد ضُرِبَ لذلك مثل ببحر لا يُدْرَك غوره ولا يُحد حده؛ وللتثبُّت من هذه الحقيقة قذف أحدهم بنفسه في هذا البحر الهائل بمخلوقاته اللانهائية ، وكان كلما أمعن في مدارات هذا البحر الخِضَمّ وجده بلاعمق ولاحد، وطَوَّف الرجل في أنحاء عديدة إلى أن أيقن – بالفعل– أن هذا البحر لانهائيّ.

ولما سُئِلَ : أأيقنت أنه بحر لا يُدْرَك غوره ولا يُحد حده ؟ .

قال : نعم أدركت . فلما سُئِل : ما أدركت ؟ .. قال : (**أدركتُ أنه لا يُدْرَك**).



وأنشد يقول :

يا (حَيُّ) يا (قيومُ) قد بَهَرَ العُقُولَ سنا[8] بهائِكْ
مُتَحجبًا[9] في غَيْبِكَ الأَحْمَى مَنِيعًا في عَلائِكْ
وظهرتَ بالآثارِ والأعيان[10] تبدو في جَلائِكْ
عجبًا خفاؤُكَ من ظهورِكَ أم ظهورُكَ من خَفَائِكْ
إنِّي سألتُكَ والذي جمعَ القلوبَ على ولائِكْ
نُورِ الوُجُودِ خُلاصَةِ الكَوْنَيْنِ صَفْوَةِ أَنْبِيَائِكْ
إلَّا نظرتَ لمستجيرٍ عائذٍ بك من بَلَائِكْ
قَذَفَتْ به من شاهقٍ[11] أيدي امْتِحانِكَ وابْتِلَائِكْ
ورَمَتْهُ من ظُلَمِ الطبائِعِ والعناصرِ في شَبَائِكْ
فإذا ارْعَوَى[12] أو كادَ نادَتْهُ القيودُ إلى وَرَائكْ
فَالطُفْ به فيما جرى في طَيِّ عِلْمِكَ من قَضَائِكْ
يا (حَيُّ) يَا (قَيُّومُ) قَدْ بَهَرَ العُقُولَ سَنَا بهائِكْ

* * * *

وكذلك، تناولت جميع الفلسفات الغربية –من وُجُودية وماركسية وعَلْمانية وغيرها– موضوع ذات (الله) ﷻ ، ثم عقدوا لذلك مؤتمرًا مُوسَّعًا، اتَّفق بعده جميع الفلاسفة على أن (الله)– تنزهت آلاؤه –هو مهندس الكون الأعظم ، الذي صَوَّر وكوَّن ولوَّن وشكَّل الكون ، ووضع هندسته ونظَّم حركته ودوران كواكبه السيارة ، تنظيمًا لم يتطرَّق إليه خلل منذ نشأ .

(8) **السنا** : الضياء .
(9) **متحجبًا** : متخفيًا خلف الحُجُب .
(10) **أثر الشيء وعينه** : أي تأثيره الظاهري وحقيقة جوهره وجمعها الآثار والأعيان .
(11) **شاهق** : عالٍ .
(12) **ارعوى** : اهتدى وأناب .

ذلك لأن صفات (الله) ﷻ ظاهرة وذاته باطنة ؛ ولأنه ذلك (الواحد-الأحد) الذي **(يُرَى أثَرُهْ ولا يُعْلَم خبرُهْ)** .

وما الهندسة الإلهية إلا صنعة متعلِّقة بالحكمة والقدرة والعلم والإبداع والتصوير؛ وهو اعتراف صريح من كل مشرك بأنه ﷻ (الحكيم -القدير- العليم -البديع -المصور) .

وهو- سبحانه – الذي أراد أن يُبيِّن لخلقه حِكمة الكون وسُنن الخلق؛ فأرسل رُسُله عليهم السلام أجمعين على مرّ التاريخ البشريّ ، من (نوح) إلى **(محمد)** عليهما وعلى جميع **(الرُّسُل والأنبياء)** صلوات (الله) وتسليماته وبركاته ؛ حتى **(يُبَيِّنُوا)** للناس ما خَفِي عنهم من حكْمَة وعلم .

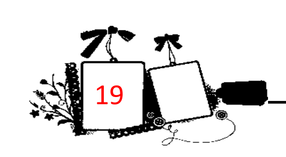
وأساس هذه الحكمة وهذا العلم ، هي المعرفة والاعتراف بوَحْدة الوجود وَوَحْدَانية (الواجد -الماجد) ،الذي لا شريك له في مُلكْه ،ولا نظير له في علمه وإحاطته : ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ**﴾ [هود: ١٢٣] .

كما جاء في القرآن الكريم **(الكتاب الخاتَم الموُحَى به إلى (محمد)** ﷺ) ، وهو الرسول الأكرم ، الذي أنبأنا فيه ربه : ﴿**لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾. [التوبة: ١٢٨] .

ولأنه ﷺ : ﴿**رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾، فإن الرأفة والرحمة تقتضيان منه تبصير الناس بذات (الخالق- البارئ) سبحانه ؛ إيمانًا بأنه (الواحد- الأحد)الذي لا شريك له في حُكْمه ولا نظير له في حِكْمته :

﴿**وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ**﴾ [الحج: ٧٨] .

ثُمَّ يبيِّن-سبحانه-التكاليف، ويُبْرز الأساس الذي يقوم عليه الدين الخاتم، بقوله : ﴿**فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾ [الحج: ٧٨].



ثم يربط سلسلة (المُرسَلين)عليهم السلام حيث يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٨١] . و﴿ٱللَّهُ﴾ – عز وجل – هو القائل مؤكدًا : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]

والدين رُوح الحياة، وجوهر الدين **(التَّوْحيد)** ، وأصل التوحيد الإيمان بوجود (الله)، وبُرْهان وجود (الله) عز وجل صفاته وأسماؤه ، المُشْتَقَّة– جميعها– من أفعاله ، وأفعاله –جلَّ وعلا– التي هي سُنَنُه الثابتة الأزليَّة الراسخة في أعماق الأرض والسماء وما بينهما ، من كواكب وعوالم ومخلوقات، لا يعلم أعدادها ولا أنواعهاوأجناسها ولا سُلالاتها وصفاتها ونشأتها ومآلها، إلا ذلك (المهيمن – الحكيم– الخبير – السَّميع– البصير– علام الغيوب)، وهو – تنزهت ذاته – الذي أوحَى لرسوله صلى الله عليه وسلم ضمن ما أوحي : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] .

فليس يكفي في شريعة **(الإسلام الحنيف)** أن تؤمن بوجود (الله) عز وجل وحسب ، بل أن توقن ألا (إله) إلا هو (الواحد– الأحد) ، وأنه لا يكافئه أحد ولا يماثله ولا ينازعه قيُّوميته أحد ، وأن قضاءه ماضٍ في مُلْكِه كله بقدرة مُطْلَقة:﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

وسمة الخلق الأعظم صفة سارية ظاهرة سرمديَّة لها وصف الدَّيْمُومة ؛ ولذلك فهو–سبحانه وتعالى– يبيِّن مؤكدًا : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وهذا – وأيم (الله) – فِعْلُه الأعظم ووَعْده الأكرم ، فما انقطعت من لَدُنْه سُنَّة وما انتقص من عليائه كرم أو رحمة أو آيات بَيِّنات ، يَنْطِق بها –في كلّ وقت وفي كلّ حين– ذلك النَّسيم الذي يتنفَّسه كل طير وبشر وشجر وحيوان، ومخلوقات لا يتسع علمها إلا لواهب الحياة من العدم : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وفي رحلة البحث في الأسماء والصفات -المقترنة بالقَبَس الخالد والقُدْس الأقدس ذات(الله) ﷻالأجلّ الأعظم- مجال عظيم فسيح ، مُؤَدَّاه اكتشاف الذات الأقدس،ومن ثمَّ اكتشاف الذات الإنسانية الصافية الخالصة الحية، بتجليات الأسماء والصفات العلية،لكل من له قلب ينبض بالفطرة ويدين بدين الفطرة ، سرّ الوجود ورُوح الحياة في الدنيا والآخرة علي السواء.

وفي رحلة البحث في أسماء (الله) - جلَّ جلاله - وصفاته مجال خصب ونامٍ ومُتَنَامٍ، للبحث في جوهر الدين الصحيح ، وتجلِّيات إبراز حقيقة التوحيد، وأساسه الإيمان بوجوده سبحانه (المَلِك) (الأعلى)، مبرهِنًا على وجوده ﷻ- وهو واجب الوجود لذاته- بهذه الأسماء وتلك الصفات.

وهكذا تُؤَدِّي بنا هذه الرحلة المُبَاركة- التي ندعوه تبارك وتعالي أن يجعلها نافعة لأمة المسلمين،خالصة لوجهه الكريم- إلى اكتشاف الكون كله ، بحِكَم خَلْقه ومخلوقاته ماظهر منها ومابطن، فيتحدَّد للمسلم - متي آمن- اتجاه قويم وهدف كريم،ومن هَدْي **(الشريعة المحمدية)**الشريفة يَقْتَفِي أثر الحقائق .

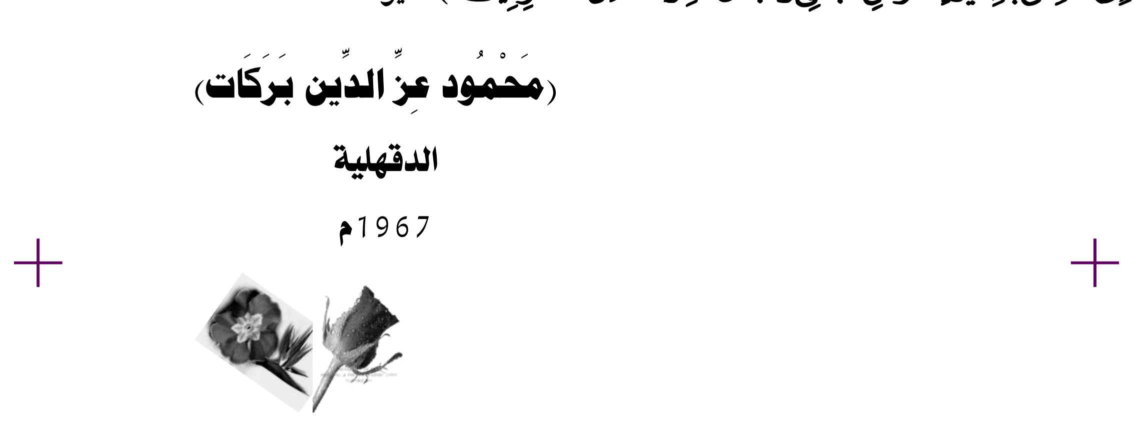
ولقد تعدَّدت اجتهادات **(العلماء)** الأفاضل ~ أجمعين في البحث في الذات العلية وأسمائها وصفاتها، وأبلوا في مجال هذا البحث بلاء مشكورًا،نرجو أن يُمَثِّل اجتهادنا في هذا الكتاب -بين أيديكم- إضافة تضيء بُقْعَة ضوء، يهتدي على ضيائها مسلم جديد،بهدي سديد وفكر رشيد، و(الله) ﷻ - سبحانه - نِعْم (المولى) ونِعْم (النصير) ، من وراء القصد .

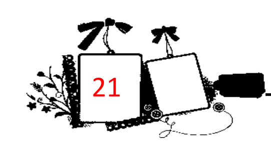
وهوجل شأنه الذي أمررسوله ﷺ ، والتابعين بإحسان إلي يوم الدين بقوله: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

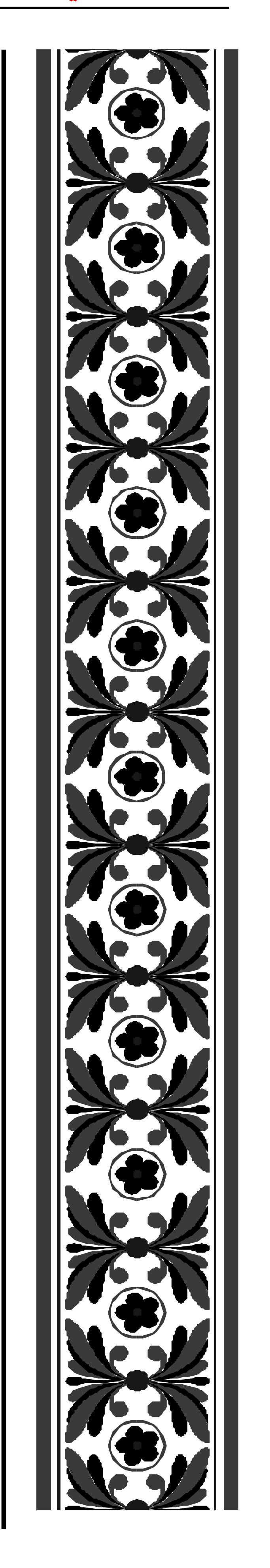
(مَحْمُود عِزّ الدِّين بَرَكَات)

الدقهلية

1967م







البَابُ الأَوَّل

سلطان

افتتاحية
رسالة التوحيد

إن الأحكام العقلية بشأن الوُجُود ثلاثة ، هي علي التوالي :-

1- (**واجبٌ لِذَاتِه**) : وهو مالا يُتَصَوَّرُ عَدَمُه .

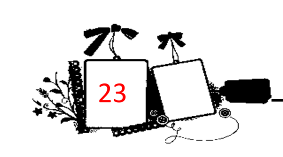
2- (**ممكِنٌ لذاته**) : وهو ما يَجُوزُ وجودُهُ وعَدَمُه .

3- (**مستحيلٌ لذاته**) : وهو ما لا يُتَصَوَّرُ وُجُودُه .

ونحن بوصف كوننا عِبَاد (الله)، مِنْ صالحنا ابتداءً أن تكون العَلاَقة بيننا وبين (ربِّنا) و(بارئنا) علاقة قائمة على المعرفة،بما يَليقُ به من الصِّفات ومايستحيلُ عليه منها ؛ فتكونَ عبادتنا مبنيَّةً على أساس تلك المعرفة ، إذْ لا معنى لعبادةٍ تقومُ على غير عِلْم .

ومن هُنا يقولُ (اللهُ) - جلَّ شأنهُ وعلا قَدْرُه - : ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: ١٨].

على أنه ليس من الممكن أن تكون ذاتُ (البارئ)- سبحانه- موضوعًا للعلم البشريّ المحدود ، فإنَّ هذه الذات لا تُعْرَفُ بالماهيَّة ولا بالحد العقليّ؛لأنها ذات مُطْلَقة حتى إذا اعتبرنا قولنا عنها إنها مطلقة قولاً مُطلقًا، فإنها أيضًا مطلقة حتَّى عن قَيْدِ الإطلاق نفسه.



ولا يمكن للعبد أن يُصْدِرَ حُكْمًا ما على ذات (الله) ﷻ ؛ لعجز العقل عن الوصول إلى التَّعْريف،الذي به يَعْرِفُون : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وإنما تتجه محاولةالمعرفة به– ﷻ– عن طريق العلم ، الذي بَيَّنَهُ إلى صفاته الواجبة له وجوبًا ذاتيًا ، ومعرفة أضَّدادها التي تستحيل عليه .

وهذه الصفات انتهى العلماء إلى أنها (صِفَاتٌ ذاتيَّة)و(صفات كَوْنِيَّة)، يمكن إجمالها بشيء من التفصيل فيما يلي من مسارات البحث ؛ اهتداءً منا بقوله تعالي في كتاب الذكرالحكيم : ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: 104].



المبحث الأول الوجود

وهي صفة قديمة قائمة بذاته ﷻ وهي أُولَى (**الصفات الذاتيّة**)، بل يقول المتكلمون إنها أسبقها؛فالأزل والأبد بالنسبة إليها أمران اعتباريَّان ؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

ومتى كان (الأَوَّلُ) هو عَيْنُ (الآَخِر) ، و(الظاهِرُ) هو عين (الباطِن) ؛ لَزِمَ من ذلك كون (**الأَوَّلية والآخِريَّة**) و(**الأزليَّة والأبديَّة**) أمورًا اعتباريَّة لا لشئ سوى النسبية.

ومعنى هذا أن الصفات مهما تعدَّدَت لا تقتضي تعدُّد الموصُوف ، وهو واحد بذاته وله- وحده ﷻ- صفة (**الوَحْدَانية**)، ولو تعدَّدَت الصفات.

ونحن نرى الإنسان- وهو مَجْلَى الصفات الإلهيَّة- واحدًا بنفسه متعدد الصفات، فهو الباسم العابس،المعطي المانع،الرحيم الباطش،الغاضب الراضي. فهل هو في كل هذه الأحوال يختلف في ذاته أو يتعدَّد بتعدُّد تلك الأعراض؟!.

وصفة الوجود صفة إلهية لا شريك له- سبحانه وتعالى- فيها؛وإذا نظرنا إلى المبادئ العقلية المُجَرَّدة وجدنا أن صفة الوجود غير واجبة إلا له ﷻ ،وأن صفة وجود الإنسان أو الأشياء جائزة لا واجبة ؛ لأن ما يمكن تصور وجوده وعدمه،لا يكون واجب الوجود أصلاً.

إذًا فواجِبُ الوجود هو (الواحد الأحد) الذي لا يتعدد ، وإليه يَرْجِعُ أمر منح الوجود لمن شاء بما شاء ، وهو (مالك الملك) ، وكل ما ظهر من مظاهر قدرته ، يكون هو ﷻ القائم به .



ومن ثَمَّ يُفْهَمُ معنى قوله جل شأنه : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[الرعد: ٣٣] ، وقوله : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[البقرة: ٢٥٥] ، و﴿ٱلْقَيُّومُ ﴾ صيغة مبالغة من الصفة قائم.

وفي (حديث) عن (النبي) ﷺ:

«والذي نفسي بيده لتَمُوتُنَّ كما تنامون ولتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون ولتُجْزَوُنَّ بما كنتم تعملون وإنها والله لَسَعَادَةُ الأبد أو شقاءُ الأبدِ » (13).

ومن (**الحديث**) يتبيَّن أن الإنسان لا يملِكُ وجوده، بل يمكن سلبه إياه دون الرجوع إلى رأيه أو انتظار مشيئته، فإن المرء ينام والنوم أخو الموت، وهو وفاة بنصّ قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقوله سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

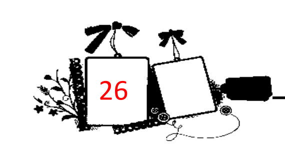
وبذلك يتضح تمامًا مَنْ هو صاحبُ الوجود الواجب ؛ فهو إذًا واجب الوجود وكل ما سواه ممكن الوجود ، لبعض الاشتراك في الصفة الثانية.

ومِنْ هنا يقولُ الشاعر:

(مَنْ لا وُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ   فَوُجُودُهُ لَوْلاهُ عَيْنُ مُحَالِ)

إذ إنَّ واجب الوجود له صفة لا شريك له فيها وهي قيامه تعالي بنفسه، أما ما سواه فقائم بما أفاض عليه صاحب الوجود من قوة ؛ إذ لا قوة إلا (بالله).

(13) جاء هذا (الحديث الشريف) في أول خُطبة خطبها الرسول ﷺ في مكة ، فبعد أن حمد (الله) وأثنى عليه قال : « إن الرائد لا يكذب أهله ، و(الله) لو كذبتُ الناس جميعًا ما كذبتُكم ، ولو غررتُ الناس جميعًا ما غررتُكم ، و(الله) الذي لا (إله) إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصةً ، وإلى الناس كافة» . ثم قال (الحديث) المشار إليه .



والوجود الواجب ليس مسبوقًا بعدم، وكل وجود مسبوق بالعدم وجود ممكن لا واجـب، وفي هذا يقول الشاعر مستشكلاً:

(إِنْ قُلْـــتَ إِنَّـــكَ موجـــودٌ   فوجـــودُكَ مســـبوقٌ بعـــدمْ
وإن قُلْـــتَ إنـــك معـــدومٌ   فعجيـــبٌ عـــدمٌ يـــتكلَّمْ)

وحاصل هذا التعيين أن المسبوق بعدم يكون قد طرأ عليه الوجود من خارجه لا من ذاتـه، وإن لزم الترجيح بغير مُرَجِّح، وهو مُحال ودليله سبق العدم.فلابد من مُرَجِّح رَجَّـح الوجـود الَّلاحـق على العدم السابق، وهذا المرجِّح هو (الله) ﷻ، فلا (موجُودَ) بحـقٍّ سـواه،ولا (معبُـودَ) بصـدقٍ غيره : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: 37].



سلطان

المبحث الثاني القِدَم

وهو أنه تعالى قديمٌ لا سابق له، والقِدَمُ نوعان قدم مُطْلَق أزليّ وقِدَم نسبيٌّ حادث.

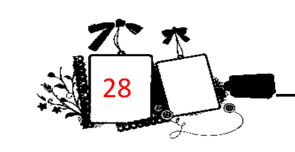
فالأُولَى تعود إلى (الله)ﷻ؛ إذ لا أوَّل (للأوَّل) ولا آخِر(للآخِر).أما القِدَمُ الثَّاني كقِدَم ثوبك على الثوب الجديد وهكذا من الأمثلة العديدة.

وترتبط صفة القِدَم للأولية ،كما ترتبط الصفة الثانية وهي البقاء للآخِرِيَّة. فهو تعالى قـديمٌ أزليّ (باقٍ) أبديّ ، والقِدَم معناه الأزلية التي هي عدم الأوَّلِيَّة.

وقدأشرنا إلى أن القِدم المُطْلَق –وهو (لله) ﷻ – يكون نسبيًا للكائنات التي يجري عليها حُكْـمُ الزمان والمكان والجِسْمِيَّة، والجسمية للمكان ويُقَال فيه (**أين**)، وللزمان ويُقَال فيه (**متى**).

والقديم– سبحانه– مُنَزَّهٌ عن كلٍّ من الزمان والمكان لتنزُّهه عن الجسمية، وبالتَّالي لا يُسْأَلُ عنه بـ (**كيف**) ؛ لعدم الكيفية ولا بانْفِعال ؛ لأَنَّهُ –سبحانه– لا ينفعل؛ لُمخالَفَته تعالى للحوادث.

ويُقَابِلُ صفةَ القِدَم صفةُ البقاء، فالقديم الأزليّ (باقٍ) أبديّ، وحيث إنه فوق الزمان فالأزليَّة والأبديَّة والأوَّلية والآخِرِيَّة اعتباران نسبيَّان، وهو تعالى مُنزَّه عن النِّسَب والاعتبارات ؛ لأن (الأول) هوذاته (الآخر) ولأن (الباطن) هو ذاته (الظاهر) ؛ فلزمت له الوَحْدَانية المُطْلَقة حتى عن قيد الإطلاق .



ولقد قال بعضهم في تقرير الوجود :

(هـذَا الوُجُـودُ وإنْ تعـدَّدَ ظـاهرًا وحَيَـاتِكُمْ مـا فيـهِ إلَّا أنـتمُ

أنـتُمْ حقيقـةُ كُـلِّ موجـودٍ بـدا ووجـودُ تلـك الكائنـات تَـوَهُّمُ)

وقد أغرق الشاعر وشطحت به نشوته ؛ لأنَّ وجود الكائنات لا يكون توهُّمًا إلا ظُـنَّ وُجُوبُـه ، ولكنَّ قيام (الموجود) الواجب بالموجودات الممكنة ، إنما يُعتبر تجلّيًا من صـاحب صـفة الوجـود ، والصفة ليست عينًا للموصوف ولا غيرًا له ، وهذا شأن التَّجلِّي .

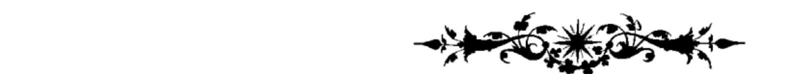
ولنضربْ لك مثلاً على أن الصفة ليست عينًا ولا غيرًا للموصُوف .

فمثلاً:

المصباح (أ) والمُشِع (ب) والمَجْلَى أو السطح (جـ) يؤكد لنا أن هـذا الشُّـعاع (أ) عـلى مطرحـه السطحيّ (جـ) الذي تجلَّى عليه المشع المُتَجَلِّي (ب) ليس عينًا للمصباح ولا غيرًا له ، إذ لو كان عين المصباح لتأثَّر بضربنا للشُّعاع ، ولو كان غيرًا له لبقى الشعاع بعد زوال المُشِعّ المتجلِّي وهـو مُحَـال ، فلزِم أن الشعاع (ب) ليس عينًا للمشع (أ) ولا غيرًا له ، بل هو تجلِّيه .

والكون كله من تجلِّيات (الحق) المبين، وهو لا عين له ولا غير له .

ويقابل صفة **(القدم)** ما تقتضيه صفة **(البقاء)**، وهي الصفة التي يقتضيها ثبوت صفة **(القِـدم)** اقتضاءً ذاتيًا .



المبحث الثالث البقاء

وحاصِلُها أن القديم الأزليّ هو (الباقي) الأبديّ ، وهي صفة تنفي النهاية؛ فلا نهاية له،كما تنفي صفة القِدَم البداية ؛ فلا بداية له.

وعليه تبيَّن قوله تعالى في سورة (الحديد) : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] كما أشرنا من قبل عندما بيَّنا أن الأوليَّة والآخِرِيَّة ، أو الأزلية والأبدية اعتبارات تقديريَّة .

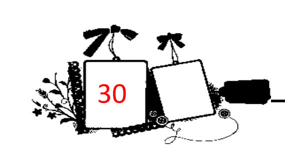
فهو – ﷻ – قديم أزليّ (باقٍ) أبديّ سرمديّ لا أول قبله ولا آخر بعده : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27] .

وهو – سبحانه – (الباقي) بعد فناء الخلق ، وهو (الدائم) الوجود بعد كل شيء بلا انتهاء، وهو الذي لا يقبل الفناء.

وهو (الأول) بلا ابتداء،وهو(الآخر) بلا انتهاء لقوله تعالي : ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 73].

ومن هنا تأتي الصفة الرابعة ، وهي الصفة المتعلقة بـ (**مخالفته – سبحانه وتعالى – للحوادث**) .





المبحث الرابع مخالفته ـ تعالى ـ للحوادث

والمقصود بالمخالفة– هنا– عدم المماثلة ، والمقصود بالحوادث الكائنات التي لا تَتَّصِفُ بصفة القِدَم ؛ لأنَّ الحُدُوث ضد القِدَم .

فكل كائن لم يكن موجودًا من قبل فهو حادث ، وعليه فكل صفة من صفات الحادث يتعالى عنها القديم –سبحانه وتعالى– مشابهةً أو مُمَاثَلة.

وكل صفة من صفات (البارئ) – عزَّ وجل– لا شبيه له فيها ولا مثيل، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :-

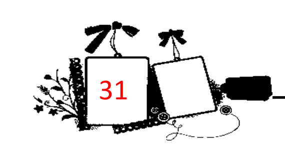
فعلم الإنسان طارئ عليه مُزِيل للجهل، ولكن علم (الله) تعالى ليس كذلك.

فإذا كانت كتابة الإنسان إنما هي رسم حروف اصطلاحية بالمعنى المراد على قِرْطَاس، فإن (الله) ﷻ ليس كذلك عندما يقول : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾[الأنعام: ٥٤].

وعندما يقول : ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] .

إلخ كل ذلك من آيات الكتابة، مُنَزَّهٌ عن الحرف والمِدَاد والقِرْطاس والقلم والبَنَان التي تحمل القلم.

ذلك لأن (البارئ) – جل شأنه– منزَّه عن الجسمية ، وهو– تعالى– مخالف للحوادث في ذات الجسمية أيضًا.



وكذلك في صفة البصر فإنه- تنزهت ذاته- لا يبصر بالحدقتين كحالنا، وكذلك السمع فإنه لا يسمع بالأذنين، ولذلك صدق قوله ﷻ : ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وعلى هذا تقوم صفة المخالَفة في جميع الصفات والاعتبارات.

ومن ثَمَّ ينفتح الباب واسعًا إلى الصفة الخامسة، ألا وهي : **(قيامه – جلَّ شأنه – بنفسه).**



المبحث الخامس قيامه ـ جل شأنه بنفسه

وقد قال -تعالى- وقوله الحق : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [**فاطر: ١٥**]، فهو (الغنيّ) الذي له الغِنَى التام المُطْلَق من كل الوجوه لكمال ذاته و صفاته، التي لا يتطرَّق إليها نقص بوجه من الوجوه ، ولا يمكن إلا أن يكون (غنيًا) ، فإن غِنَاه ﷻ من لوازم ذاته ، كما لا يكون إلا (محسنًا- جوّادًا- برًّا -رحيمًا- كريمًا) .

والمخلوقات بأسرها لا تستغني عنه في أيّ حال من أحوالها؛ فهي مفتقرة إليه ﷻ في إيجادها وبقائها، وجَوْدُه على خلقه متواصل بلا انقطاع، مادامت الحياة وما دام الليل والنهار؛ فإن (**خيره على جميع الخلق مِدْرَار**) كما ورد عن المحققين الأخيار ~ وأرضاهم أجمعين.

ومِنْ كمال قيامه- سبحانه- بنفسه أنه ﷻ (**لم يتَّخذ صاحبة ولا ولدًا**) ، ولا شريكًا له في مُلْكه ، فهو (الغنيّ) في (**ذاته وصفاته وأفعاله**) .

وهو (المُغْنِي) لجميع مخلوقاته ، وهو ينادي عباده مقرِّرًا : ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

فهو- سبحانه وتعالي- (الغنيّ) بقُدْرته ، بل وهو (المُغْنِي) الّذي يدعو المؤمنين برسالة التوحيد إلى الجَوْد ، بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربَّانية والإشراقات النُّورانيَّة .

وهو - ﷻ - (القيُّوم) الذي قام بنفسه وعظُمت صفاته واستغنَى عن جميع مخلوقاته ، فهو الذي أوجدها وأمدَّها وأعدَّها ، لما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها.

فإن كل ما سواه- ﷻ- مُفْتَقِرٌ إليه ، معتمدٌ عليه في ذاته ووجوده ومَلَكاته، وهو -سبحانه- قائم بذاته لا يستند إلى شيء ولا يعتمد على شيء سواه ، وهذا ما يقتضي الصفة السادسة،ألا وهي صفة (**الوَحدانية**).



المبحث السادس الوَحْدَانِيَّة

فإن وَحْدَانيته- سبحانه وتعالى- معناها انعدام النِّد والكُفْء والشبيه، وبالتالي المُماثِل في أي صفة من صفاته ؛ فإنه - جلَّ قدره - لم ينشأ عن سبب أو مثيل سابق عليه ، ولم ينشأ عنه سبب أو شبيه أو مثيل لاحِقٌ به .

وقد تجلَّى هذا المعنى بوضوح في سورة (الإخلاص) ، حيث يقول لرسوله ﷺ : ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١]، فليس له شريك ولا نظير: ﴿**ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ**﴾ [الإخلاص: 2]، أي المرجع في جميع المقاصد : ﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾ [الإخلاص: 3]، فلم ينشأ عنه سواه نِدًّا أو مماثلاً لاحقًا عليه : ﴿**وَلَمْ يُولَدْ**﴾ [الإخلاص: 3]، أي لم ينشأ جلَّ شأنه عن ندّ أو مماثِل سابق عليه : ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ**﴾ [الإخلاص: 4]، أي لا يمكن أن يكون له نِدٌّ مكافئ أو شبيه مماثل،مهما قال الناس فيما يعرفون عقلاً أو نقلاً:﴿**سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات: 180].

ولصفة الوَحْدَانية مجال بُرْهانيّ من الناحية الرياضية حتي لأولئك الذين لا يؤمنون بالوحي ، فإذا فرضنا أن للعالم إلهين اثنين ، فإنه لا يستقِلُّ كلُّ منهما عن الآخر إلا باختلاف الإرادتين، أو على الأقل بعدم الاتفاق الكامل فيما بينهما ، واختلاف الإرادة يقتضي فساد النظام الكونيّ .

فلو فرضنا- مثلاً- أن إرادة الإله (أ) وَجَّهت (**الشمس**) إلى خَطٍّ أو فَلَك مُحدّد، وجاءت إرادة الإله (ب) لتوجيه (**القمر**) إلى نفس هذا الخط أو الفلك، فإن من الضروري اصطدام الكوكبين: (**الشمس**) و(**القمر**) في ذلك الخط أو الفلك المفترض ، وبالاصطدام بينهما ينهار النظام الكونيُّ كله بل يفسد أيضًا ؛ لاختلاف الإرادتين بين الإلهين المُفْتَرَضَيْن .

وهذا أحد انعكاسات قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَآ**﴾ [الأنبياء: 22] ، أي السموات والأرض : ﴿**ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[الأنبياء: 22].

و﴿ لَوْ ﴾ تعنى الفرضية العقلّية البُرهانية ،وكذلك ﴿إِلَّا ﴾ فقد جاءت لتدل على استثنائه- جلَّ قدره- عن أي شريك.

ولذلك استحق- تعالى- أن يُسبِّحه(**الكون**)كله تنزيهًا وتفريدًا ؛ فقال بعد ذلك مباشرة : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[**الأنبياء**: 22] من أن يكون له شريك يُعْبَد أو يضر وينفع؛ فإن (رب العرش) ﷻ هو سقف المخلوقات وأعظمها جميعًا.

وعليه فإن استمرار سير النظام الكَوْكبيّ على مِنْهاج فلكيّ ثابت ،بغير اصطدام منذ ملايين السنين إلى الآن يدل على (**وَحْدانية الإرادة**)،ووحدانية الإرادة دليل على التفريد وهو المطلوب .

ولذلك يقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

و(**العُلُّو**) في(**الآية الكريمة**) دليل جديد على الوَحْدَانية كذلك؛ لأننا لو فرضنا أن هناك إلهين مختلفَيْ الإرادة ، وأراد كلٌّ منهما غرس شجرة في نقطة لا تتسع إلا لشجرة واحدة ، لاصطرع الإلهان كلٌّ لتنفيذ إرادته، وباصطراعهما يتغلب أحدهما على الآخر، والمتغلب المنتصر منهما يكون (إلهًا) (واحدًا) وهو المطلوب كذلك.

وبراهين وَحْدة الإرادة لا تنحصر في وَحْدَة النظام الكونيّ عُلْويًا وسُفْليًا فحسب ، بل هي واضحة جلية في وَحْدة النَّبْض في الجنس الإنسانيّ والفصائل والسُّلالات الحيوانية والنباتية التي تُحَدِّد درجة النماء والاستمرار معًا.

فلو كان هناك إلهان أو أكثر -كما يَدَّعي الجاحدون الكافرون أو يتوهَّمُون - لظهر أثر ذلك في المخلوقات والكائنات الحية من حيث قياس درجة الحرارة أو التمثيل الغذائي و(**الكُلُوروفيلي**) أو قياس نبض القلب الحيّ إلى غير ذلك ؛ ولهذا يبيِّن سبحانه وتعالى قائلاً : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 42-43].

وقد تحدَّى (ربُّ) الوَحْدانية- جلَّ قدره- في ميدان العمل والإنتاج والخَلْق دعوى الشِّرك والمشركين، بقوله تعالى : ﴿ **هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ** ﴾[لقمان: 11] ، وهو سؤال لم يجدوا عنه إجابة حتى الآن.

ونستطيع أن نشير إلى وَحْدة الإرادة بأجلي ظهور لها في السيارات السبع: (**زُحَل والمُشْتَرِي والمريخ والشمس والقمر والزُّهرة وعطارد**)؛ فإن لكل منها فلكًا أو نهرًا مغناطيسيًا يَسْبَحُ فيه، بل وتتعاون فيما بينها تعاونًا جَذْبيًا ،بحيث يكون مُحَدَّب (**زُحَل**) متساويًا مع مُقَعَّر (**المُشْتَرِي**) .

وقد أوحت الإرادة التفريدية في كل سماء أَمْرها ، وعقدت أواصر التعاون بين سياراتها وثوابتها ؛ فقام التلازم والتلاحم بين حركاتها : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [الأنبياء: 33] .

ثم يقرر ﷻ حكمة تقدير الحركة الدائبةالدائمة في الكواكب السيارة ،حين يقول : ﴿ **لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يسن: 40] ، في حركة مقدَّرة تقدير (الحكيم- القدير) ، بحيث تتألَّف من مواقع النجوم وانتقالات السيارات الفصول الأربعة وحركات (**الإلكترونات**) مهما دقَّ وزنها ،فإنه –سبحانه وتعالى- كما بَيَّن في كتابه العزيز : ﴿**خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ**﴾ [غافر: 62]،كما قال تعالي: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾ [يونس: 61] .

مُقَرِّرًا بذلك- جلَّ شأنه- أن كل شيء في الأرض والسماء صغُر أو كبُر لا يخرج عن دائرة علمه، خاضع لرَقَابته ومحفوظ برعايته .



كل ذلك- مما يدلّ على وَحْدة الكل الطبيعيّ- يُشْعِرُنا بأن الإرادة الواحدة المتفردة حكيمة عليمة قويمة، لا ءمَتْ بين المنتجات والمولودات والوالدات والفصول والأصول والفروع وبين حواسّ الإنسان بالفِطْرة، وجعلها- سبحانه وتعالى- في مجموعها مُسَخَّرة لخدمته ، حيث قال ﷻ في آية جامعة من آيات سورة (لُقْمان) ، وفي استفهام تَقْريريّ لا يدع مجالاً للشك لدي كل ذي عينين يرى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

ثم يُقَرِّر سبحانه وتعالى عن المجادلين بغير علم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: 20].

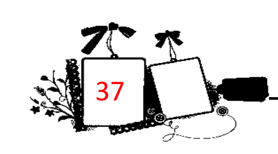
فالنور -كما اتفق العلماء- هو الذي يسري من حَدقة العين البصيرةليحرِّك خلايا الجسم الإنسانيّ بالحركة والنشاط والتجاوب.

وقد حدد أحد علماء الفلك الغربيين (**هيوج روس**) في كتابه (**بَصْمَةُ (الله)**) حوالَيْ أربعة وستين بندًا إذا اختلَّ أحدها زيادةً أو نقصانًا كانت الحياة على الأرض مستحيلة، وخلُص إلى نتيجة مُؤدَّاها أن خَلْق (**الأرض**) كان بغاية وقصد وليس عن طريق الصُّدْفة، وأنَّها أبعد ما تكون عن العشوائية أو تعارُض الإرادات واصطدامها، ومن هذه البنود تناول فترة دوران الأرض وسُمْك القشرة والتفاعل التجاذُبيّ مع القمر وانعكاس الضوء وغير ذلك من دلائل القدرة.

ولو كان ثمَّ إرادتان متباينتان بالانفصال ما ثبتت وَحْدَة الكون، فكيف يتأتي لعاقل أن يقول بأن وَحْدة الوجود الكونيّ يمكن أن تكون أثرًا لإرادتين مختلفتين.

إذًا فبُرْهان الوَحْدانيةَ الأول يتجلَّى في وَحْدة الكون وفي (**الكل الطبيعيّ**). وسنعرِضُ لذلك مثلاً :-





أُحِبُّ عبير الزهور ولكلٍّ منها في حاسَّة الشم قَدْرُه ومَيْزَتُه وخاصِيَّتُه، وترى العينان المشهودات فتُميِّز بينها وتدرك الألوان المتناسبة والقَسَمات المتناسقة وما يمكن أن يُسَمّى جمالاً وما يمكن أن يسمى قُبْحًا وتنافُرًا، وكذلك تسمع الأذن فتميِّز بين المتناغم المتناسب وبين النَّشاز المتنافر وتعرف البُؤْس والابتسام، والعين تَعْرِفُ من عَيْنَيْ مُحَدِّثها: إن كان من حِزْبها أم من أعاديها، ممَّا يدل على تعاون قُوىً إدراكيّ مع سائر الحواسّ حتى أنها لتُصَحِّح خطأ العين وتهيمن على صِحَّة المسموع أو بُطلانه أو صِدقه أو بُهْتَانه .كذلك أُحِسُّ بالبنان نعومة الشيء بملامسته أو خشونته وجفاءه وسائله ولازجه ويابسه، ولكن ليس للبَنَان أن تدرك طعمه وإن أدركت حرارته وبرودته، فيأتي اللسان ليُتِمَّ هذا النقص فيُخْتَص بالطعوم إدراكًا كما تختص الأنف شمًا.

وهكذا نلمح في تكوين الإنسان نفس التعاون، الذي يقوم في (**السماء**) بين الكواكب السيارة والكواكب الثابتة، والتناسُب بين مواقع النجوم : ﴿**فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ [**الواقعة**: 75- 76] ، مع أنه لا يمكن أن توجَد وَحْدَةٌ عن إرادتين مختلفتين، إذًا لظهر الاختلاف والتَّفرُّق، فلا تكون هناك وَحْدةأصلا.

وقد أوردنا أن (**الإنسان**)-نفسه-نموذج مُصَغَّر من (**الوَحْدَة الكونية**)، بما فيها من كِيَان ماديّ - تابع للكُلّ الطبيعيّ- وشعور رُوحِيّ غامر، من عقل وتصوُّر وتخيُّل وتوهُّم ، وتلك الحواس الباطنة التي تحكمها القوة المُدْرِكَة ،هي في ذاتها تابعة للكل الوجوديّ.

إذًا فالإنسان نفسه نموذج للكل الوجوديّ والكل الطبيعي معًا.

وبعبارة أخرى فإن (**الإنسان**) مُلْتَقَى القوى النارية والنورانية معًا ، وعليه تتنزَّل (**الملائكة**) حال الإيمان ، وعليه تتنزَّل (**الشياطين**) حال الضلال والكفر.



وهذاهو المفهوم الذي يبدو واضحًا في الآيات الآتية :-

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ [فصلت: 30-31] ، والآية الكريمة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: 12]، إلى غير ذلك من الآيات في هذا الباب .

هذا من ناحية النور و تنزُّل (**الملائكة**) عليهم السلام في سريان القُوَى الملكوتية في (الإنسان) باعتباره تابعًا لوَحْدانية (**الكُلّ الوجوديّ**).

وأما من ناحية النار وتنزُّل (**الشياطين**) ففي قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء: 221: 222] ، وكذلك في (الأنعام) : ﴿كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 71] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سلطان (**الشياطين**) على غير المؤمنين من المذنبين.

وبهذا وذاك يتضح أن (**الإنسان**) نفسه يؤلِّف وَحْدَة كاملة بين (**النُّور والنَّار**)، بين (**الملائكة والشياطين**) ، فإذا تحرَّر من الهَمْز والنَّزْغ والمسَّ والحضور واللَّبْس والاستهواء وهذه هي فعال الشياطين ، صار مُنْحازًا ناحية النور نحو اليمين مُؤَيَّدًا بالملائكة في كل موقف يستدعي الخوف أو الحَزَن ؛ فلا يخاف ولا يحزن : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] ؛ ذلك لأنهم اتخذوا (الله) (وليًا)، ومن كان (الله) (وليه) فلا يخاف ولا يحزن كما بيَّن سبحانه في (الأعراف) : ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: 196] ، وهذا الموقف من أخصّ الخصائص الرُّوحية للصالحين ~ من عباده.

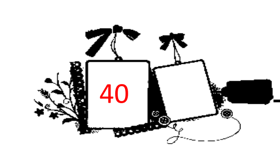


إذًا فالإنسان هو الوَحْدَة المُحَقَّقة بين الرُّوح والجسم أو بين المعنَى والمبنَى، فهو بذاته واتحاده مع حقائق الكون ، وانعقاد النسبة بينه وبين جميع المكوِّنات العُلْوية والسُّفلية والسيارات والثوابت، ومِمَّا وراء ذلك -مما لا قُدْرة للعقل الرياضيّ على إدراك كُنْهه أو كشف سِرِّه- يدل دِلاَلَةً قطعيَّة الثُّبوت على وَحْدة الإرادة الإلهية، وبالتالي على وحدانية (المُرِيد) سبحانه وتعالى .

وعلَّنا نكتفي بهذا القدر الوجيز في إثبات براهين الوحدانية بالنصوص المـوُحَى بها، وبقواعد العقل والهندسة الفلكية، وبحكم النبات والحيوان، ومُتَعَلَّقات علم النفس و(**البَيولوجيا**) و التكوين الطبيعي لنبات الأرض .

وقد استلزم ذكر صفة الوَحْدانية سَبْحًا طويلاً في (**الكُلّ الطبيعيّ**) وتكوينه، يأخذ بأيدينا بلُطْف إلى الصفة السابعة ألا وهي (**القُدْرة**).





المبحث السابع القُدْرة

والقُدْرة صفة قديمة قائمة به سبحانه (القادر) ، يُبْرِزُها في الزمان والمكان.

وعلى هذه الصفة في تقدير الكِيَان ما تعلَّقت به صفة العلم الأزليّ ؛ فبالقدرة نشأ (**الكون**) كله وَفْق ما تعلّق به العلم الأزليّ ، على النحو الذي نراه ونَلْمَسُه .

وهذه الصفة تتميز بقيام دليلها في كل شيء مقترنًا بالوَحْدَانِيّة الماضي ذكرها، ولقد قال (**الحسن بن هانئ أبو نُوَاس**) ﷺ في شعر له :

(تأمَّلْ في نباتِ الأرضِ وانْظُرْ	**إلى آثارِ ما صنعَ (المَلِيكُ)**
عُيونٌ من لُجَيْنٍ شاهِقَاتٌ	**بأحداقٍ هيَ الذهبُ السَّبِيكُ**
على قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شاهداتٌ	**بأنَّ (الله) ليس له شريكُ)**

وقد نظر الشاعر إلى زهرة (**القُرُنْفُل**) البيضاء وفي قاع كأسها قامت أعضاء التَّذْكير الذهبية على عُودها الذي تشبه خضرته الزَّبرجد فأطلق هذه الشَّهادة.

وهذا الشاعر هو الذي رآه أحد كبار العلماء -بعد طوافه حول (**الكعبة**)- في منامه ، يرفُل في حُلَل الخِزّ والديباج والإبريز فقال له :

ويلَكَ يا خليع، بمَ بلغتَ هذا المقام؟!

فقال باسمًا: ببيتين قلتُهُما في (الله) تعالى.

فقال: ما هما؟! لعلِّ أتخذ منهما دعائي.

فأنشد – ﷺ - قائلا :

(يـا (ربُّ) إنْ عَظُمَـتْ ذُنُـوبي كثـرةً   فلقـد علمـتُ بـأن عفْـوكَ أعظـمُ
إن كـانَ لا يـدعُوك إلا مُحْسِـنٌ   فـبمن يلـوذُ ويسـتجيرُ المُجْـرِمُ)

وكان (أبو العتاهية) – ﷺ - الشاعر العباسيّ الجَبار مُعَاصِرًا لأبي نـواس وللعصـر العبـاسي الزاهر، فقال من شعر له في ثبُوت الوَحْدَانيّة بالقدرة :

(فَـوَا عَجَبًـا كيـفَ يُعْصـَي (الإلـهُ)   أم كيـفَ يجحَـدُهُ الجَاحِـدُ
وفي كـلِّ شيءٍ لَـهُ آيـةٌ   تـدلُّ عـلى أنـه (الوَاحِـدُ))

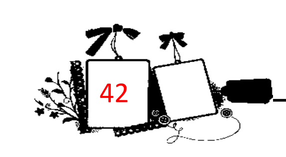
فالوحدانية ظاهرة في صفة القدرة ؛ لأنها بُرْهَانها القائم ودليلها الدائم ، فأنت– أيها الإنسـان– دليل القدرة لأنك مقدور ، وكل مقدور دليل على القُدْرة ، كما أن كل مصنوع دليل على الصَّنْعة .

ومجال القدرة هو كل ممكن بالذات، إذ لا مجال للقـدرة في المسـتحيلات الذاتيـة ، وقـد بيَّنـا في مطلع الأحكام العقلية أن المستحيل بذاته هو مالا يُتَصوَّر وجوده.

وقد ضرب (الله) – تعالى– لنا مثلاً مُعْلِنًا به أن قدرته– جل شـأنه– إنـما تتعلَّـقُ بكـل ممكـن – وهذه هي المرتبة الثانية من الأحكام العقلية – فقال سبحانه عن الكافرين : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40].

فالاستحالة الذاتية ظاهرة في المثل : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ، ولا يمكن تصور وجودها على النحو المفروض ، وهو دخول الجمل بجسمه الضخم الممتَـدّ في عـين الإبـرة الضـيق الشـديد الضيق؛ حيث لا يمكن تعلُّق القدرة بذلك .





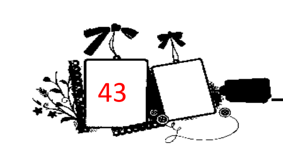
فلو فرضنا أن القدرة أحالت الجمل إلى خيط رفيع يدخل في عين الإبرة الدقيق ، فإن أصل الفرض أنه (جمل) لا خيط ، وإذا قلنا إن القدرة جعلت عين الإبرة تنفرج وتتَّسِع حتى يدخل من خلالها الجمل ، فإن أصل الفرض هنا أنها عين إبرة لا بوابة ، ولزم عدم تعلُّق القدرة بالمستحيل .

ولَمَّا كان من المستحيل وجود شريك لذات (البارئ) ،فيستحيل على قدرة (الله) أن تخلق شريكًا لذاتها، واستحالة شريك لذات (البارئ) قاعدة مُقَرَّرة .

على أن التعبيراللائق بالمقام هوالقول بعدم تعلُّق القدرة بالمستحيل أصلاً ؛ لأن المستحيل عدَمٌ في ذاته ، وقدرة (الله) ﷻ لا تتعلَّق بالعدم ؛ لأن العدم ليس شيئًا : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284] و ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [الإسراء: 66].

وحاصل هذا كله أن القدرة تظهر في كل مقدور، وكل مقدور دليل عليها، وصفة القدرة متعلقة- عندئذٍ- بالخَلْق والإنشاء والتقدير والحكمة . ومن هنا يبرُز المدخل اللائق إلى الصفة الثامنة وهي **(الإرادة)** .





المبحث الثامن الإِرادة

والإرادة وظيفتها التَّخصيص، ومعناه تخصُّص المُرَاد بالذات والصفة والكم واللـون والجـنس والنوع والفصل والخاصة . وضد الإرادة الإكراه ؛ فهو تعالى لا مُسْتَكْرِه له يُبْرِز بقدرته ما تعلَّق به علمه وخصصته إرادته . وبذلك يُرَجِّح وجود الممكن على العدم السابق عـلى هـذا الوجـود متـى كانت الممكنات التي خصصتها الإرادة حادثة، أي غير قديمة لجواز عدمها ، كما أشار إليـه كتـاب **(الجوهرة في قواعد العقائد)** :

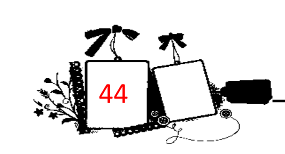
(فكل ما جاز عليه العدم ، عليه- قطعًا- يستحيل القِدَم) .

وبهذا يتعيَّن انفراده ﷻ بصفة القِدَم ، فكل ما خصصته الإرادة وتعلق به العلـم الأزليّ تُوجِـده القدرة تنجيزًا فيكون حادثًا ؛ ومن هنا جاءت القاعدة بحدوث العالم.

وبتجلِّي صفة الإرادة الإلهية على الإنسان ، جعل – سبحانه- للإنسان إرادة مستقِلَّة ، له أو عليه حتى لا يقع عليه عمل إلا راغبًا مُختَارًا ؛ لأن وقوع الإكراه عليه يُبْطِل ركن النية الـذي يقـوم عليـه أمر العقوبة أو المثوبة ، فلا مثوبة ولا عقوبة إذا ثبت انعدام إرادة الفاعل.

وحاصل ما ذكرنا يتَّضح من قوله سبحانه وتعالي : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ **[البقرة: 256]** .





ومن ثَمَّ جاء (**حديث**) الرسول ﷺ :

«رُفع عن أمتي الخطأُ والنسيانُ وما استُكرِهُوا عليه »[14] .

والقائلون بنفي الإرادة عن العبد مُنْكِرون لصفة الإرادة الإلهية ، وهم الـذين يسميهم العلم (الجبريِّين) [15]، القائلين بأن الإنسان مجبُور على جميع أفعاله ولا اختيار له ولا إرادة .

وهذا القول يُفْضي إلى الحكم على (الله) وهو (الحكَم العدل) بالظُّلم، كالـذين قـالوا : ﴿**لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ**﴾ [**الأنعام**: 148] ، وهو- سبحانه وتعالى- القائل: ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**﴾ [**الإنسان**: 30].

ولذا أعد دارًا للنعيم ودارًا للعذاب الأليم ،ثم حكم ﷻ :﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ [**المدثر**: 38] ، فالقوة من (الله) ﷻ ، والمشيئة من الـنفس ، وقـد قـال تعـالى: ﴿**قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا**﴾ [**الأنعام**: 104] .

وهنا يبرز جسم الإنسان كالسفينة في بحر الحياةالهادر:

سَـفِينكُمْ أَجْسَـامُكُمْ	فِي بَحْـرِ دُنْيَـا قَـدْ زَخَـرْ
وَكُلُّكُـمْ رُكْبَانُهَـا	وكُلُّكُـمْ عَـلَى خطَـرْ
فَـمَا لكُـمْ مِـنْ شَـاطِئٍ	سِـوى الْقَضَـاءِ وَالْقَـدَرْ

* * * *

(14) وجاء في (الحديث الشريف) في رواية عن (ابن عباس) رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **إن (الله) تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما اسْتُكرِهوا عليه** » . وقيل : حديث حسن رواه (ابن ماجة) ، و(البيهقي) رضي الله عنهما وغيرهما .

(15) الجبرية : مذهب فكري يعتقد أصحابه بأن الأحداث تقررها قوى لا سيطرة للمخلوقات البشرية عليها ، رغم اختلاف معتنقيها حول ماهية هذه القوى التي تُحَتِّم الأحداث ، تظهر آثارها في (الأساطير الرومانية) القديمة ، وتختلف عن مذهب جماعة (الجبريِّين) التي ظهرت في العالم الإسلامي في القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي وكان على رأسها (جهم بن صفوان) ولذلك تسمَّى أيضًا (الجهميَّة) .

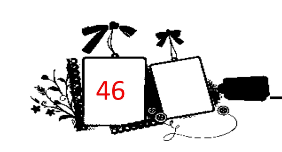
﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: 43- 44].

وهكذا تستند الإرادة- مجازًا- إلى الإنسان وإلى الجماد ، فأما الأولى فقوله- تعالى- في (الإسراء) : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: 18] ، وما كانت العقوبة إلا على أساس انحصار إرادته في العاجلة ،وتعلَّقَت إرادته- ﷻ - بتنفيذ إرادة العبد على مسئوليته ، وجزائه على ما أراد واختار لنفسه من بين الأشياء.

وحيث إن الإرادة تُخَصِّص المُراد من بين الأشياء ،فهي دليلنا على الاختيار الجُزْئِيّ ونَفْي الجبر والإكراه قطعًا باتًا ؛ حيث إنه يتهم (الله) ﷻ وهو (العَدْل) بالظُّلْم- تنزَّهت ذاته وعزَّ وعلا- ولا يندرج في الإرادة المجازية إستنادًا لقوله تعالى عن (موسى) عليه السلام و(العبد الصالح) عليه السلام : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ [الكهف: 77] ، فهذا الإسناد مجازيّ بالنسبة للجدار.

وبهذا يثبت صحة إسناد الإرادة للإنسان والجماد، وهو توكيد جديد لنفي الجبر في كل وجه .

ولو صحَّ وجود جبر أو إكراه على الإنسان، ما صح التكليف ولا إنزال الكُتُب ولا إرسال الرُّسل ، ولاَ نْطَلَق العالم في فوضى ،تنهار تحت أنقاضها جميع المبادئ والقواعد والأعراف الإنسانية بأَسْرِها، ومعنى هذا سقوط العقل سقوطًا تامًا.



وهذا الباب يتناول مباحث (**القضاء والقدر**) كلها ، وما فيه زَلَّت أقدام كثير من العلماء والمُتَعَالِين ، فقد انقسم أهل السنة إلى شُعْبَتين : (**الأشاعرة**) (16) و(**الماتُريديَّة**) (17).

أما(**الأشاعرة**) فزعموا أن الإنسان مختار في الظاهر ، مجبور في الباطن وبذلك نَفَوْا عنه الرَّوِية والتعقُّل والقياس والترجيح ، وهو ما يتعلق بالإرادة ومُشخِّصاتها، وزَعْم هؤلاء مُتَطوِّح بهم إلى مصافّ الجبرية وهم لا يشعرون. وما معنى قولهم بأن الإنسان مختار في الظاهر؟! حيث لا معنى للاختيار الظاهريّ، إذا كان منحرفًا عما توحي إليه لطائف النفس وحركة التدبير، التي تسلِّم بها جميع الشرائع السماوية والوضعية معًا.

وأما شعبة (**الماتُريديَّة**) فإنهم نَفَوْا حصول الجبر والإكراه في الظاهر والباطن، وخُلاصة رأيهم – وما أَلْهَمَنَا (الله) به من مَحْض هدايته –أن الإنسان ينقسم إلى قوة مُجَرَّدة وهي (لله) وحده ؛ إذ لا قوة إلا (بالله) ، وإلى إرادة تقوم على العقل واستخدام الروية والتدبير؛ ليدَّبروا آياته .

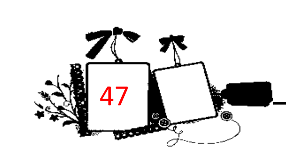
وبهذا تقع إرادته الإنسانية لتخصيص مُرَاد بعينه ، وتتعلَّق إرادة (الحق) ﷻ بكيفية تلك الإرادة ، التي شاءها العبد تحت مسئوليته– أي العبد نفسه ، فالقوة (لله) تعالى ، وحركة التوجيه للعقل ، الذي هو مَلِكُ الموازنة والقياس والترجيح: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد: 4].

والآيات بصائر (**لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**) بنص (**القرآن**). وبهذا الحُكم وتِبْعًا له ينتفي اتهام (الله) تعالى بالظلم .

---

(16) **الأشاعرة** : نسبة إلى (**أبي الحسن الأشعري**) ، المولود بالبصرة سنة 270هـ ، وقد مرت حياته بمراحل ثلاث ، أولها : نشأته على يدي (**أبي علي الجبائي**) شيخ المعتزلة في زمانه، وثانيها : ثورته على مذهب الاعتزال وإعلانه براءته منه واتخاذ منهج تأويل النصوص بما يتفق مع أحكام العقل على طريقة (**عبد الله بن سعيد**) ، أنا ثالثها: فإثبات الصفات جميعها (**لله**) تعالى من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تبديل ولا تمثيل ، وتوفي سنة 324هـ.

(17) **الماتُرِيدية** : فرقة كلامية بدعية ، تُنسب إلى (**أبي منصور المتريدي السمرقندي**) ، المتوفي سنة 333هـ، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية في مُحاجة خصومها من (**المعتزلة والجهمية**) وغيرهم؛ لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية .



ولنضـرب لك مثلاً مقربًا لمجرد القوة ومجرد الإرادة :

فالقوة هي قوة التيار الكهربائي مثلاً، وبها تتحرك العربات إلى جميع الجهات، فاختيـار الجهـة شرقًا أو غربًا لسيْر العربة يستمد القوة من التيار نفسـه، فالتيـار واحـد وإن اختلـف الاتجـاه بـين الشـرق والغرب أو الشمال والجنوب ؛ لأن القوة الكهربائية لا هي شرقية ولا غربية ، فـإذا أخطـأ قائد العربة في توجيهها وقيادتها فقتل بها أحد السائرين فلا تقع المسئولية على التيار ؛ لأنه برئ ممن أساء استخدامه ، ومن هنا فإن سُوء الاستخدام لقـوة (الله) تعـالى جريمـة ، وكـذلك فـإن حُسْـن استخدام قوة (الله) ﷻ حسنة .

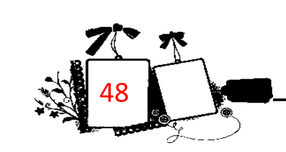
وهكذا تقوم قواعد العقل والتَّحرِّي واستخدام وسائل الرحمة وتنظيم السلوك العـام ،الـذي تتمثل آدابه الأمم وأخلاقها وقوانينها ومجمل أعرافها .

ونصوص (**القرآن**) صريحة في نفي الجبر عن الإنسان، فـالمجبور لا يقـول لـه (الله) تعـالى: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [**التوبة**: 105] .

ولا يمكن أن يقول –سبحانه– لإنسان مجبـور في كتابـه العزيـز: ﴿**مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النسـاء: 123]، وقولـه تعـالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [**الأنعام**: 54].

إلى غير ذلك مما لا تقل آياته عن ثمانمائة وستين آية في (**القـرآن**) الكـريم، تـدل دلالـة قطعيـة الثُّبُوت على أن الإنسان يتمتع بجزء اختياريّ على قـدر علمـه، يكـون بـه لائقًـا لوقـوع التكليـف شرعا، والاستنارة بالنظر فيها أنزل (رب) السموات والأرض من كتاب .





ولو كان الإنسان مجبورًا ما كان جديرًا بهذه الملايين من الآيات والعِبَر من المُبْتَدا والخبر ومن مضى ومن عبر .

كل ذلك يجري آيات بيّنات تليق بكمال الإنسان حامل أمانة العقل كما أكد سبحانه : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ** ﴾ [طه: 54] ، و كما جاء في سورة (البقرة) : ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: 164].

أهذا كله يُقال لكائن مُكبَّل بالأغلال ، كما يزعم أجناد الضلال بقولهم المفضوح :

(ما حيلةُ العبدِ والأقدارُ جاريةٌ ... عليه في كلِّ حالٍ أيها الرَّائي

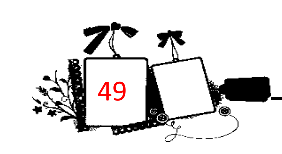
ألقاهُ في اليَمِّ مكتُوفًا وقالَ لَهُ ... إيَّاك إيَّاك أن تبتلَّ بالمَاءِ!!)



فتعالَوْا يا عُصْبَة (**الشيطان**) أَرْشِدُونا إلى مكتُوف واحد تلقَّى تكليفًا، ولو كنتم مكتوفين- كما زعمتم- ما رأينا شيئًا مما كتبتم .

ثم تعالوا يا من تَنَزَّهَ (**الشيطان**) عن جريمتكم وأقسم بعزة (الله)-سبحانه وتعالي- (**ليُضِلَّنكم ويُغْوِيَّنكم**) ، ألا تَرَوْن أنكم بقولكم : (**ألقاه في اليَمِّ مكتوفًا وحّذَّره من البَلَل**) يكون بالغ الظلم شديد القسوة والجبرُوت لا تعرف الرحمة إليه سبيلاً؟!.

وكل هذه الجرائم والاتهامات توجهونها إلى (الله)- ﷻ - في جرأة واستخفاف وجهل مكابر!!.



وقد زعمتُمْ أن علماء الإسلام أجابوكم -ردًا على شِعْرِكُم-قائلين:

(إنْ حَفَّهُ اللُّطْفُ لم يمسَسْـهُ مـن بَلَـلِ ولم يُبَـــالِ بتكتيـــفٍ وإلقـــاءِ

وإن يَكُـــنْ قَـــدَرُ (المـــولَى) بغَرْقَتِـــهِ فهو الغريقُ ولـو مُلْقَـى بصَـحْرَاءِ!!)

فإن الشُّعاع الباهر من نور (**القرآن**) الظاهر كشف نفي هذه الإجابة الباهتة؛ حيث إن معنى القول :(**إنْ حَفَّهُ اللُّطْفُ**) يدل على أن اللُّطْف نفسه غير مملوك للملطوف به ، صادر عن غيره ؛ فهو أسير ولا ذنب له إذا لم يَحُفَّه اللُّطْف، وما ذنبه هو إذا تخلَّف عنه اللطف ؟!.

وقولكم بعد ذلك : (**وَإِنْ يكُنْ قَدَرُ (المَوْلَى) بغرقته**) عودة خبيثة إلى نظرية الجَبْر ؛ لأنها تدلّ على أن (الله) تعالى قدَّر غرقته رغم أنفه وهو ماينفي اختياره. ومتى كان الأمر كذلك فهو- مكرهًا لا مُختارًا- سيكون غريقًا ولو كان ملقى بين الصحراوات والسباسب ، ولكننا نقول لكم قولاً هو بمثابة الصَّفْع على الأَقْفِية الغليظة :

(إذا كان الإنسان مجبورًا كما زعمتم ، فما الذي يمنعني من أن أحمل نعليَّ لتتورَّد بها خدودكم التي لا تتورد بالخجل؟!.. فإذا سألتم عقوبة على ذلك أو طلبتم مالاً سقطت حُجَّتكم لقيام الجبر عليَّ وتجرُّدي تمامًا من الإرادة التي تقوم عليها المسئولية) .

وقد قلنا لأمثالكم:

إنه لا مسئولية على مُكْرَه ولا ثواب ولا عقاب على مجبُور ولا عقد ولا بيع ولا شراء يكون صحيحًا متى قام الجبر، ففي أي قطيع أنتم تعيشون ؟!!..

هذه حُجَّة سريعة دفعنا بها الغيوم السوداء في مسألة أشرنا إليها في كتاب مستقل عنوانه : «**ميزان الاعتبار بين الجبر والاختيار**» أوردنا هنا خُلاصته وحاصله في مسألة : (**هل الإنسان مُسَيَّر أم مُخَيَّر ؟**).



إنه (**مُسَيَّر في أعماله بالقوة مُخَيَّر بالعقل**) ، فإذا أحسن استخدام القوة فله، وإن أساء فعليه :﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [**فصلت**: 46] ، وقد أورد سبحانه وتعالى قبل هذا التقرير مباشرةً قوله جلَّ وعلا : ﴿ **مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [**فصلت**: 46].

ولقد قال (**اليهود**) من قبلكم –أيها المكابرون– بالشعر:

(أَيَـا عُلَـمَاءَ الـدِّينِ ذِمِّـيُ دِيـنِكُمْ	تَحَــيَّرَ دُلُّــوهُ بِأَوْضَــحِ حُجَّــةِ
إِذَا مَا قَضَى (رَبِّي) بِكُفْرِي بِـزَ عْمِهِـمْ	وَلَمْ يَرضَـهُ منِّـي فَـمَا وَجْـهُ حِيلَتِـي
قَضَـانِي يَهُودِيًّـا وَقَـالَ ارْضَ بِالْقَضَـا	فَهَـا أَنَـا رَاضٍ بِالَّـذِي فِيـهِ شِـقْوَتِي)

وجوابنا على سفسطة ذلك اليهودي المُحَيَّر، أن إرادة (الله) تعالى ما خصَّصته للشقاء لأنه يهودي، بل لأنه مُشْرِك وما جعل له الشقاء بالشرك ظلمًا ولا عدوانًا، ولكنه أحاط علمه به قبل تكوينه، ومن بين ما علم أن هذا العبد يختار الشِّرك، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ** ﴾ [**فصلت**: 17] ،وقال كذلك وقوله الحق : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ [الشمس: 7-10]، وقال جل قدره وعزت مشيئته : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: 3].

فمعنى قوله: (**قضاني يهوديًّا وقال ارْضَ بالقضا**) أنه أجبره على الجنسية اليهودية ، وليس على الجنس يدور البحث في العقيدة ، فسواءً كان يهوديًّا أو نصرانيًّا فلا شيء في النصرانية ولا في اليهودية بذاتيهما ، بل إن العِبْرة بالعقيدة من شِرْك أو توحيد ، فهو – ﷻ – (المؤمن) : ﴿ **وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ** ﴾ [**الزمر**: 7] ، فلا يقضي به عليهم إلا بناءً على علمه الأزليّ السابق بعزمهم واختياراتهم ، وما ستنتهي إليه مصائرهم .



وكونه يكونُ مُتَّهِمًا (لله) تعالى بأنه قضاه يهوديًا ، ويفهم أن كونه يهوديًا معناه كونه كافرًا هو جهل قاطع ؛ فإن (**اليهودية**)– بذاتها– ليست سوى (**الإيمان بالتَّوراة**)، وهي المُشْتَقَّة –من حيث اللفظ– من الفعل(هاد) أي رَجِع وأناب ؛ لقوله ﷻ على لسان (**موسى**) ﵇ : ﴿**إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ**﴾ [**الأعراف**: 156] ، أي رجعنا إليك وأَنَبْنا.

ومن ثبت جهله باللغة ، بَطُل اختياره خَصْمًا معقولاً جديرًا بكرامة المناقشة..

أما ما يوهمه قوله من إيجاد إشكال ، فإن الإنسان إذا رضي بالقضاء فإن معنى هذا هوالرضا بحكم (الله) تعالى ؛ لأن القضاء في اللغة هو الحُكْم ؛لقوله تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ**﴾ [**الإسراء**: 23] أي حَكَم، وقوله سبحانه: ﴿**إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ**﴾ [**القصص**: 44] أي أنزلنا الرسالة، وقوله جلَّ شأنه: ﴿**وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ**﴾ [**الإسراء**: 4] أي حَكَمْنا في شأنهم.

وإن مُطْلَق الحكم لا يكون عدلاً إلا إذا انطبق على تعلُّق علم (الله) تعالى لظروفه ومُلابَساته وكيفيَّته .

فما ظلم سبحانه أحدًا إذا قضى فهو (العدل) ، وما قضى إلا بما علم : ﴿**مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ**﴾ [**النساء**: 147].

وطَبْع (الرحيم) الرحمة وطبع (الرءوف) الرأفة وطبع (الحَنَّان) الحَنَان، فما أَعْتَدَ لهم السعير وهيَّأ (**جهَّنم**) من عنده، بل هي من عند أنفسهم. وما يَلْقَوْنَ فيها من أنواع العذاب ؛ إنما هو الجزاء الوِفَاق لما تعدَّد منهم من ألوان الجرائم والآثام والمُوبِقَات، حينما عاشوا لأحكام (الله) منْكِرين: ﴿ **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ [العنكبوت: 54].



ألا ترى هذا التَّقابُلَ ملموحًا في مِثْل قوله ﷻ عنهم في سورة (الحج): ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: 19 : 22] ، تِلْقاء ما كانوا في الحياة الدنيا تقطَّع لهم أفخر الثياب، ويُصَبّ من فوق رؤوسهم أطيب العطور للفِسْق والفُجُور، ويملأون أجوافهم بما تَسْلِب أيديهم من حقوق الآخرين وأموال اليتامى والمساكين.

وهكذا يَصْدُق قوله ﷻ في (**الحديث القدسي**) الذي نصه :

« **يا عِبَادي.. إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نفسي وجعلتُهُ بينكم محرمًا ، فلا تَظَالَمُوا .**

يا عبادي .. إنكم لن تَمْلِكُوا ضُرِّي فتضروني ، ولن تملكوا نفعي فتنفعوني .

يا عبادي .. إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفِرْ لكم .

يا عبادي .. كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديتُهُ ، فاستهدوني أَهْدِكُمْ .

يا عبادي .. كلكم عارٍ إلا من كَسَوْتُهُ ، فاستكسوني أكْسُكُمْ .

يا عبادي .. كلكم جائع إلا من أطعمتُهُ ، فاستطعموني أُطْعِمْكُمْ .

يا عبادي .. لو أن أوَّلكم وآخركم وجِنَّكُم وإنسكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك من مُلْكِي شيئًا .

يا عبادي .. لو أن أولكم وآخركم وجِنَّكُم وإنسكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئًا .



يا عبادي .. لو أن أولكم وآخركم وجِنَّكُم وإنسكم قاموا على صعيد واحد فسألوني ، فأعطيتُ كُلَّ سائلٍ مَسْألَته ، ما نقص ذلك من مُلْكِي إلا ما ينقص المِخْيَطُ إذا وُضِعَ في البحر .

يا عبادي .. إنما هي أعمالكم أُحْصِيها لكم وأُوفِّيكُمْ إيَّاها ، فمنْ وجد خيرًا فليحمد (الله) ، ومن وجد شرًا فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه » [18].

وقد صدق – تعالى– عندما قال: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [البقرة: 57]، وحين قال سبحانه: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل: 118]، كما قال ﷻ: ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: 117]، وفي قوله جل شأنه: ﴿**مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت: 46] ، وعندنا في الرد على هؤلاء أكثر من ألف وتسعمائة آية من آيات (**القرآن**) الكريم بتفاصيلها.

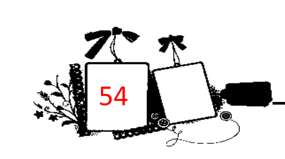
فحاصل الإرادة إذًا أن للعبد إرادة جُزْئِيَّة مَجَازية، بحَسْب ما خُلِقَ له وتيَّسر لحواسّه وإدراكه .

وهذه الإرادة إنما هي من تجليات صفة الإرادة القديمة الإلهية، التي نحن بسبيلها والتي خَصَّصت ما أحاط به العلم الأزلي ، وأبرزت ما تعلَّقت به القُدْرة.

ومن هنا تلمع بين أيدينا الصفة الرئيسية صفة الكرسيّ الأعلى، ألا وهي صفة (**العلم**).



(18) رواه (مسلم) في (صحيحه) عن (أبي ذر الغفاري)رضي الله عنه ، عن رسول (الله) ﷺ فيما يرويه عن (ربه) تعالى .



المبحث التاسع العِلْم

وهي صفة قديمة قائمة بذات (العليم) سبحانه وتعالى، ومن حِكَم الترتيب أن تقع صفة العلم تاسع الصفات، ووظيفتها انكشاف المعلومات أزليًا وأبديًّا كليًا وجزئيًا (لرب العرش) ﷻ.

وعلى صفة العلم استقرار الحقائق الوجودية كلها؛ ومن أجل ذلك سمَّيْناها(**الكرسي الأعلى**) ، الذي (**وسع كل شيء علمًا**) ؛مُؤْتنِسِين بقول (الله) ﷻ: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ**﴾ [البقرة: 255] ، ويشرحها قوله تعالى: ﴿**وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا**﴾ [الأنعام: 80].

إذًا فالكرسيّ -الذي هو مُسْتَقَر الحقائق- هو صفة العلم ، ومن مزايا صفة العلم الفصل في شأن المعلوم ابتداءً وانتهاءً ، وما بين البدء والنهاية.

وصفة العلم لا تُجْبِرعلى حصول المعلوم ،كما يزعم (**الجبريُّون**) ومَنْ دار في فلكهم ولفَّ ملفهم من زنادقة المتشدِّقين، الذين لا يكادون يفقهون قولاً. فتعلُّق علم (الله) تعالى بحصول معلوم معين ،وتخصيص إرادته لأسباب الحصول وكيفية الوقوع والحدوث ،لا يمكن أن يكون سببًا مُكْرِهًا في حصول ذلك المعلوم.

ولْنَضْرِبْ لك مثلاً لرجل زارك في بيتك ، فقدم إليه أحد غِلْمانك الصغار من خَدَمك قدحًا من الشراب ، وتفرَّس الزائر في وجه الغُلام ، فقال: لعلَّ هذا الغلام يكون في المستقبل من كبار اللصوص وقُطَّاع الطُّرق ، ثم دارت عجلة الزمن وانتهى مطاف هذا الغلام إلى تزعُّم عصابة من قطاع الطرق .

فهل عِلِم ذلك الزائر مستقبل الغلام ممَّا قرأه على قَسَمَات وجهه وأدرك بالفِرَاسة ؟! وهل هذا هو الذي جعل من الغلام لصًا؟!..

وإننا نرى يا أخي أن (الله) تعالى له صفة الكمال في العلم ، كما له صفة الكمال في جميع صفاته تعالى .

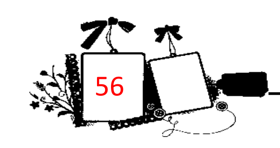
وكامل العلم هو (الواسع- العليم) ، الذي لا ينتظر وقوع الحوادث حتى يعلمها، فإن من كمال الإحاطة العلم بالشيء ابتداءً وانتهاءً وما بينهما .

فلا ظُلْم من (العليم) ﷻ - إذا تعلَّق علمه بأن يكون إنسان شقيًا وأن يكون الآخر سعيدًا - في إحاطة علمه بشقاء الشقيّ، إلا أنه سيسلُك مَسْلَك الأشقياء مختارًا غير مُكْرَه ، وما تعلَّق علمه بسعادة السعيد إلا لأنه علم أنه سيسلك مسلك الأتقياء ، وهكذا .

وللعلم الإلهيّ تعلُّقان : أولهما يسمى (**الصَّلاَحِيّ القديم**)، والثاني يسمى (**التَّنْجِيزيّ الحادث**) .فسبق العلم بأن (**زيدًا**) يُولَد من فلان وفلانة في الزمان والمكان المُعَيَّنيْن،لا يتم إلا إذا حدث تعلُّقه التنجيزي الحادث ، وبذلك يصح قوله تعالى : ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ**﴾ [**العنكبوت**: 3].

فالعلم المتحقِّق عن حقائق الأشياء أزلاً ، يتم تعلقه الثاني التنجيزي على وفْق ما تعلَّق أزلاً نحو : ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ**﴾ [محمد: 31] ، أي حتى يتم العلم التنجيزيّ في موعده وصفته ومُقَدَّراته ونتائجه ، على النحو السابق به التعلُّق الأزليّ ، ولا جَبْر في كل منهما .

ولنَضْرِبْ لك مثلاً : فبين يَدَيْنا- و(لله) المثل الأعلى- مهندس معماريّ يذخر صدره بصور متعددة من العمائر والمباني والفيلات بصور وألوان مختلفة ، وكل ذلك بالعلم المُجَرَّد فإذا آن أوان تنفيذ ذلك العِلْم وإبرازه من النفس إلى حيز الظُّهور والتكوين بالعقل لا بالعلم وحده، أخذ المهندس طريقه إلى الأسباب والجزئيات اللازمة لإقامة العمائر أو المباني المرسومة على الورق الشفاف ، ويكون هذا المرسوم تنزُّلاً ابتدائيًا ونُمُوذجًا للمُرَاد المُنْتَظَر تكوينه ، فيترتب على ذلك انتقال علم المهندس إلى التعلُّق التنجيزيّ ؛ فتكون العمارة بصورتها ونشأتها وجميع قطاعاتها وألوانها ، كما تعَلَّق به علم المهندس فكأنه يقول للمعلوم : (**كن- فعلاً- كائنًا .. فيكون**) .



وعلى هذا النحو يمكن أن نفهم قوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، وقوله جل شأنه : ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68]، وقوله عَلَتْ قدرته وتنزهت ذاته : ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: 50].

وتقديره إنما أمرنا لشيء تعلَّق به علم (العليم) أزلاً، فإذا ما أراده كائنًا موجودًا، وكانت لحظته المقدَّرة سلفًا أن يقول له- أي ذلك المتعلَّق الأزليّ- ﴿كُن﴾ تنجيزًا؛ فيكون: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾، لا يتأخر طَرْفة عين.

وإلا فما معنى أن نقول له- أي للشيء الذي لم يوجد بعد- كُنْ؟!.. فكيف يتوجَّه القول لشيء ليس له وجود؟!.. وهو- بَعْدُ- ما زال عدمًا؟!..

إذًا فالذي توجَّه إليه القول بالأمر: ﴿كُن﴾ إنما هو الحقيقة الأزليَّة الثابتة لذلك الشيء المعلُوم (للعليم) - ﷻ- أزلاً.

وقد ورد عن العلاَّمة (**نجم الدين النَّسَفِيّ**) المتَوفى عام 537هـ، في كتابه (**مَتْنُ العَقَائِد**) [19]، ومعه أهل الحق:

(**حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقِّق**)، وذلك على خلاف ما ذهب إليه (**السُّوفُسْطَائيون**).وإنما تجرِي القدرة فيما خصَّصته الإرادة لإبراز ما تعلق به علم (العليم) أزلاً.

وسريان الإرادة لإبراز ما تعلَّق به العلم يدل على أن صفة رئيسية تنتظرنا، هي مادة ذلك السريان الوجوديّ، ألا وهي صفة (**الحياة**).



(19) هو (نجم الدين عمر بن محمد النسفي)، من علماء العقيدة، وقد ولد سنة 46 هـ، في (نَسَفْ) قرب (سمَرْقند)، سافر ﷺ وارتحل في طلب العلم واستفاد من شيوخ كثيرين جمع أسماءهم في كتاب فبلغوا خمسمائة وخمسة وخمسين شيخًا، له مؤلَّفات كثيرة نافعة، أشهرها في العقيدة (متن العقائد) وهو متن متين، اعتَنى به جم من الفُضلاء.

المبحث العاشر الحياة

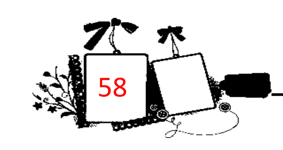
وهي صفة قديمة قائمة بذات (الحيّ) ﷻ ، من شأنها الإمداد بالقوة وسريانها دليل الحركة ؛ ومن هنا نقول بأن سريان الحياة في كل حي هو بُرْهاننا القاطع وأَجْلَى دليل.

فالحياة الطلقة التي لا يقيدها قيد بوجه من الوجوه ، هي سِرٌّ سارٍ في كل متحرك ونامٍ ؛ فهي بالحيوان والنبات والجماد مؤثرة الحركة ، وبها يكون سريان الحرارة في النبات والحيوان وجميع المادة الحية.

فأما في الحيوان.. فباستمرارها يتحرك ويزيد ويتجدَّد ، وبانقطاعها يسكُن وينقُص ويتلاشَى. وقد بيَّن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ [يونس: 24].

وجميل من الذكر الحكيم أن يضع قيدًا بالنعت الوصفي في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، مما يدل على أن حياة أخرى هي الحياة العليا، ينتهي إليها مصير الأحياء في هذه الدنيا، وإن الحياة العليا هي القرار والمُستقَر لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64]، وإنما قال : ﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾ بالألف الممدودة والنون لإفادة المبالغة والامتداد، والمقصود بها الحياة الكبرى بغير انقطاع وليس الحيوان الأعجم، فقد اعتاد العرب أن يجعلوا الألف والنون لشدة المبالغة،كالفرق اللُّغوي بين جائع وجوعان وظامئ وظمآن .





وهكذا يتبين أن الحياة الدنيا- أي السفلى- ليست سوى مجاز، ولا يكون هذا المجاز حقيقة إلا إذا انتفى زواله ، وانتفاء زوال الحياة معناه الخلود ، والخلود للروح حق في سرمدية الحياة ،أي عدم نهايتها.

والمؤمنون مدعوون لسلوك الطريق إلى هذه الحياة الخالدة ، التي هم بغيرها بمثابة الموتى ، بنصّ قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنفال: 24].

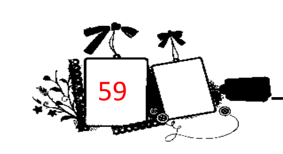
فقوله تعالى : ﴿**لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ -وأنتم الأحياء الُمخاطَبون في الدنيا- يعني حياة عليا في (**نعيم مقيم**) ، يكفي في تصوير العقل من إدراكه قوله ﷻ : ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [**السجدة**: 17].

مما يدل دلالة قطعية على أن كل نفس من الأنفس -العُلْوية النُّورانية والسفلية الظَّلْمانية- لن يتأتَّى لها العلم بما أعدَّ ﷻ للمؤمنين من نعيم، تَقَرُّ به أعين قلوبهم ، وتنطلق من عُقَال المادة المعهودة لهم، إلى ما أُنْشِئ من نور لا من طين وماء، وأنّى للمُقيَّدين بقيود المادة الطينية إدراك ما خُلِق من النور، وهيهات لتجلِّيات السر المبين أن تقع عليها أعين المحاجر وحدقات النواظر.

ولو كان الأمر في نطاق الإمكان، لما قال (الله) ﷻ لنبيّه (**موسى**)ﷺ عندما سأله : ﴿**أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ**﴾ ﴿**قَالَ لَن تَرَىٰنِي**﴾ [**الأعراف**: 143] ؛لأنه سبحانه وتعالى ليس منظورًا إليه؛ لأن المنظور إليه لابد أن يكون جسمًا ووجهًا.

وفي الأحكام العقلية أن (**كل كم قابل للكيف وهو في الأبعاد الثلاثة طولاً وعرضًا وعُمْقًا**).

ولما كان (الله) تعالى مُنَزَّهًا عن الجسمية وكان- كما في الصفة الرابعة- مخالفًا للحوادث، استحال وقوع نظر (**موسى**)ﷺ عليه أو وصوله إليه، وإنما يظهر في الكائنات سر الحياة ، والإضافة هنا تسمى إضافة بيانية بمعنى أن قولك : (**سر الحياة**) يعني أن الحياة سر غير مُدْرَك بذاته.



ولما كانت صفة الحياة ليست عينًا للموصوف ولا غيرًا له ، كان ما يظهر منها في الكائنات إنما هو بالتجلِّي لا بذات السر.

كما أن التجلي لم يكن لنبي (الله) (**موسى**)ﷺ بل كان (**للجبل**)، فلما حدث : ﴿**جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾ [**الأعراف**: 143] من هول المشهد.

وعلى هذا فإن سر الحياة إلهيّ ، والحياة ذاتها أخفى من سرِّها ، كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى**﴾ [**طه**: 7] فما هذا الذي هو أخفى من السر؟!..

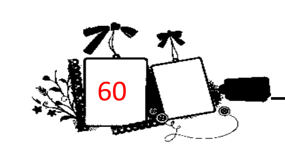
إنه ليس سوى الذات ، وقد سلَّمنا بأن الذات العلية ليست محلاً ولا موضوعًا لبحث ما ؛ لأن الباحث نفسه يجب أن يكون حيًا ، فكيف يُقال : بالحياة يقوم البحث عن الحياة ؟!.. ومعنى هذا القول أن الحياة تبحث عن الحياة ، وهذا خلط .

وبناءً عليه لا يمكن الحصول فعلاً على إدراك (**سِرّ الحياة**).

ولنضرب لك عدة أمثلة على سريان سر الحياة :-

فخذ إليك (**سمسمة**) ثم زنها بميزان دقيق ثم سجِّل مقدار وزنها ثم ادفعها إلى باطن الأرض ، فإنك سوف تجدها تحوي طاقة لا نهائية من القُوى ، حيث إنها ستنشئ عودًا لا تقل أغصانه عن ثلاثة ، ثم في كل غصن مالا يقل عن سبعة أجربة تحمل مئات السماسم ، وهكذا نجمع من الشجرة عددًا هائلاً من السماسم كلما أُلقيت في رحم الأرض تضاعف وأخذ طريقه في ترتيب تصاعُديّ لا ينتهي .

ثم خذ حبة أخرى وقدِّر وزنها وافحصها تحت (**الميكروسكوب**) وافحص كلاً منها بدقة، ثم انزعه عنها ثم اسحقها ثم أعدها في غلافها بكَمِّيتها ووضعها ثم ادفعها إلى الأرض، فإنها لا تنبُت ولا تزيد..



فقل لي- لَعمْرُ (الله)- ما الذي نقص منها وهذا وزنها كما هو بين يديك ؟.

إنك مُرْغَم أن تقول لي إنها فقدت الحياة ، فمن ذا الذي يستطيع- مهما أوتى من قدرة وقوة علم- أن يدرك سر حياة هذه الحبة المتناهية الصغر ، فضلاً عن سر حياة الإنسان الذي صُنِعت لأجله هذه السَّماسم؟!.

إن الأمر جليل عظيم ، وكلما نظرت إلى نواة -سواء كانت خلية نباتية أو حيوانية أو كهربيَّة- أدركت أن لها طاقة تتطور بها وبغير انقطاع .

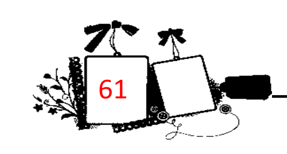
وهذا دليل على أنها تتمتع بفيض متدفق (**يُرى أثره ولا يُعلم سره**) .

وهذا التدفُّق الذي نرى أثره بأعيننا ونَشُمُّه بأنوفنا ونتذوقه بألسنتنا ونلمسه بأناملنا ونميزه بعقولنا ، هذا التدفُّق المستمر اللانهائيّ إنما هو تدفُّق فيض الحياة من صفة (الحيّ) ، و(الحيّ) هوذاته صاحب صفة الحياة ﷻ، القائمة به كل شئون الحياة ؛ ولذلك قال أحد الشعراء:

(لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلاَ تَخْفَى عَلَى أَحَد   إلاَ عَلَى أكْمَهٍ لَمْ يَشْهَدِ الْقَمَرَا
لَكِنْ بَطِنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُسْتَتِرًا   وَكَيْفَ يُدْرَكُ مَنْ بِالْقُوَّةِ اسْتَتَرَا)

وتتجلَّى هنا عَلاقة الحياة بالقيام ،كما تبين من مطلع آية (**الكرسي**) ،فإن (الحيّ القيُّوم) أوضح أثرًا من أن يمكن تجاهله أو طلب الدليل عليه .

فإن طالب الدليل-نفسه- حي بتجلِّي (**صفة الحياة**) ، قائم بتأثير الاسم (القيُّوم) وسريان قوته فيه وهو لا ينكر قوته، ثم هو- في نفس الوقت- لا ينكر أن هذه القوة ليست مِلْكًا له ؛ لأنه يمكن أن يُسْلَبها حَتْف أنفه ، وليس ذلك بالموت وحده بل بالنوم أيضًا ، ومن ثَمَّ يتعين إسناد الحياة إلى (الحي) ﷻ، وإسناد القوة والقيام إلى (القيُّوم) سبحانه ؛لأنه المالك الحقيقي للحياة ، يهبها متى يشاء ويَنْزِعها متى يشاء ، وظاهرتها (**الرُّوح**) كما يقول تعالى : ﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الزمر: 42].



وكما يتبين المرء الأثر الواضح في سريان الحياة في النبات والحيوان والجماد، يرى ذلك الأثر في الأرض نفسها، كما ورد في (يس) : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: 33 – 35].

وتستطرد الآيات في عرض الآثار بقوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: 36].

والقِسْم الأخير هو (**سر الحياة أو الروح**)، فهذا مبدأ الفيض الأعلى من صفة الحياة عندما يتجلَّى بها (الحيّ) ؛ فَتَنْتَفِش الأنفس وتزدهر الأرض وتربو، فتصبح مُخضرة يانعة .

كما يفيض بها على النفوس الفلكية الكبرى ، التي عناها ﷻ بقوله: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [**النازعات**: 5] وهي قوة كوكبية مولِّدة مُحْكَمة التدبير، وهذا ما يعنيه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [**فصلت**: 12] ،وما يسبق ذلك من قوله ﷻ عن (**الأرض**) : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [**فصلت**: 10] ، إلخ ذلك من (**الآيات**) التي تدور حول إفاضة الحياة.

وإذا لاحظنا العَلاقة الوثيقة بين حياة الإنسان وحياة النبات وحيوان الماء، أدركنا تمامًا أن كمال التكوين الجسديّ متوقف على كمال الإفادة من النباتات والبقول والتوابل الحريفة وغيرها، وما تنتجه الدورة التدبيرية الفلكية عبر الفصول الأربعة ؛ لأن هذا يترتب عليه كمال أداء الوظائف الجسدية وقيام كل عضو وكل غدة لما خُلِقت له ؛ لأننا سلَّمنا أن الإنسان وَحْدة متكاملة مندرجة في الوحدة الكونية الشاملة المرتبطة في تدبير الأسباب على السُّنن الكونية .

وهكذا نَلْمَس وَحْدانية صفة الحياة ، وبذلك يظهر الارتباط بين كمال التكوين الجسديّ وقيام الأعضاء بوظائفها ، وكمال الوظائف المتعلقة بالمخ وعمليات الدماغ والمجموع العصبيّ، وبين قوة العقل المرتبطة بالمجموع العصبيّ مباشَرةً وتمام استقامة الحواس ، وعلى الأخص السمع والشم والذوق.

وهذا يمهد لنا الانطلاق إلى الصفة التالية لصفة الحياة ، ألا وهي صفة (**السَّمع**) .



المبحث الحادي عشر السَّمْع

والسَّمع صفة من صفات (البارئ) سبحانه وتعالى، ولكن سمعه- عزَّ شأنه- مخالف للحوادث، فالحوادث تسمع بالسِّماخ والطبلة الأذنية ،التي أشار إليها الرئيس (**ابن سينا**) في كتابه (**النَّجاة**) [20] .

وهذه الحاسة عند الحيوان لا تسمع إلا الأصوات ، ولكن (الله)- ﷻ - يسمع خطرات النفس ونجوى الخاطر، ويعتبرها تجري مجرَى الصوت .

فقد قال تعالى عن (يونس)ﷺ : ﴿**فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [الأنبياء: 87] وهي ظلمات الليل والبحر وجوف الحوت والمغاضبة، فسمع (الله) نداءه ؛ بدليل قوله ﷻ: ﴿**فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ**﴾ [الأنبياء: 88] .

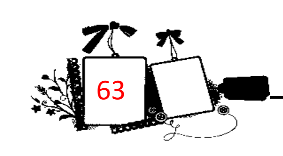
وكان نداؤه-ﷺ-لا صوتيًا صادرًا من أعماق الضمير، حيث لم يكن ليجد متنفسًا لإرسال الصوت وهو في داخل أحشاء الحوت .

وبذلك يتبين عموم صفة السمع وإطلاقها من القارع والمُنْقَرِع، كما يقول (**ابن سينا**) عن السمع الصوتيّ ، وقد تبين من (**القرآن**) تقرير ذلك في قوله تعالى : ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾ [طه: 46]، وفي قوله تعالى في سورة (**المجادلة**) : ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾ [المجادلة: 1] .

وقد ثبت في السُّنة الصحيحة أن من شعائر الصلاة أن القائم من الركوع يقول: سمع (الله) لمن حمده ، ويتعين أن يقول المصلِّي على إثرها : (ربنا) ولك الحمد.

ثم من الناحية العقلية- وهي رياضية بحتة- حيث تقول القاعدة :(**إن فاقد الشئ لا يعطيه**) ؛ فلا يتسنَّى لغير سميع أن يمنح الناس أسماعًا .

(20) وعنوان الكتاب (**النجاة في المنطق والإلهيات**) وهو من أمهات الكتب ، قدم فيه الفقيه العلامة الشيخ الرئيس (**ابن سينا**) ﷺ ترجمة صادقة لخلاصة الفلسفة اليونانية .



وحيث إن إفاضة قوة السمع لها مصدر واحد وهو (السميع) سبحانه وتعالى ، فقد تبين قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: 20].

فما تتناجى به ندوات العلماء وغيرهم ، وما يدور في خطرات الأنفُس يجب أن يحيط بـه سـمع (الله) تعالى، كما أحاط به علمه لقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61] ، وقوله تعالى : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: 181] .

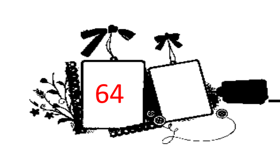
وما أشبه ذلك في (القرآن) بما نسمعه نحن في أنفسنا وبطريـق الـرُّؤى المنامية مـن أصـوات وهي ليست بأصوات، فلو كان الذي يناديك في المنـام بصـوت مسـموع لـك ذا صـوت فِعـلىّ في الموجة الهوائية لسمعه من ينام إلى جوارك .

وهذا يُثبِت ما يَفِيض على نفس الإنسان من التجلِّيات الإلهية ، ليُطَابِق بين ما قرَّرنا من وَحْـدَة الكون ، وكون الإنسان مُنْدَرِجًا في تلك الوَحْدة الكونية ومجلَى لجميع الصفات الإلهية .

و تستَتْبِع صفة السمع صفة (**البصـر**)، بل وترتبط بها ارتباط الاتِّصـال ؛ فـإن (الله) سـبحانه هو: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: 20].

وهذه هي الصفة الثانية عشر له ﷻ .





المبحث الثاني عشر البَصَر

ويبدُو هذا الارتباط بين السمع والبصر واضحًا في (الآية) الأولى من سورة (الإسراء) حيث يقول ﷻ : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1] باعتباره عائدًا على الصلة بالاسم الموصول﴿ٱلَّذِىٓ﴾، والتقدير أن: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾،﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، المُنَزَّه عن كل سوء أو نقص بالتسبيح ﴿سُبْحَٰنَ﴾،(السميع) لنَجْوَى عبده وهمسات خواطره ، (البصير) بكل شيء، (العليم) بكل شيء ، بحيث لا يحل العلم مَحَل البصر، ولا البصر محل العلم ، ولكل صفة مرتبتها واختصاصاتها وأثرها على مجالي قريناتها من بقية الصفات.

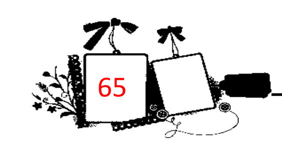
وصِفَة البصر قديمة قائمة بذات (البصير) سبحانه، تحيط بها سَبُحَات الوجه الأعلى، وتحُول بينها وبين مكافحة المُبصَرات حُجُب من النور الأعلى.

وقد أشار إليها الرسول ﷺ بقوله :

«إنَّ (الله) تعالى يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُه ، يُرْفَعُ إليْهِ عملُ الليل قبل عَمَلِ النهار ، وعملُ النَّهار قبل عمل الليل ، وحِجَابُه النور لو كُشِف لأَحْرقَتْ سُبحَاتُ وجهه الأعلى ما انتهى إليه بصَرُهُ من خَلْقِهْ » [21].

ولا يمكن للعقل إدراك الماهية الإبصارية لهذه الصفة ، ولكن الذي أُمر العقل بملاحظته فيها هو هذا الكون، بما يحتوي من ألوان في الثمرات والأزاهير بين الرياض والمراعي ، ومن ثمرات النخيل والأعناب (مُخْتَلِفٌ أُكُلُه) كاختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، مما يَحْكُم حكمًا رياضيًّا بأن خالقه -تنزهت أسماؤه- (بصير) .

(21) وبداية (الحديث الشريف) كما ورد في (صحيح مسلم) بشرح (النووي)، وكما رُوي عن (أبي عبيدة)، عن (أبي موسى) ﷺ، أن الرسول ﷺ قال : «إن (الله) عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه» .. إلخ . الحديث كما أوردنا .



فإن الأعمى لا يُميِّز الألوان ولا يُحَدِّد الصُّور، فإذا قيل لنا : إن الأعمى يمكنه أن يعمل رسامًا أو مُصَوِّرًا فعلى العقل السلام .

ثم إننا قرَّرنا آنفًا أن فاقد الشيء لا يعطيه كما هي القاعدة ،فلو لم يكن (بصيرًا) ما خلق مُبْصِرين، وهذا ينطبق على تجليَات هذه الصفات في الإنسان والحيوان.

فلو لم يكن سبحانه (قادرًا) ما خلق قدرة ولا قادرين، ولو لم يكن (عليمًا) ما خلق علماء ولا مثقفين، وهكذا دُوَالَيْك في مجالي الصفات جميعًا .

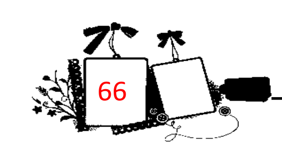
وصفة البصر مخالفة للحوادث أيضًا، فليس معناها توجُّه الحدقة أو الشَّبَكية أو الهُلامية سبحانه و(**تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا**)، ولكن ليس في نطاق العقل إمكان إدراك تعريفيّ عن صفة البصر، بعد كل ما تجلَّى علينا من آثارها.

وإذا كان المقطع الأول من سورة (**الإسراء**) أكد (**اقتران صِفَتَيْ السمع والبصر**) ، فقد رأينا ذلك الاقتران في نَجْم مقابل من سورة (**الكهف**) وهي : ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا** ﴾ [**الكهف**: 26] ؛ فلا أحد أبصر من (الله)ﷻ تنزهت ذاته عن المثيل ، ولا أسمع .

ولا نزعُم أننا نحاول حصر (**الآيات**) التي تناولت ذكر مجالِي السمع والبصر-كلها في جميع الآفاق،ولكننا نُورِد ما يكفي في الدلالة على قيام الصفة في ذاتها بطريق تجلِّياتها، وللإنسان كما تقررسمع مُقَيَّد ، وبما أن (الله) -تعالى- مُنَزَّه عن الحوادث فله سمع مُطْلَق، والمقيد هو ما يتعلَّق بالصوت ورنينه ووقوعه على سِمَاخَيْ الأُذُنَيْن ، أما المطلق فلا يتوقف وصوله على شيء .

فهو ﷻ (**يرى النملة السوداء فوق الصخرة الصَّماء في الليلة الظلماء**) ، بل ويسمع أيضًا دبيبها ،ويسمع همسات النسيم خلال الخمائل وما إلى ذلك من تسبيح الذّرات والأجزاء والجُزَيئات ،مما لا يتطرق إلى تقديره عقلُ عاقل ولا ذكاءُ ذكيّ ولا فِطْنَة فَطِن ولا بحث باحث .





المبحث الثالث عشر معنى الاقتران بين السمع والبصر

ومن (**باب الإشارة**) فإن المسموع متى كان كائنًا ،كان مُبْصَـرًا (بصيغة اسـم المفعـول)،ومتى كان كذلك،كان مرئيًّا بصفة البصـرالإلهيّ . وحيث لا مسـموع إلا الصـوت،فهولا بـد أن يكـون ناشئًا من كائن، يُعَدُّ مصدرًا لذلك الصوت وإن رقّ ، ومهما تكن نسبته .

والكمال الإلهي يقتضي أن يكون المسموع مشهودًا شُهُودًا مُطلَقًا ، يبدو في قوله تعالى في (الآيات) الآتية : ﴿ **سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ** ﴾ [**الرعد**: 10-11]، أي أن (**المُعَقِّبات**) هي من أمر (الله) ﷻ ، أي أن عالم (**الملائكة**) يحفظونه ، وليس المعنى - كما يبدو لغير العلماء- أنهم يحفظونه من أمر (الله)،أي يحُولون بينه وبين وقوع أمر(الله) ﷻ فيه، فهذا الرأي البادر كُفْرصراح وجهل مطلق .

وفي قولـه تعـالى: ﴿**وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾ [**الملك**: 13-14]، يتجلَّى اشتراك صفة العلم لعقد الرابطة بين صـفتي السـمع والبصرـ؛ لأن المسموع المشهود معلوم علمًا أزليًّا حُضُوريًّا .

وهذا هو معنى اعتبار صفتي السمع والبصـر في نطاق الصفة العلمية، التـي هـي (**الكـرسي**) الذي عليه ترتكز وبه تستقر جميع الكائنات؛ لقوله تعالى : ﴿**وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ**﴾ [**القمـر**: 3]. فهي كُلِّية واضحة تشمل جميع الأشياء ، فلا تغيب عنها ذرة ولا يعزُب عنها شيءكائنا ما كان .

ومن اللطائف أن (الله) ﷻ بصفة السمع ، يسمع خطرات النفوس سواءً كان القول جهـرًا أو سرًّا ، كما في أمره (**موسى**) ﵇ عندما أرسله الي(**فرعون**) عدوه : ﴿**فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا**﴾ [**طه**: 44]

، مُقْرِنًا هذا بقوله سبحانه : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طـه: 46]، وبقولـه تعـالى : ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: 18] .

ولا حصر لمتعلَّقات هذا البصر ، فإنه ﷻ يسمع تسبيح الكائنات كُلّيّة وجُزْئيّة و: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10].

وتقترن صفة السمع بصفة العلم مُباشرةً ؛ لقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 224] .

وهكذا يدفعنا البحث إلى الصفة المتعلقة بكمال السمع والبصر وهي الصفة الخاصـة بالبيـان ، ألا وهي صفة (**الكلام**) .



المبحث الرابع عشر الكلام

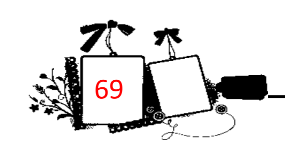
وهي -كذلك- صفة قديمة قائمة بذات (**المتكلم**) ﷻ ، وهو في نور الصفة الرابعة - كونه تعالى مخالفًا للحوادث- غير مشابه لهم، تَنَزَّه كلامه عن الحرفية والصوت وجَرْس اللفظ ؛ حيث إنها لا تكون إلا عن جسد وعن فم مؤلَّف من قصبة هوائية تدفع إليه ولسان وشفتين وثنايا لتقطيع الحروف. وهذا لا يكون إلا مماثلاً للحوادث تمامًا ، في الجسدية والعضوية كالرئتين والبلعوم وعملية التنفُّس ، وكل هذا على (الله) ﷻ مُحَال .

فأي شيء نفهمه من صفة (**الكلام الإلهيّ**) إذًا ؟ .

الذي نفهمه من صفة الكلام الإلهيّ يجب أن يكون مستنيرًا بمثل قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** ﴾ [لقمان: 27]، وقوله تعالى عن (عيسى) عليه السلام : ﴿**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ**﴾ [النساء: 171]، وقوله سبحانه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ** ﴾ [إبراهيم: 24] إلخ الآيات .

ففي نور هذه (**الآيات**) نستطيع أن نستجلي كلمات (الله) ﷻ العامة في جميع مخلوقاته ومَقْدُوراته ، التي تُبْرِزُها قدرته وتخصِّصها إرادته على وَفْق ما أحاط به علمه ونَفَذَت به مشيئته .

وحيث إنه لا نهاية لمقدوراته وإنه : ﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [هود: 107] ، بصفة سرمدية أبدية ، فإن أشجار الأرض ومياه البحار المحصورة المقيدة بالعدد السَّبعيّ ، لا تستطيع أن تحيط بمقدورات (الله) ﷻ ، (الخالق) المُطلَق الجامع للمفهوم الكليّ من الأزلية والأبدية، اللتين هما موضوع القِدَم والبقاء .



وحاصل هذا أن كلمات (الله) –تعالى– المُوحَى بها بواسطة (أمين الوحي) ﵇ تنزيلاً بالروح ، إنما هي على الكلمات القديمة الأزلية القائمة بذات المتكلم –جلَّ وعلا– المُنَزَّه عن الحرفية ، فيكون (القرآن) كلام الوحي والكلام المُنزَّل بالحدود التشريعية والأنباء التاريخية وعمليات الرسالات، والإشارات إلى الجنة والنار والثواب والعقاب والبعث والحشر والأرواح والأجساد .

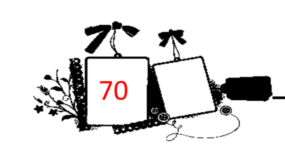
أماالإشارة إلى الكلمات الربَّانية التكوينية في الحيوان والنبات والماء والهواء والنار والتراب والجماد ، فهي تلك الكلمات التكوينية ، ويكون الحاصل من هذا انقسام (الكلام الإلهي) على قسمين :

أولاً: (كلام الوحي) :

وهو كما يقول ﷺ : «**نَفَثَ روحُ القُدُسِ في روْعي** » ، وهذا هو معنى التلقِّي الملكوتي لتلك المعاني العالية : ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ [الشعراء: 195] ، ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ** ﴾ [إبراهيم: 4] على ما اصطلحوا عليه من الألفاظ ، تلك المعاني العُليا التي هي (كلام الوحي الإلهيّ المُجَرَّد) الذي لا يتقيد بصوت ولا حرف ؛ ولهذا يلزم أن ينزل به (أمين الوحي) على قلب (محمد) ﷺ ، لا على أذنيه بدليل قوله تعالى : ﴿ **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ** ﴾ [الشعراء: 193–194].

أما القسم الثاني من الكلام الإلهيّ فهو (**كلمات التكوين**) :

التي هي المخلوقات التي لا تنتهي إلى حد ولا تخضع لحصر؛ حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ **وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ** ﴾ [النحل: 8]، وهي (آية) تستخدم الفعل بصيغةالمضارعة؛حيث إن خلق (الله) لا ينتهي : ﴿ **وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٌ** ﴾ ... إلخ [لقمان: 27]، فلا هو مُقَيَّد محدود ولا معدود، وكذلك كلمات (الله) – تعالى– لا تُحَدُّ حدًّا ولا تنحصر عَدًّا ولا تَنْفَد أبدًا.



وهذا يؤيد ما في المعنى الذي قررنا من أن كلمات (الله) ﷻ هي مقدوراته ، وأن القول إن الكلام الإلهيّ هو المعاني القديمة والحادثة ، القائمة بنفس المتكلم من حيث قيام المعاني بالنفس فيه تشبيه واضح بالحوادث ، وهو -تعالى- مخالف للحوادث كما بيَّنا في الصفة الرابعة الأزلية .

ذلك لأن الكلام عند الإنسان هو المعاني القائمة بالنفس ، فإذا خرجت عبر اللسان ملفوظة عبر الأثير والصوت سُمِّيت عبارة ، وفي هذا يقول الشاعر:

(إِنَّ الكَلامَ لَفِي الفُؤَادِ وإِنَّما جُعِلَ اللِّسانُ على الفُؤَادِ دَلِيلا)

والقول بمثل هذا على(البارئ) ﷻ قول غير دقيق .

وإذا نحن تدبرنا قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: 164]، رأينا أن هذا المصدر يعطي معنى التأثير الذاتي ، ولا تَرادُف بين المصدرين ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ و (كلامًا) ؛ إذ إن الثاني مشابه للحوادث في الصفات المُقَيَّدة بالحرف والصوت والحنجرة واللسان والثنايا والشَّفَتَين تنزه (الله) ﷻ عن ذلك، أما المصدر ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ فإنه يوحي بالتأثير الذاتيّ في المُخَاطَب .

فهو عليه السلام يسمع كلام (الله) بغير انحصار ، وكأنه صوت ولا صوت وحرف ولا حرف ،وقد امْتَنَّ عليه عندما قال له : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [الأعراف: 145] . والأرجح أنها (التوراة) ، وليس مجرد الاختصاص لكونه كليمًا (لله) تعالى؛ حيث إن أقل شبهة من المماثلة تُبْطِل المعنى بطلانًا أصليًّا، وتتنافى مع ما يليق بذات (البارئ) -تعالى- من تنزيه وتقديس .

ومما يتبين الباحث من قوله ﷻ عن (المسيح) عليه السلام : ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: 171]، يُشعِرُنا بالاطمئنان الذي قدمناه عن اعتبار كلمات (الله) -تعالى- هي مقدوراته التي قدّر، ومخلوقاته التي خلق.

وحيث إنه خَلَّاق سرمديّ لا نهاية له : ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: 29] ، وهو تعالى (البديع): ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: 8] ؛ فلا نهاية لقدرته ولا حصر كما تقدم .

وهذا هو الـذي : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: 27] ؛ لأنها هي المقدورات السرمدية التي تُبْرِزها القدرة كما تخصصـها الإرادة وتتعلق بها المشيئة ، تِباعًا وبغير انقطاع لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وإنه إذا لم يُصَرْ إلى هـذا الرأي في فهم معنى الكلام الإلهي فماذا إذًا يُصار إليه بعده ؟!.

وقد تضمَّنت اللغة في المصدر (**الكلام**) لفظًا أنـه إذا كُســرت كافـه كانـت بمعنـى الجُـرح ، ويُقال : فؤاد (**كليم**) أي جريح و(**مَكْلُوم**) أي مجروح ، وهو مـا يحمـل معنـي الأثـر الـذي يتركـه الجرح علي صفحة العضو الجريح، رغم أن الإسناد إلى (الله) ﷻ يجب أن يكـون بعيـدًا عـن مِثْـل هذه الاشتقاقات ومحيطاتها اللفظية .

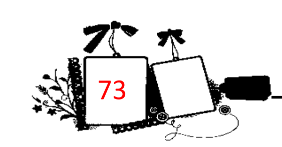
ففـي (**الآيـة**) الكريمـة : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غـافر: 6] ، لـيس معنـي: ﴿وَقَالَ﴾ أي تلفَّظ ، وإنما بمعنى قضـى وحكم ، والقول عند البشـر أيضًا قـد يكـون مُجَـرَّدًا عـن اللفظ والعبارة ، كما قال -تعالى- عن (**المسـيح**) ﵇ لأمـه ' إثـر ولادتـه : ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مـريم: 26]، وقولـه: ﴿فَقُولِيٓ ﴾ يعنـي في التقـديرأن قـدِّري في نفسك أنك نَذَرتِ (لله) صومًا عن الكلام إلى أي إِنْسيّ.

فلو كان صادرًا منها بالقول اللفظيّ والعبارة ، لكان ذلك فِطرًا منها ' في نية الصوم وخروجًا على الوفاء بالنَّذْر ، فلَزِم أن يكون القول كامنًا في الـنفس مُقَـرَّرًا في النيـة غـير محتـاج إلى اللفـظ أو العبارة .

ولذلك التزمت (**العذراء مريم**) نية الصوم عندما عَيَّرَها قومها بولـدها المولـود لوالـد غـير معلوم ، فأشارت إليه ولم تتكلم التزامًا للوفاء بالنـذر الصَّـومي : ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: 29]، وأن تطلب إليهم بالإشـارة أن يتكلمـوا إليـه، الأمـر الـذي جعـل المعجـزة تفجؤهـم بقول (**المسيح**) ﵇ إثـر ذلـك : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مـريم: 30] .. إلـخ مـا قـال في (**الآيـة**) المباركةمن سورة(**مريم**).

فليس من العجيب بعد ذلك أن يقوم قائل ليقول : إن معنى الكلام بالنسبة إلي ذات (الله) ﷻ هو المعاني القديمة القائمة بنفسه تعالى ، وهو أمر مفروغ منه ؛ لأن المتكلم -سبحانه وتعالى- متَّصف بالقِدَم ، ولكنها كذلك المعاني التي تمثلت في المقدورات المعلومة المُقَدَّرة المُخصَّصة الأبدية ، فهو به أَوْلَى .

ولذلك ناسب أن يتكلم الإنسان بعد ذلك إجمالا عن (**الصفات الكونية السبع**).



خاتمة الباب الأول الصفات الكونية السبع

كونه ـ تعالى ـ قادرًا:

ومعناه أن تعلُّق (**القدرة**) تعلُّق كونيّ للمقدور عليه بغير انقطاع ولا تعطيل، وإنما أبدًا سرمدًا وبلا نهاية وإلا كانت القدرة مُعَطَّلة إذا لم يكن صاحبها قادرًا بالفعل، تسرى قدرته ﷻ في مقدوراته سريانًا لا انقطاع له: ﴿**وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ**﴾ [الأنعام: 18].

كونه ـ تعالى ـ مُرِيدًا:

لأن صاحب (**الإرادة**) يُبرِز بقدرته ما تعلَّقت به إرادته، فهو ﷻ من غير حصرـ ولا تحديد: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [هود: 107].

كونه ـ تعالى ـ عالِمًا:

تعلَّق (**علمه**) ﷻ بمقدوراته التي سيبرزها مُخَصَّصة بإرادته: ﴿**أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [**الطلاق**: 12]، وأحصى كل شيء عددًا، ولا انقطاع لعلمه ولا نهاية ولا إحاطة، إلا بما تكرم من حِكَمِه.

كونه ـ تعالى ـ حيًا:

بسريان (**الحياة**) في الكائنات جميعها، وهي في الكونيات تُعرف

ببرهان البقاء والاستمرار والحركة، ولو لم يكن المُمِدَّ بالحياة ﷻ (حيًّا)، للزم البطلان منطقيًا على ضوء قاعدة أن فاقد الشيء لا يعطيه وهي مقدمة بديهية لا يختلف عليها اثنان.

فلو لم يكن (خالق) الكائنات (حيًّا) ما رأينا حيًّا، ولو لم يكن (سميعًا) ما وجدنا سميعًا، ولو لم يكن (بصيرًا) ما رأينا بصيرًا، وكذلك لو لم يكن متكلمًا ما وجدنا متكلمًا.

وقد رُوي عن (ابن عباس)^ أن (النبي) ﷺ كان يقول :

« **اللهم إني أعوذ بعزتك لا (إله) إلا أنت أن تُضِلَّني ، أنت (الحيّ) الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**» طباقًا للآية الكريمة : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: 26 – 27] .

كونه ـ تعالى ـ سميعا بصيرًا متكلمًا:

فإذا أنت أضفت صفات (السمع والبصر والكلام) إلى (القدرة والإرادة والعلم والحياة) ، كانت هذه هي الصفات الكونية السبع، وهي خاصَّة لذات (الله) ﷻ ويستحيل على أضدادها، وهي على التوالي :-

(العدم أو الحدوث أو المُماثَلة للحوادث أو الاحتياج إلى محل أو مخصِّص أو التعدُّد أو العجز أو الجهل أو الموت أو الصَّمَم أو العمى أو البَكَم).

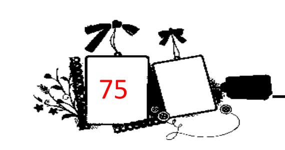
نقول إن هذه كلها مستحيلة بالنسبة لذات (الله) ﷻ تقدسًا وتنزيهًا ؛ بعد ظهور تجلِّيات الصفات الكونية الثابتة النافية لهذه المستحيلات ، فلن يكون -سبحانه وتعالى- عاجزًا ولا مُكْرَهًا ولا جاهلاً ولا ميِّتًا ولا أصم ولا أعمى ولا أبكم ، ومعنى البكم- هنا- عدم القدرة على الخلق والإبداع والتكوين .

(تعالى (الله) عن ذلك علوًا كبيرا) : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن



مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء: 44].

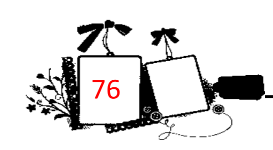
ولعل هذا أيها المسلم الحبيب يكون المدخل الطبيعي الأسمي لتناول مجالي الأسماء الإلهية الحسني ، مع تجليات الصفات الربانية العظمي.

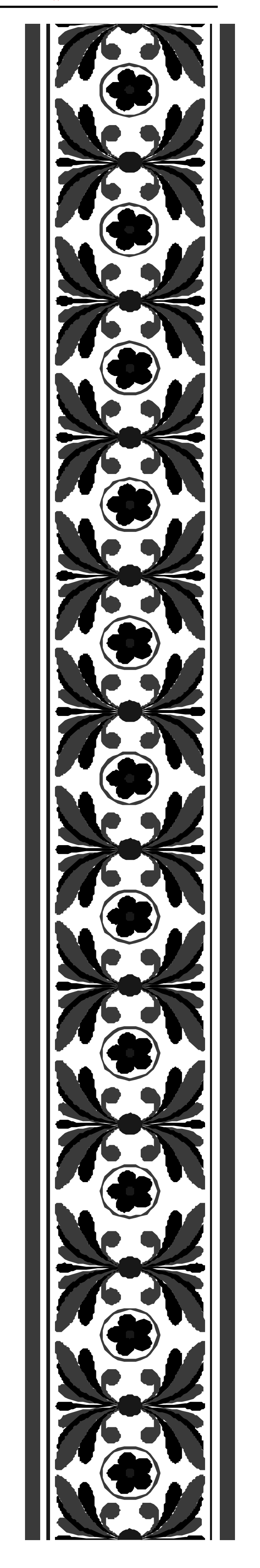


جعلني (الله) ﷻ وإياك ياأخي المطهر من أولي النهي البصيرة والأفئدة العـامرة المستبشــرة ، **(الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه)** ، وجمَعنا تحت ظلال رحمته وعفوه **(يوم لاظل إلا ظله)**.

وهو – سبحانه – القائل: ﴿**فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ**﴾ [**العنكبوت**: 3].







البَابُ الثَّانِي

افتتاحية مَجَالِي الأسماء الإلهيّة مع تجلّيات الصفات

إن أول الأسماء الإلهية هـو: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ (جلَّ جلالـه) ،وهواسـم عَلَـم عـلى ذات (الواحد)، واجـب الوجـود ﷻ وإليـه تسـتند الأسـماء كلهـا ؛ فنقـول :هـو ﴿ ٱللَّهُ ﴾ (الرحمن) (الرحيم) ، هو﴿ ٱللَّهُ ﴾ (الملك) (القُدُّوس) (السلام) .

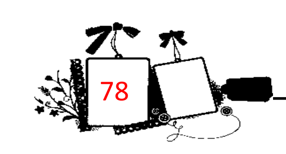
وهكذا تُسند الأسماء – التي هي أسماء الإحصاء – إلى الاسم الأول، وهو اسم (الله) تعالى ؛ ولذلك يقول بعضهم: (**إن هذا الاسم هو الاسم الأعظم**)؛ لأنه اسـم الـذات أمـا بقية الأسماء فإنما هي للصفات .

والواقع أن الاسم (الله) اسم معصوم من أن يُسمَّى به باطل أصلاً، فلـم يسـبق أن سُمِّي صنم أو طوطم أو وثن أو أي مخلـوق كائنـا مـا كـان باسـم(الله) ﷻ أبـدًا، وحيث إنه عَلَم على الذات الإلهية ولـيس مشـتقًا مـن الألوهيـة كـما قـال بعضـهم ؛ فيكفي أن يقوم الإذعان في النفس بإجلال مُسمَّاه ، والتفويض المطلق في أمر ذاته ، أي ذات المُسمَّى تبارك وتعالى(**ذو الجلال والإكرام**).

فإن من النظريات العقلية المسلَّمة رياضـيًا أن المحيط بكـل شيء ، يسـتحيل أن يحيط به شيء، وعلى فرض قَبُول التجزُّؤ والانقسام ، يستحيل أن يحيط الجـزء بالكـل استحالة ذاتية ثابتة، فكيف بذاته ﷻ

سبحانه وهو المُطلق حتى عن قيد الإطلاق بصفة القدرة كما قدَّمنا.

ومما يَدُلّ على كون اسم (الله) تعالى علمًا عـلى ذات واجـب الوجـود –جـلّ شـأنه– أن جميـع الأسماء قابلة للإسناد إليه ، كما في كتابه ﷻ: ﴿ **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ** ﴾ [الحشر: 23] ... إلخ غير ذلك من أسماء الصفات مثل(القادر) من القدرة، و(العليم) مـن العِلْـم وهكذا .



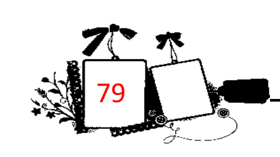
وإلى الاسم (الله) تُسند أسماء التكوين ؛لقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر : 24].وعلى هذا وغيره الكثير من الآيات،تُلاحَظ أعظمية اسم(الله) ﷻ لفظ الجلالة ، وكونه مرجعًا للأسماء كلها من ناحية التكوين .

وهو- تعالى- يبيّن لنا في كتابه الحكيم: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: 103-104].

ويقول- جل شأنه وتباركت آلاؤه- وقوله الحق : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: 19].

ومدلول هذا الاسم منزَّه بذاته ﷻ عن الاستواء بأي صورة من صوره على العرش؛ لاندراج كل شيء في تلك الذات العلية، وإنما يُسند الاستواء على العرش إلى أوّل أسماء الصفات، وهو الاسم (الرحمن) في قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: 5].





المبحث الأول الرحمَن

و(الرحمن) أول أسماء الصفات، وهو بحاجة إلى خبرة واسعة ؛ لأنه اسم (العرش) كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59].

وقد قال الشيخ (محي الدين بن عربي) [22] المتوفَّى في (دمشق) سنة 638هـ ، من ناحية اللغة :(إن الرحم شَجَنة[23] من (الرحمن)).

والمقصود بالرحم مكان الاجتنان، القابل لوجود مخلوقات بغير انقطاع، وكل ما فيها باطن بها،والألف والنون للمبالغة كحياة وحيوان،كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: 64] ، أي الحياة الكبرى بغير انتهاء ؛ ولذلك استخدم صيغة الحياة بالألف والنون ، فالاسم (الرحمن) صفة الرحمة بغير انقطاع .

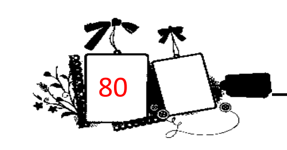
ويبدو أن المقصود بمعنى(الرحم) هنا مكان اختزان المُقَدَّرات كلها،وهو من مجالي اسم (الباطن) ؛ فإنه –سبحانه وتعالى– (الباطن) من حيث التدبير، و(الظاهر) من حيث تكوين المدبَّرات(بصيغة اسم المفعول) .

وعلى هذا تكون تجلِّيات اسم (الظاهر) صادرة من مقدَّرات الاسم (الباطن) ، ويكون المقابل لاسم (الباطن)هو الاسم(الأول) ،ويكون المقابل للاسم (الظاهر) هو الاسم (الآخِر)، و(الله) ﷻ من حيث ذاته : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]، وهذه المجالي لهذه الأسماء كلها تابعة لسلطان اسم العرش، وهو (الرحمن).

ومن ثَمَّ لزمت الخبرة في تعرُّف الاسم (الرحمن) ، فشمول إحاطته بالحُكْم والمحكومين والخَلْق والمخلوقين والتدبير والمُدَبَّرين ، وكل اسم من أسماء الفِعال يقتضي مقابلاً له، فالاسم(الخَلاق) مجلاه الخلق والمخلوقون، والاسم(الرزَّاق) مجلاه الرزق والمرزوقون ، وهكذا تتعدد وتختلف وتتفاوت مجالي الأسماء ، وهوما سنحاول أن نبِّينه في هذا الكتاب بعونه ﷻ ومدده.

(22) هو التصوِّف الكبير الإمام (محي الدين محمد بن علي بن عربي الأندلسي) وقد لُقِّب ﷺ بالشيخ الأكبر ؛ ولذا يُنسب إليه مذهب باسم (الأكبرية) ، وهو واحد من كبار الفلاسفة المسلمين على مر العصور .

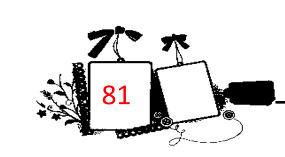
(23) شجنة : بمعنى فرع أو شُعبة .



ولما كان انطواء الموجودات في عالم البُطُون وفيما هو- بالقوة لا بالعقل- يُعد كونًا ، فإن مجرد إظهار تلك الكوامن وإبرازها من عالم البطون ومجالي الاسم (الباطن) ، إلى عالم الظهور ومجالي الاسم (الظاهر)لا يكون إلا رحمة وفضلاً منه تعالى، بأن أنشأ وهيأ السمع والبصر بهيئة كريمة لاستقبال تجلِّيات الصفات على مجالي الأسماء ، وإعلان التنافس بين ذوي البصائر والأبصار من الأحياء المخلوقين المدبَّرين .

ناسَبَ أن يأتي اسم (**الرحيم**).





المبحث الثاني الرَّحيم

يـأتي الاسـم (الـرحيم) تاليـًا لاسـم (الـرحمن) في (افتتـاح الكتـاب) : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1] ، وتلو (شهادة التوحيد) في قوله تعالى : ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163] ؛لأن الوجود بأسره – ما خفي منه وما بدا من شيء كان كائنًا مخلوقًا – إنـما هـو مـن فـيض رحمتـه وكمال عنايته ولُطْفه.

ومن ثَمَّ تكون جميع المظاهر من آياته وظواهر تجلِّياته وجمال إبداعه في مصنوعاته، هي مرائـي عظمته وبراهين حكمته ودلائل قدرته ومعالم رحمته ؛ فكان من الملائم أن يكـون الاسـم (الملـك) تاليًا في الرَّتْب لاسم (الرحيم) .

وتتقارب الأسماء : «**الرحمن ، الرحيم ، البرّ ، الكريم ، الحليم ، الجوَّاد ، الرَّءوف ، الوهَّـاب** » في معانيها وتجلِّياتها ومُقتضياتها ، وتدل جميعها على اتِّصاف (الله) سبحانه وتعالى بسعة الرحمة،التي عمَّ بها الوجود والموجودات ،حسب ما تقتضيه حكمته ﷻ وعلمه .

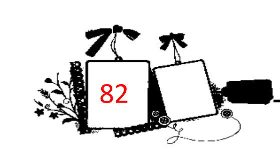
وخصَّ المؤمنين الأتقياء ~ وأرضاهم من الرحمة بالنصيب الأوفر والحظ الأكمل ، فهـو سـبحانه وتعالى القائل : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156].

والنِّعم والإحسان وخيرات الدنيا والآخرة ،كلها من آثار رحمته وجَوْده وكرمه ، حيث قال تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

والاسمان الكريمان : ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ مُشْتَقّان كلاهما من مصدر الرحمة سبحانه وتعالي.

والفرق بينهما أن (الرحمن) هو ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء ، أما (الـرحيم) فهـو الموَصِّل رحمته إلى من يشاء من خلقه ؛ لأنه ﷻ (المَلِك).





المبحث الثالث المَلِك

وقد رأى بعض المُؤَوِّلين في (**القرآن**) أن (الرحمن) هو المُمِدّ لدقائق النِّعم في الدنيا، وأن (الرحيم) هو المُمِدّ بجلائل النِّعم في الآخرة .

ونحن نرى أنه مع احتمال رجاحة ما ذهبوا إليه في هذا المقام ، إلا أننا لا نوافقهم على انحصار المعنى فيما ذهبوا إليه ، وكما ورد في قوله تعالى : ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ**﴾ [الحاقة: 17].

الأمر الذي يدل على استمراروسرمدية تجلِّيات اسم (الرحمن)،الذي هو اسم العرش، فلا محل للحصر بوجه من الوجوه. وإن الثمانية من القوى الملكوتية ازدواج ل(**حَمَلة العرش**)، و(**هم الآن أربعة**) كما قرر العلماء.

وإن هذا الازدواج يدل على طُروء مظاهر وتجلِّيات،لم تبرُز بعدُ من تجلِّيات دائرة مجالي الاسم (الباطن) ؛ وعليه يكون الحكم بشأنها حكمًا لا أساس له.

والقول بمعنى حمل العرش غير ما قد يتبادر من معنى الحمل عندنا، كما تتعدد أيضًا أجنحة (**الملائكة**)عليهم السلام في قوله تعالى : ﴿**جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ**﴾ [فاطر: 1] ، فهي لا تشبه بحال الأجنحة من الريش، التي تضرب الهواء لكي تحمل ثِقَل جسم الطائر؛ حيث لا ثقل في أجسام الملائكة.

ولهذا لا تشابُه بين أجنحة الطير وأجنحة الملائكة؛ فيكون المُسمَّى مُبْهمًا مجهولاً لنا على معرفتنا بهذا الاسم ، وإنما المراد أن نعلم أن الملائكة تصعد وتتنزَّل مُشبَّهين بصعود الطير ونزوله .



وبهذا بَطل أن نظن الحمل للعرش حملاً على العواتق ؛ إذ لا يمكن تحديد معنى العرش وإضافة الثقل إلى مفهوم الاسم فلزم التفويض في المصدر والعدد، فإذا كانوا الآن أربعة فهو نظام ملكوتيّ (غيبيّ)، والإيمان بالسمعيّات أمر لازم على أساس التفويض في العدد .

فلا يخطربالبال ولن يدوربالخُلد خاطر واحد عن حقيقة الأمور الغيبية السمعية ؛لأن مجرد إمكان القصور يُخرِج الأمر عن نطاق الإيمان متى كان الإيمان تصديقًا جازمًا ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، وهذا الأمر غيبيّ محض.

فتعدُّد الملائكة في الآخرة من حَمَلَة العرش بالثمانية: ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17]، أمر غيبيّ سيتجلَّى واضحًا (يوم يأتي تأويله) (24).

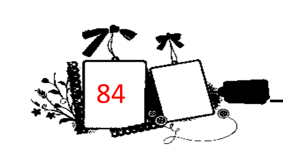
وقد أنكرت جماعة من العرب تسمية (الله) – تعالى– بالاسم (الرحمن) عندما أُمِروا بالسجود له في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾ [الفرقان: 60] .

و(الرحمن)عز شأنه – من حيث الاستواء علي العرش– يكون (المَلِك) مصدرالأحكام ، فلا يصح بغير اسمه حُكْم ولا يجري أمر: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1].

والاسم (المَلِك) إذًا من مقتضيات اسم (الرحمن) الذاتية ، وليس الاستواء بمعنى الاستقرار أو الجلوس ولا بمعنى مجرد الاستيلاء على السلطان والحكم، كما رأى أحد المؤَوِّلين واستشهد بقول الشاعر:



(24) وقد ورد في الأثر : حدَّثنا (ابن حميد) ، قال : حدَّثنا (سلمة) عن (ابن إسحاق) ﷺ قال : بَلَغنا أن رسول (الله) ﷺ قال : «هم اليوم أربعة ـ يعني حملة العرش ـ فإذا كان يوم القيامة أيدهم (الله) بأربعة آخرين فكانوا ثمانية» .



(قَــدِ اسْـــتَوَى بِشْرٌ ـ عَــلَى الْعِــرَاقِ　　　بِغَـــيْرِ سَـــيْفٍ أَوْ دَم مُهْـــرَاقِ)

ولكنه استواء سريانيّ بالحياة والقُوَّة في كل شيء ؛ لأن الذي استوى على العرش موصوف بكونه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: 126] ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 5] ، وكونه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: 103] ، وهو الذي خلق الإنسان وسخَّر له الكون، إلى آخر الآيات الدالة على شمول سعته بالعلم والذات والقوة ؛ لأنه (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا (بِاللهِ العليّ العظيم)).

ويكون الحاصل أن الاستواء معلوم لنا، ولكن الكيف مجهول.

ولأننا ناقصو العلم في هذه النشأة الأولى ، ولا تزال بصائرنا﴿فِي غَفْلَةٍ﴾عن إدراك الحقائق الملكوتية الكبرى إلى أن يحين الحين ، وتقول الملائكة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22].

وإلى أن يُكْشَف هذا الغِطاء، يكون من الإنصاف والعدل توقُّف المحجوبين تحت الغطاء عن إصدار أي حكم في حقيقة لن تظهر إلا بعد كشف الغطاء ، ومن هنا يقول ﷻ : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] ، وقد أتى على هذا (القليل) بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 216].

فما ثَمَّ من علم يُطْمَأن إليه إلا إذا كان (الله) ﷻ هو مصدره، وما ثَمَّ من حكم (ينشرح له الصدر) ، إلا إذا كان منه تعالى بوصف أنه (المَلِك).

واسم (المَلِك) يقتضي مملوكين، كما يقتضي اسم (الحَكَم) محكومين، واسم (الخالق) مخلوقين؛ ومن هنا كان اسم (المَلِك) متعلقًا باسم(الحَكَم)، واسم (الحَكَم) متعلقًا باسم (العدل).

وتلك المجالي للأسماء الدالة على الذات، إنما تتلازم من غير تمثيل ولا تشبيه ولا مقارنة ؛ لأنه وحده ﷻ وبغير شريك هو (القُدُّوس).





المبحث الرابع القُدُّوس

الذي تقدَّست ذاته وتعالت عن سِمات المُحْدَثات ،وعما يتصوره الجاهلون من الصفات.

ويؤنسنا في هذا المقام قول الامام (عليّ بن أبي طالب) ÷ :

(هو (القادر) الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك مُنْقَطَع قدرته، وحاول الفكر المُبرَّأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب مَلَكُوته، وتولَّهت القلوب إليه لتجري في كيفيَّات صفاته،وغمُضت مداخل العقول من حيث لا تبلغه الصفات لتنال علم ذاته، رَدَعها وهي تجوب مهاوي سُدَف[25] الغيوب، متخلِّصة إليه – سبحانه – فرجعت إذا جُبِهت مُعترِفةً بأنه لا يُنال بجَور الاعتساف[26] كُنْه معرفته، ولا تخطُر ببال أُولي الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته) ... إلخ ما جاء في (**خطاب الأشباح**) من كتاب (**نهج البلاغة**) ، الذي وضعه العلَّامة (**الشريف الرَّضي أبو الحسن محمد بن الحسين**) [27].

وإذا كان قول القائلين من علماء الغرب بأن (القُدُّوس) معناه الطَّهُور، فإننا لا نجاريهم في هذا المعنى من الطُّهر الذي يقابل النَّجَس، فإن من المتبادر أن هذا القول يتناول شرحًا للذات، التي هي فوق الدَّنس.

ولكنَّ الأمثل أن نعلم من معنى (القُدُّوس) ،السُّمو عن إحاطة التعريف بعليائه ﷻ ،وكل ما يُنْسَب إليه يسمى قُدُسًا ومُقَدَّسًا .

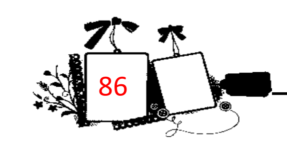
وقد أجمعت الكتب القديمة على اعتباره قدس الأقداس، ويُسَمَّى (**جبريل**) ﵇ (**روح القدس**) ، فهو اسم يدل على أعلى المقامات وأسماها عن الإحاطة أو محاولة الإدراك ، تقدست ذاته وتعالى عما يقوله الظالمون عُلوًا كبيرًا .



(25) **السدف** : جمع سُدْفة وهي القطعة من الليل المظلم .

(26) **الجور** : العدول عن الطريق **والاعتساف** : السلوك على غير جادة أو التشدد .

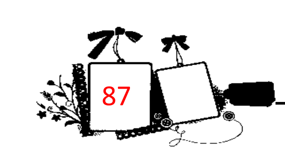
(27) حاول (**الشريف الرضي**) ؒ في (**نهج البلاغة**) كما يشير اسم الكتاب انتقاء أبلغ وأجمل الأحاديث المروية عن الإمام (**عليّ**) كرّم (**الله**) وجهه في الخطب والمواعظ والحِكَم وغيرها، توزّعت بين 238 خطبة ، و79 بين كتاب ووصية وعهد ، و488 من الكلمات القصار .



وقد أعتاد (**أهل الكتاب**) أن يطلقوا اسم : (**قدِّيس**) على من لم يقرب الخطيئة أو يقترف الـذنب ، لكن قولنا : (**قِدِّيس**) ، غير قولنا : (**قُدُّوس**) من حيث اللغة ، كالفارق بـين اسـم الفاعـل واسـم جمع الفاعل والمفعول،فإن الاسم (القُدُّوس) عائد علي مصدر التقديس ، الذي هو الرِّفعة والتعـالي والسُّمو الذي لا يتناهى ، وهو منسوب إليه ﷻ بحَمْل طابَع التقديس.

وهو الاسم التَّالي لاسم (الملك) يُلْحَق به الاسم (**السلام**) .





المبحث الخامس السَّلام

و(السلام)هو(الله) تعالى ، وهو أيضًا الأمان كما أنه هوأيضًا النعيم ، لقوله تعالى : ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 127] ، وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [هود: 69] ،وقوله ﷻ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: 15].

وقوله جلَّ شأنهتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: 59].

وكذلك قوله في سورة (يس) : ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: 58] .

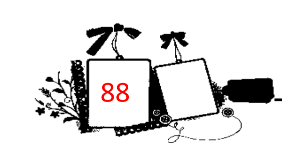
وقوله تعالى في (يونس) : ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25].

وقوله ﷻ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: 181].

والاسم (السلام) اسم كريم ،معناه السالم من جميع العيوب والنقائص في ذاته وصفاته وأفعاله جميعها مجتمعة .

فحياته – تعالى– سلام من الموت ، وقيُّوميته وقدرته سلام من التعب واللُّغوب ، وعلمه وإرادته وكلامه سلام من الكذب أو الظلم ، وكذلك قضاؤه سلام من العَبَث والجَوْر، وقَدَره سلام من التوهم أو انعدام الحكمة ، وكذلك عطاؤه ﷻ ومنعه وشرعه ودينه ، الذي هو سلام من أي تناقض أو اضطراب؛فالاسم (السلام) يجمع كل هذه المعاني مجتمعة ولا ينحصر في إحداها ؛ متى كانت (الجنة): ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾و: ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾



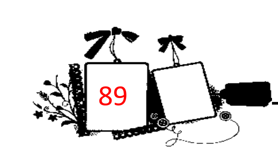


كان تعالي: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ [الحشر: 23] ؛ فإن فيضه لا ينتهي ومعينه لا ينضب وفضله لا ينقطع وقَدَره لا يُحد،لا في (**الدنيا**) ولا في (**البرزخ**) ولا في (**الآخرة**) .

فكيف يتسنَّى لنا أن نحصُر معنى (السلام) فيما نرى ونسمع، وهو اسم لا يمكن حصر مُسَمَّاه ؟.

ولأنه كذلك ؛ ناسب أن يأتي بعده مباشرةً الاسم (**المؤمن**) .





المبحث السادس المُؤمِن

والإيمان في اللغة معناه التصديق ،فهل من حقنا أن نفهم اسم (المؤمن)بمعني المصدِّق؟ فبأي شيء سواه يصدِّق ؟ ... وهل يوجد شيء سواه إلا به؟.. وهل توجد حقيقة قائمة إلا به ؟.

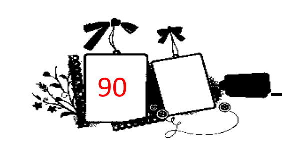
أمام كل هذه الاعتبارات اللفظية،نرى وجوب تقديس ذات (الله) تعالى عن المشابَهة بالحوادث أو المماثَلة لها، كما ورد عن الصفة الرابعة من صفاته تعالى.

فيكون الإيمان عند الحادث بمعنى التصديق ،وعند القديم بمعنى المصدر الرئيسيّ- لوحي الإيمان في نفس كل مؤمن ، وإلا كان الإيمان من غير مصدروهوأمر مُحال؛ومن أجل ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: 33].

أليس الإيمان كسبًا للمؤمن انحاز به إلى أقصى اليمين، فكان بذلك (وليًا) لمن آمن به، وكان – لذلك أيضًا – جديرًا بأن تَنْصَبّ على نفسه أضواء الإيمان من فيض النُّور؛ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: 9].

وهو– سبحانه– يقول عن (أوليائه) ~ الذي هو (وَلِيُّهم) : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: 257] ، في أقصى اليسار، وشَتَّان بين (المؤمن) و(الكافر) ،خاصة وقدجاءنا قوله : ﴿هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ [الأنعام: 1] ، أم: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: 9] .

فمتى كان (الله) ﷻ (وليّ) الذين آمنوا ،كان حريًّا أن يتولى هدايتهم بالنور؛ فيوجِّه بصائرهم إلى الحقائق الثابتة ، التي لا يمكن أن تكون مثارًا لجدل أو موضوعًا لخلاف ؛ بوصف كونها حقائق مُجرَّدة .



وإذا كان كل ذلك الإيمان فيضًا متدفقًا من عالم الغيب يَنْصَبّ في قلب كل مؤمن ، فإن الاسم (المؤمن) هو المصدر الرئيسي لحصول ذلك الإيمان ، كما أن الاسم (الصَّبُور) مثلاً لايدل على قوة احتمال المكروه بالنسبة لذات (الحق) ، المنزَّه عن الألم ومُمَاثَلة البشر في تلك المماثلة للحوادث – (تعالى (الله) **عن ذلك علوًا كبيرًا**)- فكيف يقع ما يؤلمه وهو مُنَزَّه عن الجسدية .

وما وقع في الكون أمر إلّا بعد أن خصَّصته إرادته وأنفذته مشيئته ، غير مُكْرَه وله الحُجَّة البالغة .

بل إن الصبر إنما هو مدد من الاسم (الصَّبُور) ؛ ولذلك يقول جل شأنه : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: 127-128] ؛ومن هنا تأتي تجلِّيات الاسم (الصَّبُور) حيال أي محنة أو أمر مكروه.

فقل لي بأبيك ، ما هي المعاني التي تتبادر إلى ذهنك الصافي الرقيق ، عندما تحاول أن تفهم : ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾، أهي معيَّة جسدية وقد تنزَّه ﷻ عن ذلك؟ ..

فلم يبقَ إلا اعتبار واحد وهو معيَّة الإمداد والإلهام ، كما قال تعالى عن أصحاب (**طالوت**) : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: 25-26] .

فكذلك يفهم المؤمن إيمانه باعتبارالاسم (المؤمن) مبدأً أعلى ومصدرًا رئيسيًا مُمدًا،يفيض بقوة الإيمان والتصديق بالأنباء الغيبية من (عالم الغيب)، عن (**الخلود وأبدية الأرواح والنعيم والعذاب وقديم الحساب**) ، وانحصار المسئولية الفردية في ذوات أصحابها حيث قال وقوله الحق: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164].

فالذين صدَّقوا بالغيب والجنة ونعيمها وصفاء الحياة على أنهار (**الكوثر**)، وبمثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ** ﴾ [القمر: 54-55]، ما كانت تقواهم إلا قوة نضيرة من شجرة إيمانهم الثابت الوطيد، وما كان ذلك الإيمان إلا فيضًا من الاسم (المؤمن).

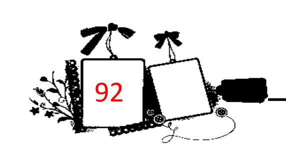
فلزم من كل ذلك- لزومًا رياضيًا - أن يكون الإيمان فيضًا منه ﷻ وفضلاً على عباده، سبحانه جعل المؤمنين جميعًا أولياءه وجعل نفسه (وليًا) لهم، وجعل ولايته شعارًا عامًا للأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين.

كما قال(**يوسف**) عليه السلام بنص(القرآن) الكريم: ﴿**رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ [**يوسف**: 101].

والولاء في اللغة ضد العداء، فمن كان وليًا (لله) ﷻ- الذي هو(العزيز) ومصدر العزة جميعًا - مؤمنًا به، كان إيمانه (**شجرة طيبة**) (**تؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها**)، فيمد المؤمن بالقُوى اللازمة لمواجهة الحقائق الكونية والتعمُّق في دراستها واستقرائها،في غير تحيُّز إلى الأهواء ،بل باجتناب الضلال بين القيل والقال والمناظرة والجدال ؛ تعظيمًا لتلك الحقائق الثابتة،التي هي ملء الأسماع والأبصار والأفئدة ، لا تغيب عنها شوارد الأمور،ولكن تُحْجَب عنها ألوان الغرور.

وبالوصول إلى إدراك هذه الحقائق، يقتضي المؤمنون فرصًا ثمينة يتحيَّنونها لإدراك لمحات من الإلهام والنظر؛ تُكْسِبهم الاستقرار و(**الاطمئنان**)،الذي لا يتيسر إلا بالإيمان لعظمة (علَّام الغُيوب) :﴿**أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ**﴾ [**الرعد**: 28-29].





أما الذين كذَّبوا بالغَيْب - بل (**كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**) - فكيف يتسنى لنا - أمام القضايا الرياضية الثابتة ذات البراهين المُسْنَدة إلى الحقائق المجرَّدة - أن نمنحهم شرف المناقشة ، وقد وضعوا أنفسهم مواطئ (**أظلاف الأنعام**) : ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ**﴾ [**الأعراف**: 179] ، وقد حكم (العزيز- القهار) عليهم بنار (**جهنَّم**) في نفس (**الآية**) الكريمة من (**سورة الأعراف**)، عندما قال وقوله الحق: ﴿**وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ**﴾ [الأعراف: 179].

(**وماذا عليهم لو آمنوا (بالله) واليوم الآخر**)، هل كان يُضِيرهم أن تسود الفضائل والآداب والوقار واحترام الحق لذاته، وتقرير الواجب تقريره حيال كل باطل؟! ...

وهل كان يسوؤهم أن تزول مُنْكَرات الإباحية المطلقة،التي ينقلب بها الأناسيّ إلى قطعان حيوانية ضارية، يُسْتَخدم فيها العقل والمنطق لاقتناص فرائصها، غير مصدِّق أن هناك حياة أسمى وأخلد وأحلى وأنعم من هذه الحياة الدنيا ،التي فرضت نفسها حصارًا على مشاعرهم ؛فقطعت في نفوسهم دابر الأمل؛حيث أيقنوا أنه لا (إله) ولا بعث ولا حساب ولا خلود، إنما هي أرحام تدفع وأراضٍ تبلع، و(**ما يهلكهم إلا الدهر وما هم بمبعوثين**)، كما أنبأنا عنهم (**القرآن**)الكريم : ﴿**وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [الجاثية: 24].

أهذا هو مقعد القمة من هؤلاء اليائسين من الخلود والسمو، المُنْكِرين للعفاف والكرامة ومَنَعة الإيمان ونعمة الإسلام (لله) تبارك وتعالى.

وعلى هذا يكون الإيمان ضدًا للتكذيب، وقد تكرر في الذكر الحكيم: ﴿**فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ**﴾ [**الطور**: 11] مرات متعاقبة، وهذا توكيد لإنذار الذين (**كذَّبوا بالحق وأعرضوا**) عن العدل و(**قَطَعُوا ما أمر (الله) به أن يُوصَل**)بكل معانيها، وأنكروا البعث والحساب وكذَّبوا بالعقوبة وحُسْن الثواب ، وانطلقوا في تياراتهم الجارفة وغرائزهم النهمة.

فلما نَجِست مشاعرهم الرُّوحانية و(**صارت قلوبهم في أكِنَّة**) ؛ لم يكونوا وهم على هذه الحال - جديرين بأن يفيض عليهم فيض من نور الإيمان، ينقذهم من يأسهم الهامد وأملهم المنقطع،ليُحْييهم من وهدة القُنُوط بالسعادة العليا الخالدة : ﴿**مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: 69].

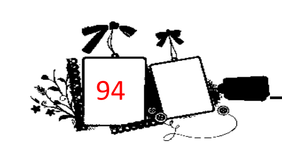
من أجل ذلك يتضح أن الإيمان إنما هو فيض نورانيّ وإمداد من جانب تجلِّيات الاسم (المؤمن)،الذي هو المصدر الرئيسيّ والمبدأ الأول لوحي الإيمان في قلوب الذين اختارهم له من (**المُصْطَفَيْن والأخيار**) ~ وأرضاهم أجمعين، و(**التابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين**).

على أن استناد الاسم (المؤمن) إلى الاسم (السلام) ظاهر كل الظهور في التزام العرش الإلهيّ - فضلاً منه ورحمة بهم - حق الدفاع عنهم ، وهو الذي أوحى إلى الملائكة عليهم السلام أن تؤازرهم وتثبِّتهم ، كما ورد بالنصين الآتيين:

﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟**﴾ [**فصلت**: 30].. إلخ النص.

أما الثاني فهو قوله ﷻ : ﴿**إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ**﴾ [الأنفال: 12].. إلخ (**النص**)؛ وذلك ليتمثل قوله تعالى :﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟**﴾ [الحج: 38].

وهكذا كان الإيمان عاملاً رئيسيًا في كسب النصر المؤزّر عند ابتداء الإسلام، وكانت قواته فرسانًا بالنهار رُهْبانًا بالليل؛ فحملتهم أجنحة إيمانهم على أكناف الأرض في مدى نصف قرن من الزمان، حينما امتد نور الإسلام من جوار (**برينيه**) في (**الصين**) شرقًا ،إلى سواحل (**الأطلنطي**) وجبال (**البَرَانِس**) في أقصى الغرب بالإيمان وحده.



حيث لمعت سيوفهم فى الشـرق واقتضت شهبًا على حَيَارى الغَـرْب؛ فورَّثـوا البشريـة أعظـم وأقوم حضارة في أدق وأحكم نظام اجتماعيّ، ينشئ من جميع الشعوب المؤمنة أمة واحدة متماسكة متضامنة متضافرة متعاونة، تمتاز بالإيثار والعزة والغَيْرة والكرامة والشرف وحق النصر في الحرب ، يكرهون مَعَرَّة الهزيمة .

فقل لي (لله) دَرُّك متى كنت زكيًا (**أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا**)؟!.

كل ذلك إنما هو ثمرة التجلِّيـات الدافقـة مـن الاسـم (المـؤمن) ؛ رحمـة بـالمؤمنين في دنيـاهم وأخراهم وإلهامًا لهم وتأييدًا بالملائكة في مواقع اليأس.

وهــو -ﷻ- الــذي أكــد وبشّــر: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ** ﴾ [غافر: 51].

وهو –سبحانه– القائل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: 21].

وَحَسْبُكَ بِالْإِيمانِ نُعْمَى ومَنَعَةً	وعِزًّا ومُلْكًا لا يزولُ ولا يَبْلَى
أأكفُرُ والحادثاتُ شواهدُ	وأُحْشَرُ لا صِدْقًا رَفَعْتُ ولا عَدْلَا
وكيفَ وهذا الكونُ مجلَى شهودِهِ	فيارُبَّ مشهودٍ هو المثلُ الأعلَى
وُقِيْتَ الرَّدَى لاَ تَلْوِي إلا على الهُدَى	ولا تَخْشَ لومًا في هواهُ ولا عَذْلاً
أَنْ قِفُوا وقد هَبَّ الجهادُ فقُمْ إذًا	وإلاَّ فقُلْ إنَّ القُبُورَ بنا أولَى
وكيف تُرَجَّى أن تُشيرَ يدُ الهُدَى	وما خَلَقَتْ كُثْرًا وما تَرَكَتْ قِلًّا
وإن لم أقُلْ ما الحقُّ يُمْلَى فما الذي	سواهُ يُرَجَّى أن أسوقَ به القَوْلَا
وها أنذا قلتُ الحقيقةَ جَهْرَةً	وليس سواها مِمَّا أدينُ به فِعْلَا

* * * *

فالذين آمنوا لم يتبرَّعوا بإيمانهم ولكنه تبرُّع إلهيّ لهم هم، وتفضُّل بالكفالة والمعونة والتأييد والتثبيت والإمداد والإلهام والهداية؛ إذ إنهم: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ [يونس: 9].

ومتى كان – الذي هو المُمِدّ الأكبر – قد جعل الإيمان (**شجرة**) والهداية ثمرة، تعيَّن بذلك المصدر الأول – ﷻ –صاحب الفضل بالإيمان وبالهداية: ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: 29].

وعندما نقول الإيمان فإنما نعني النور؛ لأن الإيمان – بوصف كونه وحيًا أعلى وفيضًا أسمى وأجلى ورحيقًا أعذب وأحلى – من شأنه أن يشرح الصدر بالنور؛ ودليله قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: 122].

ولذا جعل (النور) اسمًا

من أسمائه -تعالى- مشتركًا في عالم الأسماء بين (**القمر**) و(**القرآن**) ؛ لقوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: 52].

و(**الآية**) واضحة أن (الله ﷻ) جعل الكتاب – الذي هو (**القرآن**) – نورًا هاديًا ثم بقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ﴾ [يونس: 5].

وقد بيَّنت (الآية) أن (الله) تعالى جعل القمر نورًا، يهدي به السائرين في ظلمات الليالي لا يكادون يهتدون سبيلاً.

كذلك قوله تعالى : ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [النور: 35] .

وقوله سبحانه : ﴿**نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [النور: 35].

فمتى قال: ﴿**يَهْدِي**﴾ فقد رجعنا إلى (آية) الأساس التي هي : ﴿**يَهْدِيهِمْ ربهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**﴾ [يونس: 9] .فلزم أن يكون النور الوجدانيّ ،الذي تشهده البصائر قوة من تلك (**الشجرة الطيبة**)، التي(**أصلها ثابت وفرعها في السماء**) بقدر تثبيت جذورها في تُخُوم الأرض (**تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها**) لا بطبعها ولا بعِلَّتها النباتية.

فإن القول بالطبع أو بالعلة كفر صُراح كما أجمع كبار العلماء ~ .

ومماورد عن (**اللقانيّ**) صاحب (**الجوهرة في التوحيد**)قوله:

(ومَنْ يَقُلْ بالطَّبعِ أو بالعِلَّة فذاكَ كفرٌ عِنْدَ أَهْلِ المِلَّة)

وهذا الفيض المنهمر من خزائن الجَوْد الإلهيّ – التي لا يُكْسِبها المنع ولا يُفْقِرها العطاء – اختَصّ بها أولياءه ~، الذين انعقد بينه وبينهم (**ولاء الحب**)، فهو سبحانه وتعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: 54].

وما كانوا كذلك إلا بإيمانهم به وإنابتهم إليه وانشراح صدورهم بالإسلام لـه والاستعانة بـه والاعتماد عليه ، واتخاذه (وكيلاً) عامًا لكل فرد منهم فآمنوا فلَا يَفْجؤُهم الخوف ، واطمأنوا فـلا يَدْهَمُهم الحَزَن ،فهؤلاء هم أولياؤه وهو ﷻ (وليُّهم) ، وقوله قاطع صريح : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62-63].

فجميع ما تضمنته اعتبارات الإيمان على المجلَى الإنسانيّ من تجلِّيات الاسم (المؤمن) ،تُشْعِرنا بجدارته -سبحانه وتعالى- بالحب الخالص والإنابة الدائمة والسعادة الوجدانية الغـامرة وحسـن الرابطة بينهم ~ وبينه ﷻ .

والاستقامة على هذا المبدأ ،الذي **(تتنزَّل الملائكة)** في نوره على كل مؤمن ؛ لتقضي على أسـباب الخوف والحَزَن ؛ وتمنح نفس المؤمن مناعـة وحصـانة، بمثابـة درع تـتحطم عليهـا نِصَـال المِحَـن والهُمُوم .

فالمؤمن دائمًا مطمئن القلب بـذكر (الله) ، الـذي هـو بحبـه سـعيد سـعادة لا يمكـن أن يحـيط بوصفها ، وقد حرَّر -سبحانه وتعالى- وصف المؤمن تحريـرًا مُرَكَّـزًا بقولـه عـزّ وعـلا : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ **[الأنفال: 2]**.

والإمداد بالزيادة في الإيمان لا بد له من مصدر، ولا بد أن يكون هذا المصدر قائم الإمداد مـن الاسم (المؤمن) .

وإذا كان الإيمان يزيد وينقص- كما في **(الحديث)** [28]- فإن نقص إيمان المؤمن لا عـن إمسـاك من فيض اسم (المـؤمن) ، بـل عـن ضـعف اسـتعداد المـؤمن للاسـتمداد ؛ لأن (الله) - تعـالى - هو(الكريم، الرحيم، الرءوف، الحنَّان) .

(28) متفق عليه : **(البخاري)** (7513) ، **(مسلم)** (2786) عن **(إبراهيم عن عُبيدة عن عبد الله)** عـن رسـول **(الله)** ﷺ إلى أن قال : **«وإن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»** .

وكل هذه الصفات عوامل أسمائية مُشْتَركة للإمداد بالإيمان، فهو لا يبخل إذًا، ولكن المؤمن هو الذي يجب أن يفتح جبهة كفاح على الشيطان ؛ حتى يظفر بقهره وتصفو سماء الوجدان من غيوم الأوهام؛ فينشأ حسن الاستعداد المفضي إلى زيادة الإمداد.

وبهذا تتم تلك الحقيقة الكبرى ،ألا وهي توثيق عُرَى الاعتصام بذات (الله) ﷻ اعتصامًا خالصًا لا تشوبه شائبة الاستناد إلى شيء سواه؛ باعتباره – جلّ شأنه – (الفيّاض الكريم) على (القلب السليم) : ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101] .

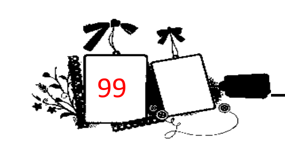
ولعل بعضهم يقول إن (الآية) التي تفيد (تنُّزل الملائكة)عليهم السلام في (سورة الأنفال) : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: 12].. إلخ الآيات ، إنما تتعلق بالتثبيت في القُوى الحربية في ميادين القتال وحسب .

وأقول: من أي ناحية جئت بما يفيد الحصر مع قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: 27]، وهذا التثبيت ملكوتيّ قطعًا، أي متعلِّق بعالَم الملائكة ، الذي هو عالم الأمر الإلهيّ.

ولعَمْري إن التأييد المباشر في ميادين الوغي الحسية في الوجدان، يحار فيها اللبيب بين شئون وشجون وعلوم وفنون ، وبين الباطل ونشوة الحق .

هذه – وأبيك وأبي من قبل – هي المعارك الرهيبة التي لا تنتهي إلا بوضع الأمر على كِفَّتَي ميزان ، فإما الكفر وإما الإيمان ، فماذا في الكفر سِوى الظَّلام الدَامِس في وادي (غَلَامِس) : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

وبناءً عليه يكون الاسم (المؤمن) باعثًا من بواعث تجلِّيات الاسم (النور)، وبهذا الاقتران لزم – رياضيًا – أن يكون الإيمان نورًا وأن يكون الكفر ظلامًا، تُصاب فيه الصدور بمرض (**يُعْمِي البصائر بالعمي والعمه**)،



ويحُول بين المرء وقلبه ؛ فيتركه حيوانًا مدركًا مميِّزًا يتحمل جميع المسئوليات، للوصول إلى نفس الحياة التي تحياها (**الأنعام**) من غير قيد ولا شرط ولا تكليف وعلى أتم وجوه الاستمتاع الجِسْماني والحِسِّي معًا.

فهل يَصِحّ يا أخي – بإنكار الإيمان ونوره الساطع – أن يعتبر الإنسان نفسه حيوانًا مؤقّتًا يتساوى – من ناحية المصير – مع أي يرقة أو دودة ؟!..

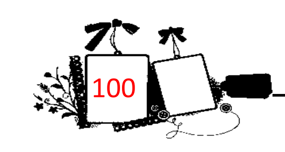
إنك لَتُحِسّ معي أن أيّة (**فلسفة**) تنحو لإنكار الإيمان أو ترد الحياة بتجلِّياتها جميعًا إلى الطبيعة ليست (**فلسفة**) ، وإنما هي محض السفه وتجاهل الوجدان والتعامي عن نواحي الإبداع في هذا الكون الواسع (**مُلْكًا وملكوتًا**)، وهو إعراض فاضح عن جمال الضُّحى في رائعة النهار : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [العنكبوت: 61] .

والزعم الباطل بأن (بارئ) الكون (الأعلى) كان غائبًا ﷻ عندما خلق الإنسان بالمواهب والحواس ومنحهُ السمع والبصر والفؤاد؛ ليجعله مساويًا في ذلك لأتفه الحشرات، إنْ هذا إلا زعم صارخ البطلان يستلزم عدم أهليته للشرح والمناقشة.

و(الله) – تعالى – يبيِّن أن الإيمان استقرار للحياة وانتفاء لبواعث الخِزْي – وهي المنكرات والآثام – واستتباب للأمن وسيادة للسلام في قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا**﴾ [الأعراف: 96].. إلخ (الآيات) .

ويقول ﷻ منوِّهًا بالإيمان: ﴿**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [يونس: 98] .

فأنعِمْ بها من ثمرات إيمانية تكشف غياهب الضلالة وتعيد عناصر الشِّرك والجهالة ، وأنعِمْ به من إيمان أعلن : ﴿ **هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا** ﴾ [الكهف: 44] .



وهو ذلك الأمل الأعلى في إدراك الحياة السرمدية والنعيم الخالد والفردوس الدائم ، في مُلْك لا يتسنى للأحرف ولا للعبارات ولا لسبحات الخيال ولا لسنحات الفكر أن تقع على شيء من تقدير حقيقته : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: 17] .

وما العمل إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الصادق والصبر الواثق ، فأنْعِم بها من عُقْبى !.

فلله دَرُّك يا أخي، أهذا أغنى وأسعد للنفس وأبهى نورًا وأحسن أملاً ، أم ذلك اليأس الحشريّ التافه الهزيل؟! ..

وما أوضحه ﷻ عندما قال حاسمًا : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 265].

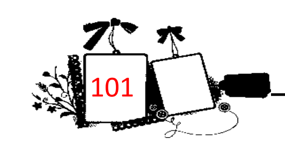
ثم (**قضية الفداء الكبرى**) بينه وبين المؤمنين من عباده، والمنصوص بالعقد التالي : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: 111] .. إلخ الآيات .

ويؤنسنا في هذا المقام قول الحبيب ﷺ :

« لَيْسَ الإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي القَلْبِ وَصَدَّقَهُ العَمَل . وإن قومًا غَرَّتْهم الأَمَانيُّ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلا حَسَنَةَ لهم وَقَالُوا نَحْنُ نُحْسِنُ الظَّنَّ (بالله) وَكَذَبُوا، لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ لَأَحْسَنُوا العَمَل » (البخاري) في (التاريخ) .

ومتى صحَّ قيام الإمداد، كان التوفيق وكريم الإلهام وحيًا مستمرًا إلى المؤمنين ، كما (**أوحى إلى (النحل)**) فهداها لذاتها وحماها : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [**النحل**: 68] .

والامتناع عن الإيمان هو قطع لخطّ الإمداد والإلهام والتوفيق والإكرام ، وهذا – لذاته – جناية على الإنسانية ، وجريمة في حق البشرية .



ومن فضل الاسم (المؤمن) أن يتجلَّى على مجالٍ من المؤمنين ، يضع بين أيديهم مضخَّات من رحمته وعفوه ؛ليطفئ بها ما يُزْكِيه الكفر والتكذيب والأنانية والأثرة من حرب،تستعر نارها ويمتد ضررها وخدرها إلى جميع أطراف المعمورة : ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

ونستطيع بما تقدم أن نلمس الصلة الوثيقة بين الاسمين الكريمين (الرحيم) و(المؤمن) ؛ فإن فيض الإيمان في قلوب المؤمنين إنما هو رحمة حانية عاطفة على أولئك المعذَّبين في وهدة الكفر وعَمَه البصيرة.

فالذين (**عَمُوا وصَمُّوا ثم عموا وصموا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا**) ، إنما يؤهِّلهم هذا كله للمصير الملائم لطبائع مواقفهم ، وما (**جَهَنَّم**) إلا (**أعمالهم تُرَدّ عليهم**) ؛ لأن الإنسان متى تجرَّد من الإيمان كان أشد شراسة من ضواري وحوش الغاب .

والذين يحاربون الإيمان ، يغلقون أبواب الرحمة في وجه الإنسانية،ويرشِّحون أنفسهم لضربة من ضربات الاسمين الكريمين (الجبار) و(المنتقم) ، وأمرهم بأيديهم : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: 26] .

وكذلك: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: 27].

ومن أجل ذلك لزم أن قوة الاسم (المؤمن) ، تهيمن على مجالي الأفعال والتصوُّرات والأخيلة وجميع المدارك ؛ لتنقذها بسلطان العلم من متاته الجهل والضلال في صحراوات الأوهام .

ولكي تنقذ هؤلاء من نيوب اليأس والقنوط والحسرات، فإنها تفتح بابًا واسعًا للذين تعلَّقت آمالهم بالخلود الأعلى،الذي برهنت على وجوده جميع الشرائع السماوية والأدلة الحسية والرُّوحية.

هذا الأمل إنما تنعقد عُرْوته بالقوة التي تنشر سلطانها ؛لتصحح خطأ الحواس والمدارك البشرية والجنية على السواء.

وهذه القوة ذات السلطان العلميّ الشامل هي قوة الاسم (**المهيمن**) .



المبحث السابع المُهَيْمِن

ذلك لأن (المهيمن) هو صاحب الحق الأعظم في السلطان العلميّ؛ ومن أجل ذلك يكون ما سواه غير مُحقّ في أية هيمنة على الشئون والنُّظم والشرائع والكتب ، كما يقول ﷻ عن **(القرآن)** حيال **(الإنجيل)** : ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: 48] .

ومعنى هذا أن ما قرره**(القرآن)** عن **(الإنجيل)** هو الحق التاريخيّ، الذي يستند عليه شمول السلطان العلميّ بصفة العلم، التي هي مصدر حق الهيمنة؛ إذ إن الجهل لا يمكن أن يكون صالحًا لأية هيمنة، وهذا العلم هو السلطان الأعلى في جميع العقائد والأعمال معًا .

ألا تراه كيف يقول سبحانه : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** ﴾ [الرحمن: 33]، أي بعلم؟.

وقد قال –تعالى– وهو يُطَمْئِن **(موسى وهارون)** عند إرسالهما إلي **(فرعون)** بقوله: ﴿**وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** ﴾ [القصص: 35] .

والانتصار والغلبة في الحق،هي الهيمنة باسم هذا (المهيمن) على نظام الحياة ودفع المضارّ عن البشرية ، سواء أكانت مضارّ جسمية أو كانت مضارّ رُوحية .

و(المهيمن) – متى كان سلطان العلم أساسًا لهيمنته – كان اتجاهه دائمًا إلى المنهاج الأقوم ،الذي فيه تتوفر جميع الضمانات لحسن سير الحياةالانسانية، في طريق السلام الآمن والرضاء المطمئنّ والتقدم المستمر والحكم المستقر.

وهذا لا يمكن أن يتم إلا بحق الهيمنة على مَجْرَيَات الأمور من شدة ورخاء ومن قسوة وحنان، وغير ذلك مما يدخل في مجالي الاسم (العليم) ،الذي **(أحاط بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددًا)** .

و(**القرآن**) الكريم (مهيمن) بسلطان الحق العلميّ على ما سواه من كُتب السماء؛ لأنـه الكتـاب الإلهـيّ الأبـيض الـذي (جعلـه نـورًا) : ﴿ **يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [المائـدة: 16] .

وكل خلاف يقع في كتاب من الكتب يكون مرجعه بشريـة الكلـمات، التـي يكتبهـا ويسـجلها الحواريون والكُهَّان بين (**التوراة**) و(**الإنجيل**) ؛ إذ إنه لا تناقض ولا اختلاف إذا كان القول وحيًـا سماويًا منزَّلاً من مصدر واحد .

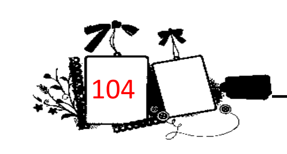
إذًا فمجرد وجود الخلاف يدل على أنه وضع بشـريّ في قراطيس :

﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ [البقرة: 79].

ومن أجل ذلك كان (**للقرآن**) الكريم حق الهيمنة ؛ لأنه موحَى به إلى رجل (**أميّ**) ﷺ لم يَطَّلِـع على الكتب السابقة عليه ، ولا على شيء مـن أنبـاء التـاريخ ولا مـن العُلـوم والمعـارف والحقـائق والوثائق التي وردت (**بالقرآن**) الكريم .

فلزم من هذا ومن وَحْدانية (**القرآن**) أن يكون كلام (الله) تعالى، الذي أنزله عـلى قلـب صـافٍ أبيض لم تخُطّ فيه أقلام البشر ولا خطأً واحدًا، صلوات (الله) ﷻ على صاحب هذا القلب العظـيم ،كـما قـال فيـه سـبحانه : ﴿ **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ** ﴾ [الشـعراء: 193- 194].

فهو – من غير جدال كما اعترف فلاسفة المستشرقين – الكتاب الأوحد الذي تجرّد مـن أوهـام المبشِّـرين ونزعاتهم وميولهم وأهوائهم وطبائعهم .



و لذلك فهو أحق أن يكون المجلَى الفعال لاسم (المهيمن)؛ ليتوجه ﴿ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ من أقرب سبيل إلى السعادة الرُّوحية العليا وإلى الكمال الوجوديّ الأسمى.

وهل تريدني يا أخي أن أقول لك إن (الحق) من حقه أن يهيمن؛ حتى يدفع ثوران الباطل الذي قد يكون ذا أظفار وأنياب، ويكون الحزم أصوب سبيل لوضع حد لطغيان ذلك الباطل.

ولا يتم ذلك إلا تحت سلطان الهيمنة بجميع معانيها؛ ولذلك يقول ﷺ:

« **إِنَّ (الله) يَزَعُ[29] بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ (بِالقُرْآن)**» ؛ لأن مجرد التحريم بالنص لا يكفي لدفع المجرم عن اقتراف الجريمة .

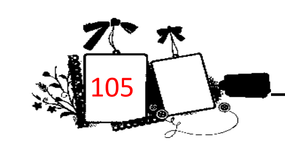
فيتبيَّن أن يكون القائم على أمر (الحق) تنفيذًا وتأييدًا وتبيينًا وتعليمًا وإرشادًا وتوجيهًا (مهيمنًا) على الحُكْم والمحكومين ؛ ليضع لكلٍ حده ويحفظ لكلٍ حقه ، ويطلب لكل ذي حق العمل الذي يترتب عليه هذا الحق وهو الواجب .

فمن أدى واجبه استوجب حقه، وهذا كله لا يتم إلا إذا كان (الحَكَم) (مهيمنًا)، فإن (الله) سبحانه وتعالى هوالذي (**له الحُكْم وإليه تُرْجَعون**)؛ كما قال تعالى : ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: 12].

و هو سبحانه أيضًا (المهيمن) ، الذي يحمي تعاليمه وشرائعه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] ؛حتى لا يتسرب إلى سلامة الوعي وصحة العبارات ونَسَق (**الآيات**) أي أثر من آثار الوضع البشريّ : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

وذلك لأنه ﷺ كان (مهيمنًا) على (**كُتَّاب القرآن**) ~ ؛ حتى لا تَزِلَّ أقلامهم ولا تضل أهواؤهم عناية لكلامه ورعاية لحسن إلهامه ، واختصهم بقوله : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [النساء: 141]

(29) يزع : يدفع، و(الحديث) ورد في (أخبار المدينة لأبي زيد البصري) رواه (الفاكهيّ) .



فلولا أنه كان – جلَّ شأنه وعزت مشيئته – (مهيمنًا) على مشاعرهم وحواسّهم عند تدوينه ضد الأنانية ونزوات الغريزة ،لتدخَّلت أهواؤهم ومنافعهم ولبدَّلوا تبديلاً ، ولكن العناية الإلهية تعهدت بحفظه ونفَّذت تعهداتها بوصفه تعالى (مهيمنًا) على الوحي .

وإذا عنَّ لسائل أن يسأل : ألا ترى في هذه الهيمنة نوعًا من الإملاء القسريّ ، يغلب اختيار (**كُتَّاب الوحي**) ~ وكتبته ؟.

ونُجِيب عن ذلك بأن وحي الإلهام لا يكون قسريًّا، بل هو انبعاث بالإلهام للخير، كما (**أوحى ربك) إلى النحل**) لتعمل لذاتها ولسواها في غير قسر ولا إكراه،فهكذا كان (**كُتَّاب الوحي**) ~ الداعون المؤمنون،يحبون عملهم هذا ويباشرونه في فهم ووعي وإقبال، يدفع كل شبهة من القسر المزعوم ،وإنما هو مجلى (المهيمن) في الحواسّ لقوة الإلهام لا لقوة الإكراه .

لأن الفيض من السماء على(**الأرض الهامدة**) لا يكون قسريا على الأرض: ﴿**فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ**﴾ [الحج: 5] ولا يكون ذلك رغمًا عنها ، بل هو من ثَمَّ طلبها ووجه هواها ونور هداها .

فهكذا كان (**الوحي**) غيثًا على قلوب الذين يحبونه والذين يقرأونه والذين يسمعونه، (**أحيا موات قلوبهم فأنبتت من كل زوج من المعاني بهيج**) ،تنفسح له صدورهم وينير لهم السبيل في طريق المعرفة ، وكل هذا صادر من فيض (المهيمن) المُلْهِم ﷻ .

ولا غرو فقد قال تعالى : ﴿ **سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ**﴾ [الرعد: 10-11] ، أي أن هذه (**المعقِّبات**) من القُوَى الملكوتية من أمر (الله) تعالى وهو عالم (**الملائكة**) ، مَنوط بهم حفظ هذا الإنسان ، لا بمعنى الحماية المادية الجسدية ، وإنما الحفظ من الشرور الرُّوحية والفتن الجنية والمعنوية.

فإن كثيرًا من (**الشهداء**) قُتِلوا ، وكانت شَهادتهم رفعًا لمكانتهم مع (**النبيين والصالحين**) عليهم السلام أجمعين ، و(**حسن أولئك رفيقًا**).

وهكذا تكون رسالة تحرير (**القرآن**) مصونة أيضًا بنطاق من الحفظ ، فيكون ذلك طباقًا لقوله تعالى : ﴿**وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**﴾ [**يوسف**: 12] ، بـ(**حَفَظَة**) منصوص عنهم .

كما أن إسناد الوفاة إلى (**عزرائيل**) مَلَك الموت عليه السلام مجاز وإسنادها إلى (الله) حقيقة ، و(**القرآن**) يجمعها في الآيتين : ﴿**قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ**﴾ [السجدة: 11] ثم الآية : ﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾ [الزمر: 42] وكذلك قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ**﴾ [الأنعام: 61] .

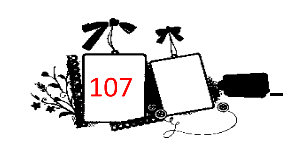
ومتى صحَّت في قبض الأرواح، صحت في الحفظ الرُّوحانيّ ،كما تصح نسبة الإسناد المجازيّ إلى (**ميكائيل**) عليه السلام في مقادير الرزق .

فإن الإسناد الحقيقيّ هو إلى (الله) عز وجل بالنص: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ**﴾ [**الذاريات**: 58] ، وهكذا في جميع العوالم الملكوتية والكونية : ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ**﴾ [**المدثر**: 31].

وهذا يقتضي تجلِّيات الاسم (المهيمن) سبحانه وتعالى ؛ ليحُول بين البشرية وبين التردي في حمأة الميول والأهواء : ﴿ **وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ** ﴾ [المؤمنون: 71].

فلزم أن يكون لسلطان العلم وفي نور الرحمة حق الهيمنة على مَجْريات الأمور واختلاف الشئون ؛ لضبط الميزانية العملية للكل الطبيعيّ المملوك لمن (**بيده مقاليد السموات والأرض**) ؛ لأنه هو (**الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**) .

وربما عنَّ لقائل أن يقول : إن هذا كله صادر من الاسم (القدير) ومن تجلِّي صفة القدرة، ونحن نقول : إن مجرد القدرة شامل لكل فعل من الأفعال التي لا بد لظهورها من قوة ، ولا قوة إلا (بالله) .



ولكن معيار الاعتبار هنا هو الحق العلميّ صاحب السلطان التوجيهيّ والحكم المُطْلق ، الـذي تقوم على أساسه قوة الهيمنة من تجـلِّي اسـم (المهـيمن) ؛ لأن القـدرة المجـردة مـن شـأنها أن تـبرز متعلَّقات صفة العلم القائمة بذات (العليم) وهـو الاسـم الجـامع لمـن ضـل أو اهتـدى؛ فيكـون الاستناد إلى مجرد القدرة في الإبراز والخلق والتكوين استنادًا إلى غير مُستَنَد .

و متى كنا بصدد ذكر معنى الاسم (المهيمن) ، فإن القدرة ذاتها والاسم (القادر) من بين جنـود الاسم (المهيمن) ؛إذ لا يمكن أن تقوم هيمنـة بغـير قـدرة، أو أن يكـون (مهيمنًـا) إلا إذا كـان في الأساس (قديرًا) .

وعليه فلا محلَّ للمجادلة بشأن مفهوم الاسم (المهيمن) ؛ حيث اتضح أن الهيمنـة هـي سريـان نفوذ السلطان العلميّ على جميع المقدورات ، التي خصَّصـتها الإرادة، التـي هـي صـفة (المريـد) ، وأبرزتها القدرة التي هي صفة (القادر – القدير) ﷻ .

ومن لطائف الاسم (المهيمن) علاقته بأمن الآمنين واطمئنان قلوب المـؤمنين ؛ حيـث يبـين أن أحدًا من الجن أو الإنس بل ولا من الملائكة يستطيع أن يُخْرِج حركة الوجود عن ناموسها الكـونيّ الثابت ليتدخل في مصائر الكائنات ؛ وذلك لقيام سلطان الهيمنة الإلهية على جميع مجْريات الشـئون والأحوال ؛لذلك نراه – سبحانه – يقول : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] ولولا أن المذكور هو (المهيمن)،الذي لا يغلبه غالب ولا يُفْلت من قبضته هارب ، لولا الإيـمان بهـذا مـا هجعت عين ولا (اطمأنَّ قلب) .

ولذلك يقول ﷻ : ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية:37] .فما من حركة ولا سكون ولا حياة ولا موت ولا فناء ولا بقاء ولا إمداد ولا إسناد،إلاوهو سبحانه وتعالى المنفرد به بوصف كونه(المهيمن) ،(الذِي وَسِعَ كُل شَيءٍ عِلمًا وَأَحْصَى كُل شيءٍ عددًا)بالنص المنصوص .



وهو سبحانه القائل :﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:84 – 89].

ولهذا يتبيَّن ما بين الأسماء والصفات وتجلِّياتها على مجالي الوجود من ترابط وتعاون، قائم على وَحْدانية الذات المتصفة بهذه الصفات ، والمُسَمَّاة بهذه الأسماء (**وله الأسماء الحسنى**) ؛ وهذا هو سر عزته تعالى .

وهو المدخل اللائق إلى الاسم (**العزيز**) .



المبحث الثامن العَزِيز

وهذه العزة ليست كعزة الحوادث ، فهو ﷻ مخالف للحوادث كما نصَّ عليه في الصفة الرابعة، ولكنها عزة على العقول والمدارك؛حيث لا تُنَال بإمعان النظر ولا بإنعام الفكر ولا بإرهاف الحس، كما نقلنا من قبل عن (عليّ) كرم (الله) وجهه[30].

وعجز المدارك عن الوصول إلى إدراك أسرار هذه العزة هو الذي أوحى إلى (**أبي بكر الصديق**) ÷ أن يقول كلمته المشهورة:

«**العجزُ عن دَرْك الإدراكِ إدراكُ**» .

وعلى هذا قال أحد الشعراء:

(لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلَا تَخْفَى عَلَى أحدٍ	إِلَّا عَلَى أَكْمَهٍ لَمْ يَشْهَدِ القَمَرَا
لَكِنْ بَطِنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُسْتَتِرًا	وَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِالعِزَّة اسْتَتَرَا)

هذه هي العزة العصماء بالاسم (العزيز)، الذي عز وعلا وجل عن أن يحيط به سواه .

وقد اقترن اسم (العزيز) بالاسم (القويّ) في تجلّيات الاسم (اللطيف) في قوله سبحانه وتعالى : ﴿**ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ**﴾ [الشورى: 19] ، فالاسم ﴿**ٱلۡعَزِيزُ**﴾ في هذه (**الآية**)،مؤيَّد بالاسم ﴿**ٱلۡقَوِيُّ**﴾، وكلاهما عاملان للاسم ﴿**لَطِيفُۢ**﴾.

وهذا تعانُق جميل، يظهر أثره دائمًا على مجالي هذه الأسماء في الُّلطف الخفيّ ، الذي يدبِّر به أرزاق الكائنات، التي خلقها في (**السموات والأرض**) وفي أعماق البحار وفي جو السماء ، وفيما لا يعلمه سواه استنادًا إلى أنه (القادر) مالك القدرة : ﴿**وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ**﴾ [الزمر: 67] .

(30) انظر : خطاب (**الأشباح**) من كتاب (**نهج البلاغة**) ص83.

و قد تركزت كل هذه المعاني فكونت تاجًا متألِّقًا،تجلَّى به مفرِق الاسم (العزيز)، وأظهرت سُمُو عِزَّته ومناعة رفعته عن الإحاطة أو(**الإدراك**) وعن جميع القيود، حتى عن قيد الإطلاق في جميع الحدود بين الأرض والسموات:

أَيْنَ يَمْضى بِنَا الكَلامُ وَأَيْنَا ... أَثَرًا فِي الوُجُودِ أَوْ كَان عينا

إِنَّه أَمْرُ الوُجُوْدِ فَوْقَ مَدَى الفِكْرِ ... إِذِ الفِكْرُ فِيْهِ يُصْبِحُ غَيْنَا (31)

وَلِهَذَا نَرَى مِنْ الشِّرْكِ أَنْ نَرْسُمَ ... خَطًّا وَالضَّوْءُ قَدْ صَارَ عِهْنَا (32)

* * * *

أجل إنها عزة تَجِلُّ عن الإدراك ؛ لأن بلوغ المدارك مداها ينافي عزتها ؛ ذلك لأن هذه المدارك لم تستكمل ما يؤهلها لإدراك معنى العزة ، على أن كل نفس تستطيع أن تفهم معنى العزة عند الناس .

وفي مفهوم اللغة أن العزة هي المناعة والرفعة والحصانة من الأذى، وقوة الجانب وامتداد النفوذ .

ورأى الإسلام : ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء:139] ، وكذلك يسندها ﷻ للتابعين ~ بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]،ومافيه يظهرإثبات المعنى الاشتراكيّ في مفهوم الكرامة،وهي حق مُطْلَق لكل السلالات الآدمية على سطح الكرة الأرضية .

وتَبْرُز الكرامة من مُقتضيات تلك المزايا، التي حبا (الله) بها بني (آدم) ، والتي يؤَلِّف مجموعها المعنى المتبادَل للعزيز من البشر، ولكنه ﷻ أعلن ملكيته الخاصة للمفهوم المطلق من لفظ العزة ؛ حيث قال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10] .

(31) **غينا** : تكهنًا لا حقيقة ثابتة .

(32) **عهنا** : صوفًا مصبوغًا دلالة على الظلمة الحالكة .

وهنا نلمح معنى ساميًا ، وهو أن كل عزة في الحق تبدو على (قلب سليم) أبيض الصفحة ، إنما تكون تجلّيًا من تجلِّيات الاسم (العزيز) .

وقد منح الناس حق هذا التجلِّي عندما قال : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 26] .

ويكون الحاصل أن مقام الاسم (العزيز) كمقام الاسم (المؤمن)و(القادر) و(الملك)، وغير هذا من الأسماء ذات المجالى الاشتراكية بين الناس كاسم(الرءوف) وكذلك اسم (الرحيم) ، وهكذا كذلك كان اسم (العزيز) مصدرًا لكل عزة، كما كان اسم (المؤمن) مصدرًا لكل إيمان .

فنحن إذًا نرقُب المجالي لنعلم أي اسم من الأسماء يتجلَّى فيها ، فهذا تجلِّي (الرحيم) عند الرحماء ،كما قال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29] ، وهذا هو تجلِّي (الجَبَّار) في جبروته وبطشه بأعداء رحمته وخصوم لطفه ومودته.

فإذا اختلف المفهوم بين الرحمة والجبروت، فإن هذا الاختلاف لا يقدح في وَحْدة ذات (الرحيم- الجبار) بلا زمن.

وإليك نفسك مثلاً حاضرًا فأنت في مناسبة تعطي وترحم ، وفي أخرى تمنع وتقسو، وأنت أنت في كلتا الحالتين على اختلافهما .

وهكذا تتاح الفرصة لأصحاب البصائر أن يطالعوا ببصائرهم ما يطالعهم به سِفْر الوجود وكتاب الحياة ؛ ليعلموا أن (المَلِك) الأعلى (**سبح اسم ربك الأعلى**)، الذي تولى خَلْق وتكوين وتنظيم وإتقان وصنع وإبداع كل شيء،هو في ذاته- من ناحية الإدراك والماهية- عزيز المنال .



وفي هذا قال بعض الشعراء:

(والله) مَـــــــا (مُوْسَـــــــــى) وَلَا	(عِيْسَـــــى) المَسِـــيحُ وَلَا (مُحَمَّـــدْ)
عَرَفُـــــوا وَلَا الـــــنَّفْسُ البســـــــ	يـــــطةُ لَا وَلَا الـــرُّوحُ المُجَــــرَّدْ
كَـــــلَّا وَلَا (جِبْرِيْـــــلُ) وَهُـــــو	إِلَى مَقَـــــام القُـــــرْبِ يَصْـــــعَدْ
مِـــن كُنْـــهِ ذَاتِـــكَ غـــيرَ أَنَّـــكَ	(أَوْحَـــدِيُّ) الـــذَّاتِ سَرْمَـــدْ[33]

* * * *

وها أنتذا أيها الأخ الكريم قد أوفيت بعض ما أنعم بـه (الهـادي- الكـريم) علينـا،من تجلّيـات اسمه (العزيز).

وهذا ما قد يحدو بنا أن ننتقل إلى ميادين الاسم **(الجبّار)**



(33) سرمد : أبديّ .

المبحث التاسع الجَبَّار

وهو من الأسماء الحسنى، ومعناه في اللغة ماضي المشيئة شديد البطش.

وهذا لا اختلاف فيه إلا من ناحية اسم (القهار)، فهما صِنْوان من ناحية نفاذ المشيئة ، ومعناها الإرادة طبق ما تعلق به العلم الأزليّ ، كما تبين من حديثنا عن صفة العلم في ثنايا هذه الرسالة .

ويبدو أن الجبروت من البشر يوصف بوقوع مشيئة (**المُتَجَبِّرين**) رغم أنوف الذين تقع بهم هذه المشيئة،مجبورين على قَبُولها (**طوعًا أو كَرْهًا**) ؛ ولذلك قرر حق الاشتراك في الاسم (الجبَّار) ، حيث وصف بعض عبيده بقوله : ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾ [الشعراء: 130].

ولكن المعنى على ما هو عليه الآن لا يمكن أن ينطبق على (الله) سبحانه وتعالى ، فلزم أن يكون هذا الاسم بمعنى النافذ المشيئة ،الماضي حكمه، الواقعة إرادته ،الذي لا مستكرِه له، فهو (**يُجْبِر ولا يُجْبَر ويُطْعِم ولا يُطْعَم**) .

وكذلك نستطيع أن نرى مجالي هذا الاسم (الجبَّار) في ميادين الوغي، وفي أفنية المصانع التي تصنع آلات الدمار: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: 102] .

وهو سبحانه –وإن أطلق اسم الجبروت على المَرَدة من عبيده فإنه– نفاه عن الأصفياء ~ من عباده، وعلى رأسهم مُصْطَفَاه ومُجْتَبَاه (**محمد**) ﷺ حين قال له: ﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ [ق: 45].

فلا يحق لمؤمن أن يكون جبارًا إلا في حالة واحدة وهي سبيل الحق ، فهو جبار في ميادين الوغى، قهار في ساحات القتال : ﴿**إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾ [الأنفال: 12].

ذلك لأن الجبروت في وجه الباطل مَحْمَدَة من أَجَلّ المحامد ،حينما تكون في مواجهة أعداء ناصَبُوا (الله) العداء ؛ حتى تجبرهم -إجبارًا- على الاستقامة أو تطهِّر الأرض من جرثومتهم .

فلا يحل لمؤمن أن يكون جبارًا إلا في هذا المقام،وفي سبيل الحق المجرد،لا مع الأهواء ولا نزوات النفوس .

فإذا فعلنا ذلك في الحروب الإسلامية و(**قطعنا دابر الذين ظلموا**)، فإن هذا ليس إلا من تجلِّيات الاسم (الجبَّار) على أيدينا ؛ لقوله تعالى : ﴿**قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ**﴾ [التوبة: 14- 15] .

وهذا لعَمْرُك (الله) أوفى ما يمكن أن يكون تأييدًا لاسم (المهيمن) وتوكيدًا لاسم (العزيز) .

ولهذا قال أحد الشعراء من شعر الحكمة :

(فَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ[34] إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا)

وهكذا يكون الاسم (الجبَّار) درعًا واقية لسريان الرحمة الإلهية ؛ لأن القتل أتقى للقتيل؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة: 179] .

والحدود حقوق إلهية،يجب ألا تتخللها لمحات من تجلِّيات الاسم (الرءوف) لقوله تعالى : ﴿**وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ**﴾ [النور: 2] ؛ لأن الرأفة لا تقع في مجلىً من مجالي الاسم (الجبَّار)، وللعقل أن يعلن عجزه عن إدراك الحكمة في وقوع الجبروت من ذات (الرحيم) .

ولكن نقول لهذا العقل : بماذا تشعر في نفسك عندما تجد قومًا أعلنوا غزوة دامية على قبيلة هاجعة آمنة ، فقتَّلوا الرجال والأطفال وسَبُوا النساء واستولوا على المتاع وأهدروا كل الحقوق؟!.. أيها العقل بماذا تشعر حينها؟..

(34) **حلم :** عقل مستبصر وصفته الحليم .

وما هي السبيل التي ترى أن تسلكها لشفاء نفسك وذَهاب غيظك ؟ .. ألا ترى أنه لا تتم طمأنينة النفس ولا تُحل عقدة الضمير، إلا بالقِصاص (العدل) من هؤلاء القساة الغزاة والتنكيل بهم جراء ما اقترفوا من الآثام ؟..

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: 84].

وقد فرغنا من أن هذا لا ينافي أنه ﷻ بذاته (الرءوف) (الرحيم) (الودود) ، ولكن حكمته تجعل تجلِّيات الأسماء **(صدقًا وعدلاً)** في مواضعها المختلفة ؛ حيث لا يُظلَم أحد **(فإنما هي أعمالكم تُرَدّ عليكم)** .

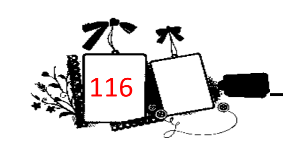
وهو ﷻ على صراط مستقيم ، كما قال عن نفسه : ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56] ، وكما قال : ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: 53].

وسوف يتضح لكل من ينظر في مجالي الاسمين (الحَكَم – العدل) معنى هذا الموقف ، وحاشا (لله) – عز شأنه – أن يكون وصفه بالجبروت وصفًا مساويًا لما وَصَف به **(الجبارين)** من عباده في حالة الكفر أو الطغيان .

بل إن جبروته – تعالى – إنما هو لدفع جبروت خلقه في حال البَغْي والاعتداء على حياة الآمنين ، وهو ﷻ يحب لعباده حق الحياة ويدعوهم للعدل ، الذي تستقيم معه مَجْرِيات الأُمور : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [**البقرة**: 179] ؛ لأنه القوة الرادعة من الظلم والتمادي في الإضرار والإساءة .

وبهذا يكون الباعث الأساسيّ لتجلِّيات الاسم (الجبَّار) هو الاسم (الرَّحيم)،في مقابلة رائعة بين (صفات الجلال) و(صفات الجمال) : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: 40] .





ويُلاحَظ أنه متى كان منفردًا بالعزة ، كـان مـن حقـه ﷻ أن ينفـرد بـالجبروت،الـذي هـو أول مظاهر القوة .

فهو- جل شأنه- يغضب أن يجد لذاته شريكًا في (**مقـام الجـبروت**) ؛ ولـذلك لعـن الجبَّـارين وأورد جبروتهم في مصافّ اللعنة ، وهو الذي يسميهم (**المُتَجَبِّرِين**) تطبُّعًا وكسبًا وليسـوا جبَّـارين بالطبع والذات .

وحاشـا (لله) سـبحانه – وهو(الجبَّـار)(القهـار) (القـويّ) – أن يشـاركه أحـد في صـفة مـن صفاته،إلا بالقدر الذي تمنحه مشيئته ﷻ ويتعلق به علمه الأزليّ .

ثم إنه – تعالى- (المتكبر) ولا يقال المستكبر، والذين يحاولون أن يشـاركوه كبريـاءه ملعونـون أينما ثُقِفوا ،تمامًا كما لُعِن الموصوفون بالجبروت سواءً بسواء.

... وهنا يمكن أن نجد المدخل الأوفى إلى الاسم (**المتكبر**) .

سلطان

المبحث العاشر المُتكبِّر

وهو في اللفظ (المتعالي) عمن سواه، ولكن هل هذا الاسم في مفهومه ومُسَمَّاه وحدوده، معناه بالنسبة لذات (الباري) – سبحانه وتعالى – بهذه المثلية؟والجواب: حاشا وكلا.

لأنه –سبحانه– قرَّر وَحْدانيته في مقام الكبرياء ؛ ليكون ذلك رادعًا لأولئك الذين تحدثهم أنفسهم بالكبرياء ؛حيث قال عن كبرياء ذاته ﷻ : ﴿**وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ**﴾ [الجاثية: 37] .

وعن (**المتكبِّرين**) الذين يحاولون مساواة (الله) ﷻ في أخصّ صفاته قال تعالى: ﴿**أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ**﴾ [الزمر: 60].(1)

وإنما نفهم معنى (المتكبر) في رضاه عن عباده ، الذين يَخْشَوْنه وحده – (**ولا يخشون أحدًا إلا (الله)**) – وجعلهم أقرب ما يكونون منه عند الذل له والتضرع إليه والسجود بين يديه، والشعور بالخشوع التام والمهابة الكاملة والجلال الرهيب والجمال المهيب لحضرته ﷻ .

فكلما كانوا في هذا الموقف في محرابه،كانوا أقرب إليه من أي موقف سواه، كما يقول الحبيب صلوات (الله) وسلامه عليه:

« **أقربُ ما يكونُ العبدُ من (ربِّه) وهو ساجد** » .

فلا سجود إلا (لله) مهما تكبر المتكبرون :﴿**فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ**﴾ [النحل: 22-23].

وليست صفة الكبرياء بالنسبة لذات (العليّ- الكبير) شيئًا متحِّولاً له ﷻ ، بل هو مُقْتَضَى كمال قدرته وإحاطة علمه وشمول قوته وعظمة عرشه.

فالاسم (المتكبر) هو اسم اقتضائيّ لذات (الكبير) جل شأنه وعز جاهه، كما أن العلياء -له تعالى- من مُقْتَضيات الاسم (العليّ) ، والعظمة من مقتضيات الاسم (العظيم) وهكذا.

فكلما علمنا أنه (المتكبر)،أمْعَنَّا في التضرع بين يديه واتخاذ الخشوع في العبادة لكبريائه أقرب وسيلة إليه، نبتغي إليه الوسيلة بالعَبَرات ونلتمس رضاه بالدعوات، فهذا هو المقام الذي يُعَد التجلِّي المباشر لتجلِّيات الاسم (المتكبر).

وعلى هذا نستطيع أن نفهم (**الحديث القدسيّ**) الذي أشرنا إليه على ما هو عليه، فعندما يقول (رب) العزة:

«**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قصمته**» ، نفهم تمامًا إشارات الآيات البَيِّنَات في توعُّد المتكبِّرين والمستكبرين،من دون صاحب الكبرياء و(مالك المُلْك) سوء العذاب،كما في سورة (**الأعراف**) : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [**الأعراف**: 40] أي أبواب الرحمة والغفران.

وكما جرى العُرْف بين المسلمين قولهم عند كل أذان يُسْمَع فيه تكبير اسم (الله) تعالى ،أن يقولوا :

«**إن العظمة والكبرياء (لله) وحده**» .

وها نحن أُولاءِ قد أشرفنا بك أيها الأخ المؤمن على عظمة المقام للاسم (المتكبر)، وهو تمهيد جدير بالانتباه لذكر مجالي الاسم (الخالق).



المبحث الحادي عشر الخَالِق

وقد ورد في (**القرآن**) الكريم،ما يدل على جواز إطلاقه ليس فقط بالاشتراك على ما يبتكره الناس أو يخترعونه،بل على ما يفترونه كذلك، كما قال تعالى: ﴿**وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**﴾ [العنكبوت: 17].

ويبدو أنه المخلوق الأوحد الذي لا يخلق الناس سواه؛ لأن (**الإفك**) من الأسماء العدمية، فلا مفهوم ولا مسمَّى للافتراء أو الكذب؛ لأن من لوازم كل منهما العدم ولا حقيقة لدى المفترِي ولا الكذَّاب، وحيث انتفت الحقيقة وثبت البطلان لزمت العدمية.

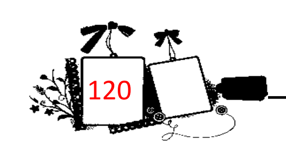
أما فيما يتعلق بالابتكار والاختراع،فإسناد كل منهما إلى المبتَكِر أوالمخترِع إسناد مجازيّ؛ لأن كلاً منهما داخل في نطاقه تجلِّيات الإلهام الإلهيّ، فهو سبحانه وتعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [الزمر: 62].

وإذا كان خلق الإنسان – ذلك المخلوق الذي أَسْنَد إليه (خالقه) الأعظم إدارة و(**إعمار الأرض**) – خلقًا لا يشوبه نقص ولا يعيبه عيب :﴿**الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرحمن: 1-4] ، فإنه تعالى يقول: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾ [غافر: 57].

وليس العدم شيئًا؛ ولهذا استحال تعلُّق قدرته ﷻ بالمستحيل، كما قدَّمنا عند ذكر متعَلَّقات صفة القدرة ودخول (**الجمل في سم الخياط**).

وعلى هذا يمكن أن نفهم أن (الخالق) ﷻ هو منشئ الكائنات ابتداءً على غير مثال سبق.

وهو (البارئ) بهذا المعنى؛لأنه خلقه لا عن رؤية ولا تفكير، بل جرت قدرته في مُتعَلَّقات علمه، فبرزت المخلوقات المعلومات،وكل ذلك المتعلَّق في غير زمن؛ لأن (**البرء**) هو مجرد الخلق والإنشاء في غير زمن.



وبذلك اقترنت تجلِّيات الأسماء: (الخالق البارئ المصور) اقتران التلازم والاقتضاء، فإن (**الصور**) إنما تتعلق بالمصوَّر، وهو المخلوق الذي أنشأه (الخالق) (البارئ) (المصور) على الصورة التي قال عنها في كتابه: ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ [غافر: 64]، وفي قوله: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: 6].

وبهذا ظهر التلازم الاقتضائيّ بين تجلِّيات الأسماء الثلاثة اقترانًا،بحيث لا ينفكّ أثر أحدها عن أثر الآخر.

وهذا يعطينا طيفًا يمر بالإدراك عن عظمة ذلك المُلْك الشاسع اللانهائيّ، الذي هو أثر للاسم (الخالق) ؛ حيث انتقل من عالم (**البُطُون**) وقوة الاسم (الباطن) إلى حيز (**الظُّهُور**) من تجلِّيات الاسم (الظاهر).

وهو سبحانه يقول: ﴿ **وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ [الأنعام: 13]، كما أحاط بكل متحرك وساكن: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ [الحديد: 3].

وقد ورد الاسم (الخالق) في أحد عشر موضعًا من (**القرآن**) الكريم، حيث يقول تعالى : ﴿ **ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ [الأنعام: 102] ، وهو –سبحانه– القائل لرسوله × ردًا على المشركين الجاحدين : ﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾[الرعد: 16]، وهو الذي قال في الخلق الأول : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**﴾ [الحجر: 28] ، ويتدرج – سبحانه– في وصف خلق الإنسان: ﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: 14] درءًا للشرك والإلحاد ، وهو ﷻ القائل للناس: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** ﴾ [فاطر: 3] .

ثــم هــو لا شريــك لــه القائــل: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الحشـر: 24].

وكل هذه الآيات الكريمات البيِّنات تقودنا للبحث المتعمق، وللتحري في مقام تجلِّيـات الاسـم (المَلِك) ومُقْتَضياته.



المبحث الثاني عشر تجلّيات الاسم (المَلِك) ومُقتضياته

وهو ﷻ القائل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1].

والمفهوم من معنى ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ في اللغة، سلطان الحكم والتقنين والتشريع والتحليل والتحريم والجزاء ثوابًا أو عقابًا، وكل هذه المعاني في الواقع إنما هي جزء مما يتضمَّنه معنى الاسم (المَلِك)، وقد تجلَّى هذا المعنى في قوله تعالى في (**فاتحة الكتاب**) : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: 4] ، وفي قوله سبحانه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [آل عمران: 26] .

مما يجعل إسناد المُلْك إلى سواه تعالى إسنادًا مجازيًا؛ لأن (المَلِك) في الحقيقة يجب أن يكون مالكًا لما سواه مِلْكًا خالصًا مُستَمدًا له من ذاته، وهذا هو الوجه الملحوظ من قراءة (حَفْص) لآية :﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: 4].

فالقراءة التي تقول: ﴿مَلِك﴾ إنما تعني سلطان الحكم، وما بيَّنا من قبل من قراءة (حَفْص) إنما تفيد ما بيَّناه أخيرًا من تمام مِلْكِيَّة (المَلِك) لكل شيء سواه مما بَرَأه وسوَّاه، وهذا هو الذي يجب أن يكون ملحوظًا في سريان قدرته تعالى في كل قادر، وحكمته في كل حكيم وبصره في كل بصير .

وهكذا نجد استغراقًا كاملاً لكل كائن في غيوب وشهادات الاسم (المَلِك) لأنه متعلِّق بالاسم (الظَّاهر) بوصف (المَلِك).

و(للظاهر) مقهورون هم (**عباده**) إذا آمنوا و(**عبيده**) إذا كفروا.



على أن كل شيء في السموات والأرض وما لا يعلمه سواه مُذْعِن لعبادته بالذات، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: 15]، وقوله سبحانه : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر: 1] عن الأشياء غير العاقلة، وقوله جل شأنه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44].

ويؤنسنا قوله ﷻ في إثبات علياء عرشه العظيم : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 18].

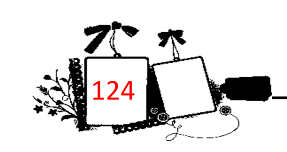
ومن ثَمَّ نراه لا نهاية لعلمه و(**لامعقِّب لحكمه**) ولا قدرة لأحد على الخروج من قبضته، كما أعطانا في كتابه بهذا دليلاً : ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان: 28].

على أن قومًا رأوا أن كلمة « **ما سوى (الله)** » هي أيضًا من الأسماء العدمية، ولكن هذا القول يتوجه إلى نظرية «**الكل الوجوديّ**»، بينما نحن هنا في هذا المقام في مشاهد «**الكل الطبيعيّ**» وشتَّان بينهما.

فإن الأوَّلين في مقام فنائيّ مُجرّد، يكون فيه الشاهد عن المشهود والعابد عن المعبود، وهذا شطط لا يمكن أن يكون في قلب سليم.

فنحن وإن كنا نعلم أننا أعدام مقدرة ولكنها مشيئة، ومتى شاءتها الحكمة لزم متابعة مشيئة الحكمة؛ لنميز السيد من العبد والطيب من الخبيث والهُدى من الضلال إلى غير ذلك مما لا يتناهى من المشاهد والتجلِّيات، لا كما يقول بعض (المتصوِّفة) مما يغلب على الظن أنه متحوِّل إليهم محسوب عليهم؛ لأن هذه الشريعة - هي بذاتها - أمر؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: 18] .





وهم يزعمون أن ما هم عليه حقيقة، والحقيقة عندهم غير الشريعة.

ولا أدري أهي حقيقة بغير شريعة أم شريعة بغير حقيقة، ولكن الغالب أن الذين تورّطوا في بحث وَحْدة الوجود إنما اندفعوا إليها وراء خطوات ظهرت في (**المدارس الإغريقية**) لأول مرة على أيدي فلاسفة من أمثال (**أنكسماندر**) وغيره، وهي بحوث فلسفية مجرَّدة عن الوحي غير متأثرة بشيء سوى الطبيعة والعالَم الفيزيقيّ الماديّ المُجرَّد، ولم يكونوا قد آمنوا بما وراء الطبيعة، كما آمن (**سقراط**) و(**أرسطو طاليس**) و(**فيثاغورس**) و(**أفلاطون**) أخيرًا، لكن الإسلام قطع دابر تلك الرِّيَب وأعطى جواب الحيرة على حقيقة الحقائق؛ حيث قال تعالى : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: 11].

وبذلك تعينت (**شيئية الثبوت**) قبل أن تتعين (**شيئية التكوين**) [35]، فزعم هؤلاء أنهم أهل الحقيقة وأن (**محمدًا**) ﷺ هو صاحب الشريعة، وهو قول يدل دلالة صارخة صريحة على أنهم كفروا بـ (**محمد**) ﷺ ، وأنكروا عليه علمه بالحقائق التي زعموا أنهم – وحدهم – أهلها، وأطلقوا على أنفسهم لقب (**أهل الباطن**) وقالوا إن (**محمدًا**) ﷺ هو من (**أهل الظاهر**) فقط، وبهذا انقطعوا عنه تمامًا وخرجوا عن طاعته بمخاريق يصطنعونها، تحوي من الجرائم ما لو شئنا حسابهم عليها لقالوا لنا إن مَثَلنا معهم كمثل (**الخَضِـر**) عليه السلام مع (**مُوسَى**) عليه السلام فأنت تسميها جرائم وهي في حقيقتها مكارِم، ولا يَعْرِفون نظامًا يُوحِي لهم ما يسمونه شعرًا، وهو إليك واضح الزندقة والزَّيغ كقولهم:

---

(35) راجع كتاب المؤلف ' المعنون (الكتاب المكنون) ويتناول قضية الثبوت والتكوين ، لإثبات أن الشيء الذي تتوجه إليه إرادة التكوين إنما هو المتعلق بشيئية الثبوت عن العلم الأزليّ السابق على شيئية التكوين ؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82]



(إِذَا مـا رأيـتَ (الله) في الكُـلِّ فـاعلاً رأيــتَ جميــعَ الكائنــاتِ مِلاحَــا
وإن لم تَــــرَ إلَّا مظـــاهرَ صُــــنْعِهِ حُجِبْـتَ فَصَــيَّرْتَ المِـلاحَ قِبَاحَــا)

وهذه الرَّكاكة[36] تحمل بين طَيَّاتها الإنكار الباتّ بجميع الشرائع والقوانين والنواميس الكونية وطبائع الأشياء، وهي إباحيَّة سافرة[37] متخلفة عن جميع القيود، مُنْحلّة عن جميع الأخلاق والقيم والحدود والحقوق، وهم أشد لعنة من (الجَبْرِيِّين) ومقتًا؛ فحديثهم هُراء وغناؤهم عُواء و(**أفئدتهم هواء**).

و(المَلِك) هو النافذ الأمر في مُلْكه، وقد يوجد مَلِك لا يملك إلا بالحُكْم، ولكنه -تعالى- (المَلِك) الأوحد والفرد (**الصمد**) الذي يملك بالذات وبالحكم، و هو القوة القائمة على كل نفس بما كسبت، وذلك لا ينحصر في الأرض، بل له (**مُلْك السموات**) وما أدرانا ما (**السموات**)، و(**من فيهن**) من قوات ملكوتية يملك ناصية كل فرد منها: ﴿**وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ**﴾ [**الأنبياء**: 28].

وهو ﷻ القائل: ﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ** ﴾ [الجاثية: 27].

ولا يمكن لأحد - مهما بلغ من العلم- أن يبلُغ المدى في تحديد الماهية والرسم،والحد والوصف فيما يعرفون وما لا يعرفون: ﴿ **سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [**الصافات**: 180] .

و(المَلِك) - سبحانه وتعالى - هو (القُدُّوس) المُستحق التنزيه لذاته.

---

(36) **الركاكة** : الضعف والضحالة .

(37) **سافرة** : ظاهرة واضحة .

المبحث الثالث عشر تجلّيات الاسم (القُدُّوس) ومُقتضياته

والاسم (القُدُّوس) معناه (المُنَزَّه) عن خَطَرات الأوهام ووساوس النفوس وتهاويم الخيال : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: 16].

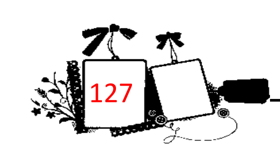
وكذلك قول (الله) تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الرعد: 33].

وهو – سبحانه – القائل: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: 140].

وقِدَم التقديس لذات (الحق) يجعلنا نترفَّع بذاته ﷻ وبصفاته وأسمائه عن مُسْتويات الاضطراب والفوضى، وشُيوع الحياة شيوعًا لا يتميز فيه الحق من الباطل ولا الطيب من الخبيث، وهو إبعاد للعقل الذي هو مصباح هذه الحياة الإنسانية المنير وسراجها المضيء.

وهذا يؤيدنا بوصف أولئك (**الصُّم البُكْم العُمْي**) ،الذين لا يرجعون بعد أن ذهبوا عن المجتمع الإنسانيّ وانحطُّوا عن آفاق العَجْماوات فلا يملكون برهانًا ولا دليلاً: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: 179].

وعندما ندلِف إلى التدقيق تارة أخري في مجالي الاسم (القُدُّوس) ، نسأله في علياء قدسه أن يكشف لبصائرنا أسنى المجالِي وأصفى ما تفيض به آلاؤه الجَمَّة ونِعَمُه الجزيلة؛ حتى نشهد الحقائق كما يريد لنا أن نشهدها.



ومعني الاسم (القُدُّوس) لذات (الله) تبارك وتعالى هو (**المُنَزَّه عن الأضداد والأنداد والصاحبة والولد**)، الذي لا تشوب جلاله شائبة من النقص أو شبهة من العيب ،تُنافِي عزته وتُكَدِّر معنى جلاله وكماله وعظمته وطهارته من الأدناس والنقائص.

على أن تنزيه ذاته –سبحانه وتعالى– عن كل ما يطرأ على أذهان الناس من الصفات، أو يجري بألسنتهم عن حقيقته –جلَّ وعلا– من العبارات إنما يقوم على أساس كونه (سُبُّوحًا –قُدُّوسًا) ، وهما اسمان متلازمان يؤيد كل منهما الآخر؛ فالتقديس متضمَّن فيه صريح التسبيح، والتسبيح متضمَّن فيه صريح التقديس لقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: 30].

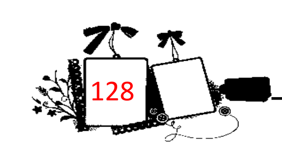
ومدى ما يمكن أن يصل إليه الشرح من معنى الاسم (القُدُّوس) يظل قاصرًا عن إصابة كبد الحقيقة المنشودة في جلال هذا الاسم لذات (الله) ، تقدّست أسماؤه وصفاته كلها : ﴿ **هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الحشر: 23].

وفي التاريخ المصريّ القديم (**قُدْس الأقداس**) بمعنى المتفرِّد الكامل الطهارة والتفرُّد والتقديس والبُعد عن الدنايا، وهو معنىً قائم في النفس ولو لم تستطع العبارات تحديد مداه وذكر فحواه لتناهِي عظمته وجلاله.

وقد سَمَّى – سبحانه وتعالى – أمين الوحي (**جبريل**) ﷺ في القرآن الكريم (**روح القُدُس**) في قوله ﷻ: ﴿**وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ**﴾ [البقرة: 87].

والمتبادر أن القدس هو الطهر الرُّوحيّ الكامل، والمتجرِّد التام التجرد عن شوائب الظلمات والشبهات والتوهُّمات والتشوُّهات.

كما أطلقت المسيحية على كبار رجال (**الكَهَنُوت والحواريين**) اسم (**القِدِّيس**) ، ويُراد به ذلك الذي تجرَّد عن الدنيا وكرَّس حياته لمجد الملكوت.



وعندنا نحن – (**المحمَّديِّين**)- أن التقـديس بمعنـى التَّطهُـر والتمجيـد والرِّفعـة والعُلُـو عـن مستوى النقص أو الدنس أو التدنِّي.

وكل هذا لا يكفي لتحديد المعنى المراد من اسم (القُـدُّوس) ، ولا المفهـوم الكـليّ مـن الاسـم (القُدُّوس) ،الذي تتذوقه المشاعر وتستشعره القلوب من هذا الاسم المبـارك بركـة مطلقـة كاملـة ،تُعد جزءًا من مُقتضيات الأسماء (العليّ – العظيم – الجليل – العزيز – المَلِك – المُنعِم – الغنـيّ – الكريم).

فإذا شئنا أن نجد اسمًا من الأسماء تشمل جميع معاني كل هذه الأسماء، فإنه الاسـم (القُـدُّوس) حيث إن هذه الأسماء كلها من مُقْتضياته الذاتية، وعلى الأخصّ الاسم (الجليل) المُؤَيَّد بكونـه - - ﷻ (**ذا الجلال والإكرام**)، فهو في علياء جلاله وجلال عليائه (كريم) يفيض حنانًا من لدنه فـيض آلائه وتجلِّيات صفاته وأسمائه؛ ومـن أجـل ذلـك جـاء قولـه تعـالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: 18] ، وقوله تعالى : ﴿ **أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الصافات:86-87].

ولذلك أيضًا جاء اسم (السَّلام) تاليًا لاسم (القُـدُّوس) ؛ دلـيلاً عـلى إحاطـة الرعايـة وكـمال الرفعة وشمولية التقديس والتنزيه والتسبيح .

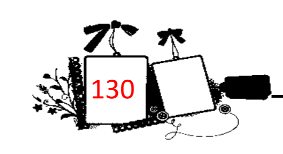
المبحث الرابع عشر تجلّيات الاسم (السَّلام) ومُقتضياته

(فالله) – جلَّ وعلا– هو (السلام)، وهو الذي جعل السلام شعارًا للتحية بين المسلمين وتوجيهًا للرحمة إلى بعض (المُرْسَلين)، بل إلى كل (المُرْسَلين) عليهم صلوات (الله) وسلامه؛ مثلما قال : ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 79]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 109]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: 130]، وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: 120] وعندما تناول (عيسى) عليه السلام قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15]، وقال (عيسى) الوليد في مَهْده: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 33].

كذلك جعل لكل مؤمن حق إطلاق السلام على نفسه في الأماكن غير المَسْكُونة ، عندما قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: 61].

وعند المشهد الأعلى (**بالأفق المبين**) واجَهَ بها (الحقّ) تعالى إمام المُرْسَلين ﷺ عندما كان يُلْقِي إليه بفريضة (**الصلاة**)، وعندما كان (**قاب قوسين أوأدنى**) فتلقى: «**السلامُ عليك أيها (النبي) ورحمة (الله) وبركاته**» فتلقَّاها، ثم فاضت من جانبه وتدلَّت من رحمته إلى جميع (**الأنبياء والمُرْسَلِين**) عليهم السلام و(**العباد الصالحين**) ~ أجمعين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، حيث قال مجيبًا على تحية (الله) تعالى: «**السلام علينا وعلى عباد (الله) الصالحين**» وعلى أثره أعلن (**الشَّهادة بالوَحْدانية**)، بالأصالة عن نفسه والنيابة عن جميع **الأنبياء والمُرْسلين** عليهم السلام. فما معنى (السلام) إذًا في كل هذا؟.





واللغة تقول: إن (السلام) معناه الأمان، فهل هذا يجوز إطلاقه على (الله) سبحانه و تعالى؟ .. فكيف يُضاف إلى (**الأسماء الحسنى**) اسم الأمان؟.

الواضح أن المفهوم أعلى وأعزّ من هذا الحصر الإسميّ؛ لأن (الله) تبارك وتعالى إذا وَجَّه السلام، فإنه – وهو ذاته (السلام) – لا يكون بالقول ولا بالحرف ولا جَرْس الصوت؛ لأنها جميعًا حوادث، أي أنها غير قديمة ولا أزليَّة.

فلم يبقَ سوى الاتجاه إلى معنى (المُنْعِم) بالفيض الإمداديّ الرُّوحيّ على من شاء من عباده بين (**الملائكة والجِنّ والإنس**)، فيكون قوله سبحانه لرسوله ﷺ فيضًا مَتدفِّقًا بالفعل لا مجرَّد تحية لفظية؛ لأنه تعالى مُنَزَّه عن الشَّفتين واللسان والقصبة الهوائية وانبعاث الصوت؛ لأنه – تعالى– مُنَزَّه عن الجِسمية ولوازمها ومُقْتَضياتها.

فلَزِم من هذا – لُزومًا رياضيًّا – أن سلامه فيض، وأنه – بذاته – فوق الوصف– وبصفاته– فيض مُطْلَق أيضًا، وهذا معنى كونه سبحانه (السلام).

فسبحان من (**بَطَن بأسرار ذاته، وظَهَر بتجلّيات أسمائه وصفاته**) على جميع المجالِي الكونيَّة والظواهر الغيبيَّة؛لأنه وحده : ﴿**لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ**﴾ [الأعراف: 54] ، والخلق هو الظاهر والأمر هو الباطن؛ وهو تعالى : ﴿**ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد: 3].

كذلك نرى أن من مُقْتَضيات الأسماء (المهيمن – البصير – الحكيم) وجودًا لاسم (الرقيب) ؛لأنه من مُقْتَضيات هذه الأسماء الكريمة، و(الرقيب القريب) هو الذي: ﴿**لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ [سبأ: 3] ، فلا يشغله شأن عن شأن ولا تُغْلِطه المسائل، ولا يتبرَّم بإلحاح المُلِحِّين، ولا يُلْهِيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعُمْران والقِفَار (بصيرًا خبيرًا لطيفًا قديرًا) لكل شيء وبكل شيء.



كما يقتضـي الاسم (السميع) تجلِّي الاسم (المجيب) بشفاعة الاسم (الرحيم) ، فإنه يُرشِدنا في كتابه الحكيم باستجابته لنداء الذين نادَوْه من عباده بمَحْض رحمته، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ** ﴾ [الصافات: 75] ، وقال : ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ** ﴾ [الأنبياء: 83-4].

وبعد ذكر (**إسماعيل**) و(**إدريس**) و(**ذي الكِفل**) عليهم السلام قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [الأنبياء: 87].

فانظر بلُطف العقل وراء صُوَر الحروف ما تحويه سُور (**القرآن**) ، لعلَّك تَشْهد في لمحة من لمحات الصفاء طيفًا من مشاهد الجلال بهذا (الرقيب – القريب – السميع -المُجيب – الرّءوف – الرحيم) ، الذي لا ينافي رأفته ورحمته أنه (الجَبَّار – المُنْتَقم) ؛ لأن هذين الاسمين إنما يعملان في فلك الاسمين (الرحيم -الحليم) بالذات.

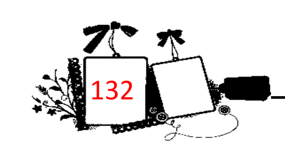
ومن هنا نعبد (الله) (**على غير حرف**) ، عبادةً صادرةً عن (**دين خالص**)، ورضاء كامل بحكمة (الحكيم) وقَدَر (المُقَدِّر) وتدبير(المدبر)، سَرَّك ذلك أو ساءك.

ولا تَكُن كالَّذي ترى الواحد منهم : ﴿ **يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ** ﴾ [الحج: 11] .

و(لله) دَرُّ القائل:

(صَلَّى وصَامَ لِأَمْرٍ كَانَ يَقْصِدُهُ فَلَمَّا انْقَضَى الأَمْرُ لاَ صَلَّى وَلَا صَامَا)

وما كان ذلك إلا لما هو عليه من عَمَه البصيرة عن مُقْتَضيات الأسماء وتجلِّياتها على مُختلِف مجاليها.



وعلى أساس ما ثبت من أزلية صفة العلم، يقوم الاسم (العليم) ومن شأنه الانفراد بـالحُكْم في تجلِّيات الاسم (الحَكَم) ،وبما أن الاسم (العَدْل) هو من قوة الاسم(الرحيم)،لزم اقتران الاسـمين (الحَكَم– العَدْل) اقترانًا اقتضائيًّا.

فأما عن الانفـراد بـالحكم فلقولـه تعـالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعـام: 57] ، بصـيغة تفيـد القصر، وقوله تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر: 12] ، ولقوله تعـالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا﴾ [الأنعـام: 114] ، ولقولـه تعـالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد: 41].

وحيث إن (الحَكَم) (رحيم)، وحيث إن (الرحيم) (عَدْل)، وجب الرضا بقضائه والنزول على حكمه، مع **(اطمئنان القلب)** وثقة النفس بحكمة هذا (العَدْل)، سواءً كان مطابقًا أو مخالفًا لهـوى النفس ومُيُولها ونوازعها.

وهذا ما نعنيه بالصبر، الذي هو فيض بتأييد من تجلِّيات الاسم (الصَّبور) والرشـاد الـذي هـو من تجلِّيات الاسم (الرَّشِيد).

وهكذا تتعدَّد مجـالِي الأسـماء متضـامنةً مـع تجلِّيـات الصـفات والأسـماء في الشـئون المختلفـة والمراتب المتفاوتة والمقامات المتعددة.

ولَـمَّا كان ما ذُكِر من التجلِّيـات وآثارهـا في مجاليهـا وآثـار الصـفات فيهـا أمـرًا يقتضي ـ بذاتـه العُلُوّ،الذي لا يتقيد بالجهة ولا يتحدد بالكمّ ولا يُوصف بالكيف، لَزِم أن نشهد عظمة (العظـيم) وجلال (الجليل) في كل شيء من قاصٍ ودانٍ : ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46].

لأن مقام العظمة يُحَفِّز مشاعر الإجلال والتعظيم والإكبار والتوقير، فإذا كان (العظيم الجليـل العليّ الكبير) (غنيًا) (رحيمًا)، لزم إضافة **(الحب)** إلى ذلك الإجلال، كما قال الحبيب ﷺ:

«أَحِبُّوا (الله) لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَة» .

وفطرة النفس بل فطرة الحيّ تحب مَن مَنَحها العطف والحنان بتيسير الغذاء وتدبير المأوَى ، وهو – ﷻ – قد تكفَّل بكل النِّعَم ، من نعمة الإيجاد إلى نعمة الإمداد إلى نعمة الهداية ، فلِمَ لا يتوجَّه إليه تعالى (**الحب**) ولو من زاوية شكر (المُنْعِم) على ما أنعم.

فإذا علمنا أنه قد أعدَّ (**قُرَّة أعيُن**) للمبصرين ،الذين لم تكن (**أعينهم في غِطَاء عن ذكره**) تعالى، وقد آمنوا بما أعدَّ لهم، ازداد حبهم مصحوبًا بخوف من غضبه وطمع في رحمته وتقدير لعظمته وتسليم بحكمته، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾[النساء: 64، 65].

وما كان (**محمد**) ﷺ ليحكم من تلقاء ذاته ولا ليقضي من عنده، ولكنه حُكْم (الله ﷻ) وقضاؤه؛ ولذلك لزم أن يُسَلِّموا به﴿ **تَسْلِيمًا** ﴾مؤكدًا بالمصدر.

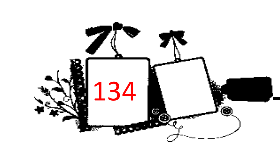
والمؤمنون –من أجل ذلك– قوم صابرون؛ لأن هذا هو معنى الصبر وليس شيئًا سواه في مجموع ما ورد بالكتاب : ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: 10] ، وإنما قام حب المؤمنين ~ لمولاهم على مشاعر وجدانيَّة لا تنحصر في مأكل أو مشرب أو مغنم،كما قال بعض الشعراء:

(وَجَمَالِ صُورَتِك الَّتِي فِي مِثْلِهَا ... تَحَيَّرَ التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ

أَحْلَلْتَ قَلْبِي مِنْ هَوَاكَ مَحَلَّةً ... مَا حَلَّهَا الْمَشْرُوبُ وَالْمَأْكُولُ)

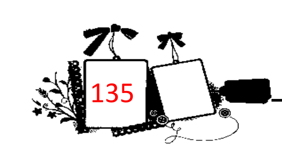
وهذا المقام مقام المؤمنين ~ ، الذين تلبَّست نفوسهم مبكرة بروح الرضا، ثقةً بالاسمين (الحَكَم– العَدْل) في مفهومهما واطمئنانًا إلى تلك الثقة، فكانت جديرة بأن يناديها (الله) عند لقائه بقوله : ﴿**يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: 27، 28].





وكذلك يدور الاسم (الرَّقيب) مع الاسم (الحسيب) في فَلَك الاسمين (الحَكَم- العَدْل) ، ومعنى هذا أن الحُكْم لا يكون عادلاً إلا إذا صدر من (**حسيب رقيب**) ، لا يَضِلُّ حسابه ولا تَغْفَلُ رَقَابته و(**لا تأخذه**) عن مُلْكِه وملكوته (**سِنَة ولا نوم**).وهذا من أقوى بواعث الطمأنينة والسكينة؛ لقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [الفتح: 4] ، نصًّا على اقتران صفة العِلْم بصفة الحِكْمة في إنزال: ﴿**السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الفتح: 4].

وهذا مدخلٌ يقودنا مباشرةً لتجلِّيات الاسم (**الحَكِيم**).



المبحث الخامس عشر الحَكِيم

والحِكْمة هي وضع الشيء في محَلّه، والحكمة عند (**اليُونان**) هي (**دراسة حقائق الأشياء الثّابتة**)، وهي عند عُلماء (**الغرب**) (**الفلسفة**)، وبلسان (**الإغريق**)معناها (**حب الحكمة**).

لكنّ (الله)-سبحانه وتعالى- باعتباره مخالفًا للحوادث ،(الحكيم) الذي قد تجلَّت حكمته على مجالٍ متفاوتة الآفاق ، فتظهر حكمته-ﷻ-في عوالم النبات والحيوان والجماد والأثير وما حواه.

فكل ما يبدو في الكائنات من تنافر أو تجاذب أو نسبة أو تناسب أو ملاءمة أو منافرة أو ازدواج أو اقتران أو غير ذلك من جميع ظواهر الكون، إنما هو الأثر الإيجابيّ لتجلّيات الاسم (الحكيم) في جميع هذه المجالي، وحدوثها هكذا دليل ماديّ على حكمته وإتقان صنعته وإبداعه وحسن تكوين مخلوقاته.

ولو أننا أمعنَّا النظر فيما جاء في سورة (**الواقعة**) : ﴿**أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ**﴾ [الواقعة: 68، 69] ، ثم الانتقال من (**الماء**) إلى (**النار**) بقوله : ﴿**أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ**﴾ [الواقعة: 71، 72] ، كذلك ذكره أخص خصائص الحياة الحيوانية بقوله : ﴿**أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ**﴾ [الواقعة: 58، 59].

أجل.. لو تأمّلنا ما تنطوي عليه هذه الآيات ؛لَعَلِمْنا على أي مدىً سرت حكمته تعالى في الكائنات -صغيرها وكبيرها دقيقها وجليلها- سريانًا لا يمكن للعبارات الحَرْفِيّة أن تجعل حقيقته الكبرى في إطار مُدْرَكات العقول: ﴿**وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: 18] الموصوف بكمال (**الحكمة**) وسِعَة (**العلم**) و(**القدرة**)، غزير الرحمة يضع الأشياء في مواضعها وينزّلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجّه إليه سؤال ولا يَقْدَح في حكمته مقال.

فهو سبحانه (الحكيم) في شرعه وأمره، شَرَّع (**الشرائع**) وأنزل (**الكتب**) وأرسل (**الرُّسُل**)عليهم السلام للناس؛ ليعرفوه ويعبدوه.

وفي فَلَك الاسم (الحكيم) تدور تجلِّيات الاسمين (القابض- الباسط) : ﴿**وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ**﴾ [البقرة: ٢٤٥] ، فإنه ﷻ ﴿**يَقۡبِضُ**﴾ بحكمته عندما يكون القبض -بتجلّيات الاسم (القابض)- عاملاً من عوامل الاسم (الرحيم) ، كذلك﴿**وَيَبۡصُۜطُ**﴾ عندما يكون البسط ، أو من عوامل الأسماء (الخبير - المقسط- الكريم).

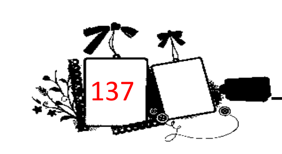
وبهذا لا يكون القبض دليلاً على غضب، ولا يكون البسط دليلاً على رضا؛ حيث قد تنعكس أحكام البشر عندما يكون القبض لحكمة أو رحمة، وعندما يكون البسط لمكر أو نِقْمة.

وهذا يظهر في ليل الشك ظهور النور في سورة (**الفجر**) عند قوله تعالى : ﴿**فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ**﴾ [**الفجر**: 15-17].

أي أن (**الإكرام والتنعيم**) لا يكون دليلاً على مثل ذلك في الآخرة ، ولا على حُبّ (الله) ﷻ لمن تجلَّى عليه بالاسم (البَاسِط)، وعلى الأخص بقوله تعالى : ﴿ **وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ**﴾ [الشورى: 27].

فإذا رأينا الاسم (الحكيم) يؤيّده الاسم (المهيمن) ليرسُم الخُطّة بالاسم (الرَّزاق) ؛ فيحدث الرزق كما تقتضيه تجلّيات الحكمة من الاسم (الحكيم)، ولنضرب لك مثلا :





إذا كنت طبيبًا في مستشفى (**الحميات**)، وصرخ بك مريضك المحموم يطلب لحمًا حنيذًا أو حِسَاءً سمينًا فرفضت طلبه وقَدَرْت عليه طعامه وقبضت عنه مُشتهاه، هل تكون بذلك حكيمًا رحيمًا أم جبارًا قاسيًا..؟

إنك تعلم أنك ما حجزت عنه مُشْتَهيات نفسه الجاهلة غير الحكيمة إلا رحمة به وعملاً على شفائه وإنقاذه من براثن المرض، فهل له الحق أن يَتَّهمك -أيها الحكيم- بالقسوة والغلظة والجبروت؟!..

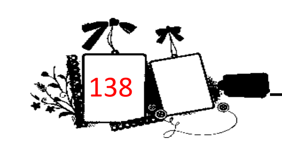
هكذا نرى أن من تجلّيات الاسم (القابض) ما يكون رحمة ورأفة بالمقبوض عنهم المقدور عليهم رزقه.

وقد علمنا أن الاسم (الرَّزاق) يجب أن يتبع تقديرات الاسمين الكريمين (الحكيم- الرحيم).

وكذلك رأينا كثيرًا مِمَّن آتاهم (الله) في الدنيا أموالاً طائلة استخدموها في معصيته واستغلُّوها في حربه، كما قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ** ﴾ [يونس: 88].

وإنما قلنا هذا حتى لا نقيم قياس الرحمة على المِلْك والمُقْتَنيات وما إليها من (**زهرة الحياة الدنيا**)، وقد تبيَّن مقام الاسم (الحكيم) بالنسبة للاسمين (الخالق- البارئ) وكذلك الاسمين (القابض - الباسط) كما تبيَّن بالنسبة للاسمين (المُعِزّ- المُذِلّ) ؛ لأن كل شيء من هذا تابع لتجلّيات الاسم (الحكيم).

ولهذا نراه -سبحانه- قد بدأ سورة (**يسٓ**) وهي (**قلب القرآن**) باعتبار (**القرآن**) في هذا المقام حكيمًا حيث يُقْسِم سبحانه: ﴿ **وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ** ﴾ [يس: 2] ،كما قال مشيرًا إلى مقام العظمة : ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ** ﴾ [الحجر: 87].



وإن وصف (**القرآن**) هنا بالعظمة وتخصيص (**السبع المثاني**) بالذكر إنما هو أثر من تجلّيات الحِكْمة من الاسم (الحكيم) ، الذي من حكمة شَرْعه أنه لغاية صلاح القلوب والأخلاق والأعمال كزاد للآخرة ، فهو أيضًا لغاية صلاح أمور الدنيا ، فإنه ﷻ لا (**يأمر**) إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة ، ولا (**يَنْهَى**) إلا عمّا مضرَّته خالصة أو راجحة.

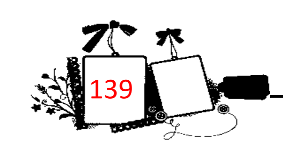
وبعد شهود الحكمة القرآنية من: ﴿ **وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ** ﴾[يس: 2] ، المُقْسَم به في مطلع (**يسٓ**)، ليدلنا على أن الأمر في الحكمة أجلّ وأعظم من تلك النظرة السطحية التي يوجهها الناس إلى (**فاتحة الكتاب**) دون عناية – حتى – بمعنى قوله تعالى: ﴿**مِّنَ ٱلْمَثَانِي**﴾[الحجر: 87].

على أن رعاية الحكمة كانت أمرًا مفروضًا بالذكر في بيت (**محمد**) ﷺ، حيث توجّه الخطاب الإلهيّ إلى (**أزواجه**) ﷺ بقوله تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** ﴾ [الأحزاب: 33، 34] مؤكّدًا بالمصدر﴿ **وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾، فإن هذا لا يتأتى إلا من ذِكر ما يُتلى في بيتوهن من﴿ **ءَايَٰتِ ٱللَّهِ** ﴾ ﷻ على حِدة،﴿**وَٱلْحِكْمَةِ** ﴾ على حِدة ، باعتبار (**الحكمة**) أمرًا آخر غير مُجَرَّد (**الآيات**).

ذلك لأن تجلِّيات الاسم (الحكيم) في الحكمة القرآنية تفتح في النفوس المستعدة من آفاق المعرفة، ما لا يتسنَّى لمجرد ظواهر الآيات بعثه في أعماق الصدور.

ومن ثَمَّ يتعيَّن علينا أن نشير إلى ذلك (**المَثل**)، الذي ضربه (الله) عن (**أحبار اليهود**)، الجامدين على ظواهر النصوص دون عناية بالحكمة ولا إيمان بـ (الحكيم) ، عندما قال عزَّ مِنْ قائل:


﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا** ﴾ [الجمعة: 5] أي كتبًا كبارًا.



والمعنى الواضح أن هؤلاء القوم لم يتعلَّقوا بالحكمة من لُباب الآيات ووقفوا جامدين وراء جُدُر الألفاظ وأسوار الحروف، كما قال تعالى في تقسيم (**ورثة الكتاب**) إلى ثلاثة أقسام بقوله جلَّ شأنه : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾ [فاطر: 32]، الذي حُرِمه الواقفون عند حدود الألفاظ والحروف والرموز : ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ** ﴾ [القمر: 4، 5].

وقد ورد اسم (الله) (الحكيم) في (**القرآن**) الكريم في إحدى وثمانين آية، وأَطْلَق على (**القرآن**) وصف (**الذكر الحكيم**)؛ لأنه الحاكم للناس وعليهم؛ ولأنه مُحكَم لا اختلاف فيه ولا اضطراب.

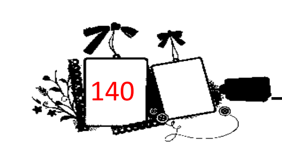
وقد ورد لفظ الحكمة في (**القرآن**) في نحو عشرين آية، واشْتُهِر (**لُقْمان**) عليه السلام بالحكمة: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** ﴾ [لقمان: 12] وسورة (**لقمان**) تشهد بتعظيم (الله) -تعالى- للحكمة التي هي ضالة المؤمن،كما قال الحبيب ﷺ:

«الحِكمَةُ ضالَّة المؤمنِ أنَّى وَجَدَها فهُو أحقُّ الناسِ بها» .

و دعاء (إبراهيم) عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة: 129].

وهو -تعالى- القائل بنبأ عام عن بعض مِمَّن يتفضّل عليهم -سبحانه- من خَلْقه : ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: 269].

وهو ﷻ الآمر (نبيَّه) ﷺ : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل: 125].



وحكمة الإنسان بإلهام العقل:هي عصارة خبراته ومعارفه وتأملاته في الحياة، حيث يقول : ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ وهو ﷻ يُذَكِّر عباده المؤمنين بنعمته عليهم؛ حيث يقول : ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ** ﴾ [البقرة: 231].

وأصل النبُّوة الحكمة ؛ حيث يقول تعالى لأنبيائه الأصفياء عليهم السلام : ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ**﴾ [آل عمران: 81] .

ولهذا كان بعثه ﷺ رحمة ؛ كما قال عنه (ربه) وقوله الحق: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: 107] ؛ لأنه سيُعَلِّمهم الحكمة ويَدْرَء عنهم شُرور الجهالة.

والحكمة هي التي تقود المؤمن (**التَّالي للقرآن**) الحكيم (**حق تلاوته**) – وحق التلاوة بالتعمق وتلمُّس المعاني الرُّوحانية العليا – (**فيثبِّتهم**) به ويرفع عنهم القلقلة وبلبلة الأفكار؛ ولذلك فهو ﷻ يقول: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم: 27].

وانظر – أخي المؤمن – بلُطْف العقل في تجلِّيات الاسم (الحكيم) في تكوين عينَـيْ الإنسان، وتعيين إنسان قائم بذاته في كل عين منهما، وتعيين الآلاف من الخطوط الشبكية في ذلك السواد الذي يتوسَّطه (**إنسان العين**)، ثم قل بعد هذا النظر الدقيق الفاحص: أتشهد هذه الحكمة..؟ وهل تدرك مداها..؟ بل وهل يمكن أن يُحاط بها؟!! ..

فلذلك صدق قوله سبحانه :﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: 14].

ثم انظر كيف امتنَّ ﷻ على عبده (**المسيح عيسى بن مريم**)عليهما السلام حيث قال : ﴿**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ**﴾ [آل عمران: 48].

وعلى هذا النحو تضافرت (**آيات القرآن**)، فورد الكتاب – دائمًا– مقترنًا بالحكمة، فكيف لا يكون للحكمة مدلولها في هذا الكتاب ، وهي غير منفصلة عنه منذ (**التّنزيل من لَدُن** (**عزيز حكيم**)).

بل إن الحكمة أخصُّ خصائص الكتاب الكريم وأتمُّ آثاره عملاً في النفس واعتمالاً في الصدر والقلب ونورًا للبصيرة، فهو: ﴿**لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى**﴾ [فصلت: 44].

وما كان ذلك (**العمى**) إلا لأنهم لم يشهدوا تجلّيات الاسم (الحكيم) على مجالي الحكمة في (**القرآن**) الكريم ؛ لأن الحكمة وحي من (الله) ؛ حيث يقول تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ**﴾ [الإسراء: 39].

وإذا أردنا استقصاء تجلّيات الاسم (الحَكِيم) في جميع الكائنات وطبائعها وفصولها وأجناسها وأنواعها لضاق بنا المقام ، ولكننا نكتفي من تجلّيات الحكمة بما يتبادر لنا في طبائع تكويننا بأنفسنا هذه ، الزاخرة بالحواسّ من سمع وبصر وذوق وشمّ ولمس وتصوُّر وتخيُّل وتوهُّم ووعي وإدراك ؛ لنعلم –علمًا ضروريًّا– بالمباشرة مدى تجلّيات الاسم (الحَكِيم).

هذا الاسم الذي هو قرين ملازم للاسم (العَلِيم) ؛ لقوله تعالى على لسان (**الملائكة**) المقربين : ﴿ **قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ** ﴾ [البقرة: 32].

وتجلِّي حكمته وسريان لطفه يُشْعِران كل حيّ بما يتفضَّل به من بَسْط يد التودُّد بينه وبين (**عباده المُخْلَصين**) ~ ،الذين وعدهم ووعده الحق : ﴿**سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا**﴾ [مريم: 96].

وهذا هو المدخل الفطريّ للكلام عن الاسم (**الوَدُود**).



المبحث السادس عشر الوَدُود

وهذا الاسم من الأسماء الاشتراكية، فاللغة تقول: (رجال مُتَوادُّون) و(الحديث الشريف) يقول:

«**إِنَّما مَثَلُ الْـمُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِم وتعاطُفِهم كَمَثَلِ الجسدِ الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمىَّ**» (38)، ثم قال (**القرآن**) الكريم عن أصل السعادة الزوجية: ﴿**وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ [الروم: 21].

وهو ﷻ سَمَّى نفسه (الودود)، فما معنى (الودود) في الحادث وما معناه في القديم؟ ..

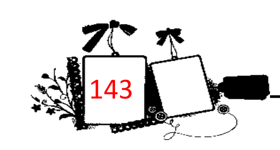
إن معنى (الودود) في الحادث لطف المُعَاشَرة وإخلاص المحبة ونقاء السريرة،المُفْضِي إلى التعاطف وتعلُّق القلب وحب المواصلة والتَّزاوُر، إلى غير ذلك من مشاعر الولاء والمَوَدَّة.

أما بالنسبة إلى القديم -سبحانه وتعالى- فهو الفَيْض بالخير حنانًا من لَدُنْه ورأفةً وحبًا وإمدادًا وإسعادًا، فهو -سبحانه- الذي يصف لعبده (**زكريا**) عليه السلام فيض عطفه عليه بولده (**يحيى**) بقوله: ﴿**وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا**﴾ [مريم: 13]؛ لما سيفيض به قلب (**يحيى**) عليه السلام من الحنان على والديه وأن ذلك (**الحنان من لَدُنْه**) عزَّ شأنه.

ويتعانق الاسم (الحنَّان) في مفهومه، بل ويتَّحد مع الاسم (الودود) مُتَرَادِفَيْن؛ فإن مجرد الحَنَان هو من مُطْلَق الرحمة ومن اللوازم الاقتضائية الذاتية للاسم (الرحيم) والاسم (الرحمن)، ولكن الوُدّ هو ثمرة الحب الخالص النضيرةاليانعة.

ولذلك وصف (الله)تعالي: ﴿**وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة: 165]، بسبب ما جعل لهم من وُدّ من لَدُنْه سبحانه، (حَنَّانًا مَنَّانًا) بالفيض بكل ما تحتاج إليه الكائنات لكمال وجودها وتمام نشأتها من ماء وهواء.

(38) رواه (**البخاري ومسلم**) رضي الله عنهما.



والاسم (الودود) من الأسماء التي تُشْعِر الإنسان بقُرْب (ربه) منه ، ولِمَ لا وقد جاء الاسم (الودود) في (**القرآن**) مرَّتين ، في إحداهما مقترنًا باسم (الغفور) وفي الأخرى مقترنًا باسم (الرحيم) .

حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿**وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ**﴾ [البروج: 14، 15] ، و(ذو العرش) من تجلِّيات الاسم (المَلِك)،و يقول –جلَّ شأنه– في الآية الثانية : ﴿**إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾ [**هود**: 90] ، والود في أي (**مُعْجَم**) معناه الحُب والحَنَان.

وتتعلَّق تجلِّيات الاسم (الودود) بحركات القلوب وخَطَرات المشاعر وكلمات الضمائر، فإذا كان (الحنَّان) (رحيمًا) وهو سبحانه يقول : ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [**الأعراف**: 156] ، فإن (الوَدُود) يختصّ بالمؤمنين الذين قرَّر –سبحانه– بسين التنفيس المتعاقبة المستمرة أنه :﴿**سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا**﴾ [**مريم**: 96] ، وهذا الود معنويّ خالد، أما أثر الحنان فهو ماديّ جِسْمانيّ بائد، وهيهاتَ أن يستوي البائد والخالد.

ومن تجلِّيات الاسم (الودود) أنها تَمُدُّ يدها البيضاء إلى الغَرْقَى في بحار الدنيا بين ظلماتها وأوهامها وآمالها وآلامها وشئونها وشجونها وهمومها وغمومها، فتنتشلهم إلى ساحل الأمن الأبديّ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: 82] ، فهؤلاء هم الذين استحقُّوا بأعمالهم وطاعتهم واستقامتهم مقام الأمن والهُدى.

وتجلِّيات الأسماء لا تقع على مطارح أشعتها إلا (**صدقًا وعدلاً**)؛ حيث قال تعالى: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا**﴾ [**الأنعام**: 115] ، فيتعيَّن علينا أن نوجِّه الشُّعاع إلى أنفسنا؛ لتكون أبعد ما يكون عن الانحراف عن سواء السبيل حيث إنه كما: ﴿**لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ**﴾ [المائدة: 100] ، فكذلك: ﴿ **وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ**﴾ [فاطر 20–22].

فمع أن كل ذلك من التجلِّيات فإن الاسم (العدل) -وهو اسم(**الميزان**)- إنما يُوَجِّه التجلِّيات على قَدْر الأعمال والتصرُّفات الاختيارية ،التي تقوم بنفوس العباد على اختلافهم -باعتبارها مجالي لتلك الأسماء- فلا يتجلَّى على من يسير (**على هُدىً**) مستقيم ،إنَّما يتجلَّى على من يتجنب الهدى ويستحبّ الاعوجاج عن المنهاج القويم، مُلْقِيًا بنفسه في هُوَّة الرَّدى كقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [**فصلت**: 17] ، فما استحقُّوا﴿**الْهُدَى**﴾ لأنهم كفروه ؛ فتحقَّقت فيهم عدالة التجلّيات في ذاتها.

فلو أن (الله) – ﷻ –تجلَّى على عبد من عباده بالاسم (البَاسِط) مثلاً، فظهر هذا العبد على مُقتضي تجلِّيات هذا الاسم (الوَهَّاب– الكريم) ، فكان عبدًا وهّابًا كريمًا، استمرت تجلِّيات هذا الاسم (البَاسِط) على هذا العبد ،الذي يعمل عمل الشَّكُور، بتأثير تجلِّيات الاسم (الشَّكُور) ، الذي هو المُعَاوِن الأول للاسم (البَاسِط) ؛ حيث يقول تعالى : ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: 7].

و(**الشُّكر**) هو البذل مما تفضَّلت به تجلِّيات الاسم (المُنْعِم) ، وبهذا وردت (**الآيات**) لتأييد معنى (**الشُّكر**) المذكور كقوله تعالى : ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾ [لقمان: 14] ، ولقوله ﷻ: ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**﴾ [الأحقاف: 15].

أما إذا تجلَّى الاسم (البَاسِط) على عبد شحيح،اقتضى شُحّه هذا واستلزم بُخْله أن ينتقل عنه تجلِّي الاسم (البَاسِط) ، وحلَّ محلَّه الاسم (القابض) (**صدقًا وعدلاً**)؛ حيث قابل هذا العبد البسط الإلهيّ بالإمساك والقبض، وإن قوله تعالى: ﴿**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [**النمل**: 40] ، لدليل قاطع على أن الكفر ضد الشكر.

وبهذا المثل نرجو أن نكون قد بيَّنا بجلاء أن تجلِّيات الأسماء لا تكون إلا (**صدقًا وعدلاً**) باختلاف مُقتضياتها في مجالي النفوس المختلفة بطبائعها، غير مُكْرِهة للناس أو المجالي على الانصياع لآثارها، بل إن (**الصدق والعدل**) يقتضيان أن تكون التجلِّيات لائقة بها عليه حال المجالي المتباينة : ﴿**وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا**﴾ [**الأحزاب**: 39] ، وليس شرطًا أن يقتضي انصباب تجلِّيات الاسم (البَاسِط) مُعاونة الاسم (الرَّحِيم) ؛ لأنه قد يكون البسط صادرًا عن تجلِّيات الاسم (المنتقم) ، متى كان البسط – بحكم الحال التي يكون عليها المجلَى – استدراجًا للمُتجلَّى عليه إلى الفتنة، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ [الشورى: 27].

وهكذا يقود البسط إلى (**البَغْي والطُّغْيان**)، ويكون دفعًا من الاسم (المنتقم) (**صدقًا وعدلاً**) (**فيأخذ الظالمين بظلمهم**)وهذا هو : ﴿**وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [النحل: 118].

أما إذا ساند الاسم (البَاسِط) الاسمان الكريمان (الرحيم– الودود) ، فإن القلب يكون أنقى وأتقى: ﴿**وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [طه: 131] ، وهو عطاء الفيض الرُّوحي ، الذي يُغْنِي النفس ويُطَمْئِن القلب؛ ومن هنا أشار الحبيب ﷺ إلى هذا المقام بقوله:

«**ليسَ الغَنى عن كثرةِ العَرَض وإنَّما الغِنَى غِنَى النفس**» ، وفي رواية « **غِنَى القَلب** » [(39)].

وأشار إليه قوله تعالى : ﴿**وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ**﴾ [**الضحى**: 8] ، وليس المقصود بالغِنَى في هذه (**الآية**) غنى المال، فمن المعلوم أنه ﷺ لم يكن من أصحاب الأموال أو الأملاك ، حتى عَيَّره المشركون الضالُّون بقولهم : (**لَوْ يُلْقَى إِلَيْكَ كَنْزٌ**)، وقولهم: (**أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ**)، حتى أنه ﷺ خرج من الدنيا مدينًا رهين الدِّرع للحصول على رزق عياله، فلم يبقَ إلا معنى الغِنَى الرُّوحيّ الذي يَهَب النفس الإنسانية حياتها الحقيقية ويُبْرِز أمامها أهداف وجودها.

(39) مُتَّفَق عليه والعَرَض الأموال والأثاث والأمتعة .

وهذا ثابت بالنَّص بما قَرَّره عِلْم (العليم) مقترنًا بالبيان والمعاني؛ حيث إن (الآيات) : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: 6-8] ، فيها اللَّف والنَّشْر المُرَتَّب، فيكون التقرير: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ملفوفة لقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ المنشورة، وتكون (الآية) : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملفوفة لقوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ فلا تَنْهَ ﴿السَّائِلَ﴾ عن عِلْم وتلطَّف في هِدايته وإنقاذه من حَيْرته وضلاله؛ لأننا وجدناك – من قبل– ﴿ضَالًّا﴾ تلتمس السبيل إلينا فهديناك بنورنا لهَدْينا وهُدَانا، وتكون (الآية) : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملفوفة لقوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، غِنَى النفس الراضية المطمئنة إلى لُطف (الله ﷻ) وقدرته وحكمته وفضله؛ لتكون عبدًا شكورًا يُحَدِّث بنعمة (الله) ، ولا ينكرها كفرًا وإجحادًا بمن أسداها إليه، بل أن تنفق منها ومما رزقناك سرًا وجهرًا لا قيد ولا حجر؛ لأنه هو بذاته الذي يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96].

وكذلك قال الحبيب ﷺ ،وهو الذي لا ينطق عن الهوى :

«إِنَّ (الله) يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِه» (40)، والنعمة هنا بالمعنى الذي تشير إليه (الآية) الكريمة المبينة : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: 18].

ومظاهر تجلِّيات الاسم (الودود) عديدة، يتجلَّى منها الوُدّ الخاص للحبيب المصطفى ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: 48]، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: 85] في مناسبة ما لاقاه الرسول ﷺ من عَنَت المشركين تحدّيًا لدعوته، ومناسبة خروجه ﷺ من (مكَّة) متألمًا باكيًا وهو يقول:



(40) رواه (الترمذي) ÷ .

«و(الله) لو لا أن أهلكِ أخرجُوني منكِ (أي يا مكَّة) ما خرجتُ» .

وهو ﷻ (الودود) بالمؤمنين من الصحابة ~ بعد أن خرج الرسول ﷺ في غزوة (أُحُد) واستُشْهِدَ سبعون من الصحابة بقوله تعالى : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [آل عمران:140] .

وهو سبحانه الذي قال على لسان نبيّه (أيوب) عليه السلام : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء: 83، 84].

وهو – ﷻ – (الودود) الذي استجاب لنبيّه (يونسُ) عليه السلام ،إذ(ناداه –سبحانه– في الظُّلُّمات) في قلب الحوت وجوف البحر وظلمة الليل إلى جانب ظلمة المغاضبة ذاتها، بقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ [الأنبياء: 88].

وهنا نجد المدخل الأسمي إلى الاسمَيْن الكريميْن (الغَنِيُّ – الْـمُغْنِي).



سلطان

المبحث السابع عشر الغنيّ ـ المُغْنِي

فإن الاسم الأول وهو (الغَنِيّ) يقترن اقتضائيًا بالاسم (الحميد) لقوله -تعالى- المؤكد الصريح : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [لقمان: 26] ، ما يدلّ على كمال غِناه تعالى بذاته، وهو ما يتعلَّق مفهومًا بالصفة الخامسة في ترتيب الصفات وهي صفة قيامه ﷻ بنفسه، وقيام كل شيء به : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6] ، وقيامه – سبحانه – على كل نفس لقوله : ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ ﴾ [الرعد: 33] .

وقد أشير إلى هذا المعنى في الاسم (القَيُّوم)، ومتى كان غير محتاج إلى محل أو مُخَصِّص؛ ثبت غِنَاه بذاته وعدم افتقاره إلى سبب أو طبع أو عِلّة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

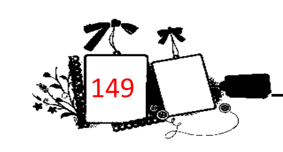
وقد جاء في كتاب (الجوهرة) [41] ما نَصُّه:

(وَمَنْ يَقُلْ بِالطَّبْعِ أَوْ بِالْعِلَّة فَذَاكَ كُفْرٌ عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّة)

لأن (الغنيّ) بذاته غير مُقَيَّد بطبع، فهو مُنَزَّه عن ذلك، وكذلك العِلَل التي هي أسباب الأشياء ومُقَدِّماتها، فهو تعالى مُسَبِّب الأسباب و(خالقها) دون أن يتقيَّد بأي وجه من الوجوه.

وحيث إن المراد المفهوم من الاسم (الغنيّ) ، هو عدم الاحتياج إلى شيءٍ أو إلى أحد؛ فقد تبيَّن أنه من أجل ذلك هو (المُغْنِي) ، الذي يفيض بكل شيء : ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 32].

(41) وهو كتاب (جوهرة التوحيد) للإمام الشيخ (برهان الدين إبراهيم اللَّقاني) ÷ وأرضاه، وهو مرجع مفيد في شرح عقيدة التوحيد واشتهر بين العلماء والمحققين باسم (الجوهرة) وصدر في شرحه العديد من الإصدارات .



وفيضه فضله الذي يُنْعِم بها يشاء منه (**على من يشاء من عباده**)، لا مستكرِه له ولا قاهر عليه ؛ لأنـه ﷻ (القادر – المقتدر): ﴿ **وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ** ﴾ [الأنعام: 18].

إنه – سبحانه وتعالى– يُغْنِي من يشـاء غنـىً روحيًّـا أو ماديًّـا، و(**يهـدِي مـن يشـاء**) مـن ذوي الاستعداد للهُدَى واللياقة له ، وهو–جلّ شأنه–(**يُضِلُّ من يشاء**)من غيرذوي الاستعداد للبصيرة والهُدَى، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ** ﴾ [فصلت: 17].

ومعنى﴿**فَهَدَيۡنَٰهُمۡ**﴾ هنا، دَلَلْنَاهم على طريق (**الخيروالشـــر**) ﴿**فَٱسۡتَحَبُّواْ**﴾ الثـاني وأعرضـوا عن الأول عامدين، و(**لو علم** (الله) **فيهم خيرًا**) لَهَدَى قلـوبهم وأسـمعهم مـا أنـار بـه بصـائرهم ببصائر آياته، كما قال على لسان (**موسى**) ﵇في مواجهـة (**فرعـون**) (**يـوم الزينـة**) في آخـر سـورة (**الإسراء**) : ﴿ **قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا** ﴾ [الإسراء: 102] ، أي مصروفًا ممنوعًا عن الخير(42).

و(**الآيات**) (43) هي المعجزات التسع ، التي أظهرها (الله)ﷻ على يدي نبيّه (**موسى**) ﵇.

وعلى هذا تتوجّه بصائر الآيات إلى بصائر المؤمنين ، والبصائر في قلوب المؤمنين (**التي في صـدورهم**) كـما أشـارت الآيـة : ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**﴾ [الحـج: 46] ، فـما استحبّت ﴿ **ثَمُودُ** ﴾ ﴿ **ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ** ﴾، إلا لأنها لا بصائر لها ولا ضمائر لـدى أهلهـا، فـأعمالهم هبـاء وأفئدتهم هواء وعقولهم خواء ، ولو أغناهم (المُغْنِي) من غِنَاه الواسع لاهتَدَوْا، ولو اهتـدَوْا مـا (**عَمُـوا**) ولا (**صَمُّوا**).

---

(42) **مثبورًا** : كما قيل في معناها ، قال (**ابن عباس**) : ملعونًا . وقال (**مجاهد**) : هالكًا . وقال (**قتادة**) : مُهْلَكًا .

(43) وللتذكرة نذكر الآيات التسع وهي : 1– أن تكون عصاه ﵇ حية تسعى . 2– أن تكون يـداه إذا أخرجها من جيبه مشعة بسناء قهار للأبصار . 3– الطوفان . 4– الجراد . == 5– القمل . 6– الضفادع . 7– الـدم . 8– أن يضرب الحجر بالعصا ، فينفجر منه اثنتا عشرة عينا . 9– أن يضرب بعصاه البحر فينفلق فيكون كـل فرق كالطود العظيم .

وعلى هذا يكون الاسم (المُغْنِي) هو المتجلِّي الذاتيّ للاسم (الغَنِيّ)، وحيث إن الغِنى يمنح العزة وينشئ دعائم الكرامة ؛ لِما يفيض على النفس من تجلِّيه الواسع العميم ، فإن ما يقابله هو فقر النفس واستشعار الحاجة إلى المعرفة ثم إلى المال ، فيعِزّ المال في النفس وبهذا تذِلّ النفس لشدة حاجتها إلى معبودها ، الذي هو المال والمتعلق بحوائج الدنيا.

ولذلك يقول المصطفي ﷺ : «**حبُّ الدنيا رأسُ كُلِّ خطيئة**».

وقد سئل عليه الصلاة والسلام عن الوَهْن في (**الحديث**) المشهور:

«**يُوشِكُ أن تداعَى عليكم الأممُ كما تداعى الأَكَلةُ على قَصْعَتِها، قيل: أمن قلةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنَّكم غُثَاءٌ كغُثَاءِ السَّيْل، ولَيَنْزَعنَّ (الله) من صدورِ عدوِّكُم المهابةَ منكم، ولَيَقْذِفَنَّ في قلوبِكُم الوَهْنَ، قيل: يا رسول (الله) وما الوَهْن؟ قال: حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت**»(44).

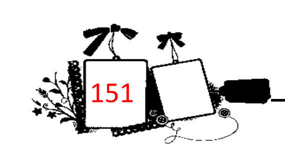
وهذا هو الذُّل الوجدانيّ أو فقر النفس والعياذُ (بالله) ،كما يكون انقباض اليد عن البسط والكرم وطلب المجد، وهذا هو (**شُحُّ النَّفس**) الذي يقول سبحانه فيه : ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: 9].

ولاَ تبْرَأ النفس من غرائز البُخْل، إلا إذا أدركتها العِزّة بالغِنَى الذاتيّ المُفَاض عليها به من (الغَنِيّ - الكريم) ، فتهُون الدنيا ويسهل البذل منها لتحرُّر القلب من عبادتها، بما غمره من حب الآخرة المُسْتَفاد من تجلِّيات الاسمين (الغَنِيّ المُغْنِي) .

وهذا لا يكون إلا أثرًا من آثار الإيمان القويّ العميق، الذي هو أصل العزة ثم يفيض منها على عباده الصالحين ~ أجمعين بقوله: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: 8].



(44) هذا (**الحديث**) لشهرته رواه أكثر المحدِّثين خصوصًا من (**مدرسة الخلفاء**) ، رُوِي عن (**ابن فُضالة**) ، عن (**مرزوق أبي عبد الله**) ، عن (**أبي أسماء**) ، عن (**ثَوْبان**) ~ ، عن (النبي) ﷺ ، وجاء في (**الطيالسي**) وهامش (**الطبراني**) ' .



وهو سبحانه القائل: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: 10]، فلا عِزّة بغيره ﷻ، وكل من: ﴿كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ فعليه أن يطلبها من مصدرها، فإنَّ مَنْ عَبَد الدنيا كان ذليلاً، ومن كَفَر بعبادتها كان عزيزًا؛ لأنه – متى كان عبدًا للدنيا– لا يكون محلاً لولاية (الحق) ودفاعه وعنايته ورعايته، وهذه هي ظواهر العزة الإيمانية.

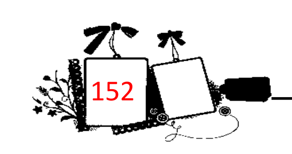
ولَمَّا كان من شأن (المُغْنِي) العطاء فهو أيضًا (المُعْطِي)، وهو الاسم المرادف للاسم (المغني)، والعطاء لا يخرج بنا عن تجلِّيات الاسم (البَاسِط)، ولكن عطاء (الله) ﷻ أعمُّ وأشمل مما يتصوَّر المتصورون وهو القائل: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: 39].

فهو يمنح الخلود والنعيم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: 5]،وهو سبحانه القائل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: 1].

ثم إنه –ﷻ– يبين بصراحة قائلاً: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: 18–20].

والاسم (المُعْطِي) اسم مُشْتَرَك بين القديم والحادث، فيسمَّى العبد معطيًا إذا كان جوَّادًا، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: 5–10]، وهذا من حق الحادث، أما القديم فإن حكمته في مقام (المُعْطِي) بالعطاء، تتلازم معها حكمته في مقام (المانع) بالمنَع.





وهنا يتعيّن عقد مربع لمقارنة مقامات الأسماء الأربعة : (الباسط – القابض) و(المُعْطِي – المانع).

فإن (المُعْطِي) مقترن اقترانًا ذاتيًا بالاسم (الباسط) ، إلا أنه –مع اشتراكه– يتعين في الغالب بالمِنَح الخالدة والعطاء الأبديّ، فإنه (**لا مانع لما أعطى ولا رادَّ لما قضى**).

ولكن الاسمين (القابض – المانع) لا يكونان من الأسماء المُشْتَرَكة ؛ فإن الإنسان لا يكون قابضًا إلا وهو مذموم، كقوله تعالى: ﴿ **ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ** ﴾ [التوبة: 67].

وهو –سبحانه– الذي نهى عن القبض في قوله : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ** ﴾ [الإسراء: 29] ، وَكذلك لا يكون الإنسان مانعًا إلا وهو مذموم أيضًا؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ** ﴾ [الماعون: 7] ؛ لأنهم (**المُراؤون الذين يُكذِّبون بالدين**) بنص السورة.

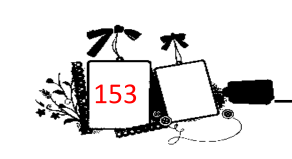
أما بالنسبة لذات (الحق)، فهوإنما يقبض لرحمة ويمنع لرحمة؛لأنه قد يكون في البسط شر مستطير فيتعين القبض لدفع ذلك الشر، وهكذا يكون الاسم (المانع) بمثل هذه الحكمة وهذه الرحمة؛ لأنه تعالى لا يمنع عن شُحّ ولا يقبض عن بُخْل؛ لعُمُوم رحمته وفُيُوض تجلِّيات أسمائه (الغَنِيّ – المُغْنِي) .

وهو القائلﷻ: ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا** ﴾ [المائدة: 64].

و(**الكُفْر**) هنا ليس فقط بالوحي وإنما بالنِّعمة التي أنعم (الله) بها على خلقه أجمعين، تشهدها الأبصار وتستشعرها البصائر لكل إنسان (**كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**).

ومن ثَمَّ ندخل مُباشرةً إلى الإسمْين الكريمْين (الضَّار – النَّافِع).





المبحث الثامن عشر الضَّار ـ النَّافِع

فنقول إن معنى الاسم (الضَّار) في تجلِّياته لا يكون جوابًا إلا على عمل منافٍ للنفع، يتجلَّى به على الذين يعملون على الإضرار بالناس فيَضُرّ بهم (**جزاءً وفاقًا**) و(**صدقًا وعدلاً**)، وقد يكون في التعجيل بإيقاع الضرر بهم –هنا– في الدنيا لأحد أمرين :

الأول : أن يكون (**تكفيرًا لذنوبهم**) فيما أحدثوا من أذىً وضرر للناس أو لأنفسهم،ويكون هذا التكفير في الدنيا رحمة للذين يعملون على الإضرار بالناس تعجيلاً لعقوبتهم ؛ لكي يتجنبهم من عذاب الآخرة.

أما **الثاني** : فقد يكون تجلِّي الاسم (الضار) (**انتقامًامنهم**) لا تمحيصًا ولا تخليصًا (**جزاءً وفاقًا**) كما أسلفنا، والمُرجَّح في تعيين أحد الأمرين يرجع إلى الاسم (العليم).

وكذلك فإن الاسم (النافع) غير مُشترَك؛ لانحصار النفع في ذات (النافع) سبحانه وتعالى ، و(**إن اجتمعت الإنس والجن لنفعك أو ضرك مافعلوا إلا ماشاء (الله)**) ، ويؤنسنا (**نص**) قوله تعالى : ﴿ **لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا** ﴾ [الرعد: 16].

ولا ينقص من هذا التقرير (**إسناد النفع إلى الإيمان**)، في قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [يونس: 98] ؛ لأن (الله) تعالى أسند موضوع النفع إلى ذاته سبحانه بقوله: ﴿**كَشَفْنَا**﴾ فهو ﷻ الذي (**كشف**) عنهم:﴿ **عَذَابَ ٱلْخِزْىِ** ﴾، والمقصود بقوله : ﴿**فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ** ﴾ هو كشف هذا الخِزْي.

و(الله) ﷻ –وحده هو بذاته– (الكاشف) لقوله : ﴿ **أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ** ﴾ [النجم: 57، 58] ، وقوله جل شأنه : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ** ﴾ [الأنعام: 17].

وقوله : ﴿بِضُرٍّ﴾ هنا يدل على تجلِّي الاسم (الضَّار) (تمحيصًا) لا انتقامًا، متى لاحظْنا أن المُخاطَب هو (النبي) ﷺ.

ثم قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: 214].

فهؤلاء الذين عصفت بهم: ﴿الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ وعذبتهم ، لم يكونوا محلاً للانتقام الإلهيّ من تجلِّي الاسم (المنتقم) ، ولكنهم كانوا محلاً للتمحيص، وهو التنقية من شوائب المادة وتصفية الروح في بوتقة المحن؛ لتدعيمها بمناعة الصبر، وناهيك عن الصبر وأهله ~ بنصَّ الكتاب : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10] .

فما وقع تجلِّي الاسم (الضَّار) على هؤلاء ؛إلا ليعطيهم في كل محنة نفحة، وفي كل ضُرّ نفعًا، ومن كل ألم رحمة ،ومن كل عذاب نعيمًا.

وعلي هذا يقول ﷺ:

«أَشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حَسْب دينه ، فإن كان في دينه صُلْبًا اشتدَّ بلاؤُه ، وإن كان في دينه رقَّة ابتُلِي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد ويتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » (45).

و يقول ﷻ في كتابه العزيز: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2] .

ويقول جل شأنه: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: 12].

(45) أخرجه (الترمذي) عن (مصعب بن سعد) عن أبيه ~ قال : قلت : يا رسول (الله) ، أيُّ الناس أشد بلاءً؟ فكان رد الرسول ﷺ هذا (الحديث الشريف) .

وبهذا التوُّكل يفيض (النور) من الاسم (الصَّبور) ؛ ليمنحهم المناعة اللازمة لقَبُول تجلِّيات الاسم (الضَّار) حتى على (**الأنبياء**) والمُرْسَلين أنفسهم، بل هم الأوْلى وبالذات عليهم السلام أجمعين ، وعلي تابعيهم إلي يوم الدين.

ومن ثَمَّ نرى المدخل الأجلي إلى اسم (**النُّور**) .

سلطان

المبحث التاسع عشر النُّور

وهذا الاسم الكريم هو الفيض الكشَّاف لغوامض الأشياء، كما أنه- من ناحية التشبيه - (القمر) المضيء لمسالك السائرين بالليل بين سباسب الحياة المترامية الأطراف : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: 5].

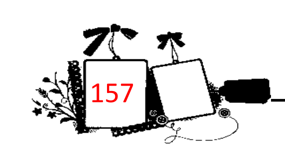
هذا فيما يتعلق بظاهر النص،أما باطن النص فالحقيقة أن تسمية (الله) ﷻ (بالنور)،ليس معناها الضوء أو السِّراج أو التشبيه بشمس أو قمر أو نجم أو أي شيء ، مما يقول عنه الناس فيما يعرفون: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: 180].

بل إن هذا المعنى في الاسم (النور)، يكاد يكون من عُمّال صفة الحياة وتجلِّيات الاسم (الحيّ) ؛ حيث إنه لا نور إلا في حياة ولا ظلام إلا في موت.

فإذا قرأنا: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 36] ، فإننا لا نفهم ما يراه السطحيون من أن (الله) -تعالى- مُنَوِّرهما فيما تدركه الأبصار، بل إن (النور) -هنا في باطن المعنى- هو سريان نور الحياة ، كما يقول بعض أصحاب الحكم: «الخَلْقُ كلُّهُ ظُلْمَةٌ، ولكنْ أناره ظهورُ (الحقِّ) فيه».

فبالنور -أي بتجلِّيات الاسم (النُّور)- يسري فيض الحياة سريانًا خفيًّا؛ فيكشف ظلمات الصدور كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: 22].





ولما سأل الصحابة الرسول ﷺ يا رسول (الله) كيف انشراحُ الصدر؟

قال ﷺ :

«إذا دخل النورُ القلبَ انشرحَ وانفسح، فلما سأل الصحابة : فما عَلامةُ ذلك؟ قال ﷺ : الإنابةُ إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهُّبُ للموت قبل نزول الموت » (46).

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122].

فهذا كله لا يعني الضوء بحالٍ من الأحوال، خاصّةً إذا لاحظنا أن البصيرة في (القلب) لا في (العين) وهو ﷻ يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، مبيِّنًا لنا أن البصائر وحدها ، هي التي تشهد ذلك النور الرُّوحيّ الذاتيّ المُسْتَمدَّ من الاسم (الحيّ).

لأن فيض الحياة نفسه ، هو ذلك النور الذي تشهده البصائر ولا تقع عليه الأنظارو(الأبصار)، وشتَّانَ بين عيون القلوب وعيون الرؤوس فيما به الناس يتكلمون : ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]، ولو أبصروا لَشَهِدُوا النور الإلهيّ يغمر (محمدًا) ﷺ ، ولآمنوا به وأسلموا له وهو سبحانه يقطع بالقول :﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].

ولمّا كان التعريف لمدلُول الاسم (النور) متعذِّرًا على مدارك العقول البشرية، ضرب (الحكيم) : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: 35].

(46) رواه (الطبري)÷ .

فكونه تعالى -باتساع نطاق البحث في مفهوم الاسم (النور)- ضرب له المثل وشبهَّه ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ ، وهي طَاقة مُقيَّدة في ذاتها، وأن هذه الطاقة المقيدة بذاتها ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ يُشِعّ لا يتقيد نوره بالطاقة وإن انبعث منها، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ شَفَّت وصَفَت ؛ فتجلَّى فيها صفاء نور المصباح ،﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾، من تعدُّد سطوحها وصفاء جوهرها، فيكون المصباح الواحد المتجلِّي في باطن الزجاجة الدرية إذا رُئِي من الخارج ظهر بذاته متعددًا ، بتعدد الأسطح الصقيلة على سطح الزجاجة الشفافة التي لا شائبة فيها، ثم قال متدرجًا عن مدد المصباح إنه : ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وفي قراءة أخرى : ﴿تَوَقَّدَ مِنْ شَجَرَةٍ﴾ إلخ الآية.

فمتى كان مصدر الاستمداد النورانيّ من شجرة مغروسة ثابتة على أصولها: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ ،أي ذات سريان لا يَنْفَد ومدد لا ينقطع، مُطلقة عن الجهات والحدود فهي: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ؛لأنها محيطة بالشرق والغرب وما دون ذلك وما وراءه :﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ السرمديّ :﴿يُضِىٓءُ﴾ موضِّحًا هاديًا :﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، و(**النار**) هنا هي العلة الباعثة للشعلة،التي بها يستضيء ذوو الأسباب، وهو فيض نورانيّ مُطْلَق متدفِّق ؛لأنه بالذات :﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

كَمَا فِي ليلةِ (المِعْراج) يبدُو	سَناهُ بَمشْهَدِ (الحَقِّ) الْمُبِينِ
تباركَ باسمِهِ بَرَأَ البرايا	ودُون مَرَامِهِ قَطْعُ الْوَتِينِ
تعالى عن مُطَاوَلةِ المعاني	وراءَ مدارِكِ (الرُّوح الأَمِينِ)
حجابُ (النورِ) كانَ به منيعًا	وتلك عقيدتي حقُّ اليَقِينِ

❋ ❋ ❋ ❋

ولذا قال الحبيب ﷺ: «**إنَّ (الله) لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينام ، يخفِضُ القسطَ ويرفعُهُ، يُرْفَعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ عملِ النهار وعملُ النهارِ قبلَ عملِ الليل، حجابُهُ النورُ لو كشفَه لأَحْرَقَت سُبُحات وجهِهِ ما انتهى إليه بصرُهُ من خَلْقِهِ**» (47)؛ وبهذا استحال الإدراك، و(**البحث في ذات (الله) إشراك**)، وإنما يدور البحث حول الصفات.

أما أن الزيت يكاد :﴿**يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ**﴾، فإن معناه عدم افتقاره ﷻ فيما يريد إلى الأسباب العادية ، التي هو في الواقع مسبِّبُها، والمسبِّب لا يتقيَّد بالسبب وإن جعله تابعًا للناموس الكونيّ.

ألا تراه سبحانه كيف خلق (**المسيح**) عليه السلام ، ومَثَلُه كمثل (آدم) عليه السلام ولكنه من غير أب ، فانقطع هنا السبب الطبيعيّ للخلق والتكوين؟.

وكذلك بَعْثُ بني (**إسرائيل**) بعد موتهم وراء نطاق الأسباب، وبَعْث (**عُزَيْرٍ**) عليه السلام بعد مائة سنة لم يظهر أثرها عليه حين البعث ، فقال : ﴿**قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ**﴾ [**البقرة**: 260].

وكذلك (**أصحاب الكهف**) ~ بعد ذلك، فلقد ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثة قرون وتسع سنين فلما بُعِثُوا قالوا : ﴿**لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ**﴾ [**الكهف**: 19].

ففي هذه الأمثلة –وغيرها الكثير والعديد– دليل واضح على عدم تقيُّد (المُريد) ﷻ بالأسباب في تنفيذ مُراده ومشيئته، متى شاء ذلك لمعجزة أو نحو ذلك، مما يكون موضوعًا للرد على التحدي ،أو إظهار فضل من تقع على يديه المعجزة من المُرْسَلين أو الصالحين والكرامة من الأولياء.

فقوله تعالى:﴿**يَكَادُ**﴾ من قبل المقاربة ﴿**يُضِيٓءُ**﴾ هوذلك النور الذي يفيض فيما وراء الأسباب، وقد أشار إلى ذلك في قوله : ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ**﴾ [**البقرة**: 282].

(47) رواه (**أبو موسى الأشعري**) وورد في (**صحيح مسلم**) رضي الله عنه .

ولا يكون ذلك إلا بتجلِّيات الاسم (النور) بالفيض الإلهيّ الأعلى الذي لا يتوقَّف على سبب عاديّ، ولكنْ جعل -سبحانه- (**التقوى**) بمثابة تهيئة الاستعداد لتلقِّي ذلك الفيض النورانيّ؛لأن العلم نور، وهذا النور هبة من (الله) تعالى ، لا يستحقها العُصاة.

كما قال الإمام (**الشَّافعيّ**) ÷ :

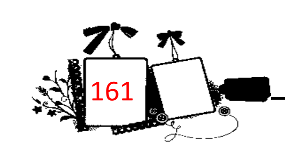
(شَكَوْتُ إلى وكيعِ سُوءَ حِفْظِي	فأرشَدَني إلى تَرْكِ المَعَاصِي
وأخْبَرَنِي بأن العِلْمَ نورٌ	ونورُ (الله) لا يُهْدَى لعَاصِي)

ومن أجل ذلك، ناسَبَ أن يقول تعالى : ﴿ **فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ** ﴾ [النور: 36] ، أي لأنها : ﴿**يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [النور: 36، 37].

وهكذا بيَّن في هذا (**النص**) المُبِين فضله على أوليائه مع انقطاع الأسباب، وهو ما يعنيه قوله تعالى: ﴿**بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، وهكذا أجابت (**البَتُول**) ' عندما سألها (**زكريا**) ﷺ عن الطَّعام، الذي كان يجده عندها دائمًا ولا يعلم له سببًا عاديًّا: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران: 37].

وهذا كله داخل في تجلِّيات الاسم (النُّور) وقد اختُصّ (النور) بالأثر المترتب عليه وهو حصول الهداية لمن استنار به، ويُلاحَظ اقتران الهداية بالنور في اقتران الاسم (النور) بالاسم (الهادي).





ولما كان الاسم (النور) اسمًا غير مُشْتَرَك ،حصرت (الآية) الكريمة : ﴿إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 73]، و(الآية) : ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 71] ، تجلِّي الفيض النورانيّ في الذات الإلهية وحدها، كما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56] أي (هداية الإلهام) والنور الماديّ.

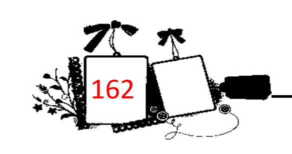
ثم أضاف إلى نبيه ﷺ (الهداية إلى الصراط المستقيم) بمعنى الإرشاد والدلالة بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: 52] ، ولن يكون ذلك إلا بتجلِّي الاسم (الهادي) ، الذي يتجلَّى به على خواصّ عباده الذين هَدَاهم، وأمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: 90] ؛لأنه جميعه من تجلِّيات ذلك الاسم ، فهو أيضًا ﷺ (الهادي).

والاسم (الهادي) ليسَ كالاسم (النور) ممنوعًا من الاشتراك، بل هو اسم مُشْتَرَك بحكم فيض التجلِّي وبحكم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7] ، متى وُجِد الاستعداد لقبول الاستمداد بالهداية، فإنه عند انعدام الاستعداد ينقطع الإمداد ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17].

إذًا فهو لا يليق إلا بالتقوى وأهلها كما قال تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1، 2] ، الذين يستمدون النور من فيضه، فكانوا جديرين بأن يكونوا –هم أنفسهم بتقواهم وإيمانهم– نورًا، كما كان (محمد) ﷺ نورًا (يهدي إلى صراط مستقيم).

وقد أجمع أهل العلم ~ على أنه ﷺ هو المقصود بالنور الثاني في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾، أما النور الأول فهو التنزيل النورانيّ الأعلى على قلب الرسول الكريم :﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 35].

وفي كل هذه الأمثلة –وغيرها كثير– اقترن الاسم (النُّور) بالاسم (الهَادِي) ؛ ولذلك اتخذنا شعارنا الجامع للبركات: (الله– النُّورُ– الهَادِي).



ومن باب الإشارة: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ المقصود النور لا المثل: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، فالكاف للتشبيه ليكون قد شَبَّه (المَثَل) ولم يُشَبِّه (النُّور)، وحيث إن المعلوم من الاسم (المشكاة) أنها الطاقة أو الكُوَّة، فالإشارة تُشْعِرنا بأن الطاقة هي المصدر -أي صدر المؤمن- وأن:﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ فإن (المصباح) قلبه، و (الزجاجة) الصافية هي عقله على ما فيه من تعدُّد الاتجاهات والزوايا، كأنه: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ يُلْقِي بأشعته الدرية على ظلمات الظنون والمشاكل والمُعْضِلات، مستمدًا من نور الهداية الإلهية: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: 36]؛ لتنكشف مُبْهَمات الأمور وتنحلَّ عقد مُعْضِلاتها؛ ولذلك يقول لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: 108].

وحيث إن القلب يستمد من الفيض الأقدس، وهو فيض سرمديّ؛ فقد قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: 36]، وهذا القول استمرار لتشبيه المثل، فإنه المعهود عند المخاطَبين من العرب؛ لأن زيت (الزيتون) هو أصفى مادة ضوئية لها سريانها وصفاء لونها وانعدام الدخان الأسود من احتراقها: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ لأن (الشرق والغرب) نِسْبتان، ولا محلَّ للنِّسب والإضافات في باب الإطلاق، وأصحاب هذه القلوب المشرقة بذلك النور يتمتعون بالهدى من تجلِّيات الاسم (الهادي)، المقترن دائمًا بالاسم (النور) فهم على بصيرة، (يمشون بها في الناس) ويدفعون بها الشك والالتباس.

جعلَنا (الله) ﷻ وإياكم من أهل هذه الهداية الخالدة، الذين هم بهذه الخاصَّة أحق وأولي:﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: 76]، والزيادة إشارة إلى سرمدية الإمداد الأعلى، وبزيادة الهُدى (يزداد الإيمان عند المؤمنين)، كما يدل قوله سبحانه: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: 32].

والإيمان من شأنه أن يُهيِّئ الاستعداد لتجلِّيات الاسم (الهادي)، كما قال سبحانه: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: 9].

فَعلِمنا مما تقدَّم كيف يمكن أن يكون ما جاء من (**باب الإشارة**) أعمق مما جاء في (**حكم العبارة**) ،مما يقوم عليه الدليل :﴿**وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: 4].

ولا يفُوتنا أن نشير إلى أن القَيد المُنْصَبّ على (النور) المضاف إلى (الله) سبحانه وتعالى (**بالسموات والأرض**) في قوله ﷻ:﴿**ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [النور: 36] ، إنما هو قيد غير مُراد ، إلا لأن السامعين لا عمق لهم في الشئ الكبير إلا بالسموات والأرض ، ولكنَّ (الله) تعالى (نور) كل شيء في الدنيا بسمواتها وأرضها، بل أقول بالكون كله أعلاه وأسفله وما وراء ذلك مما لا يحيط به العارفون، كما يقول تعالى: ﴿**فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الحاقة: 38، 39].

ويعجبني في هذه المناسبة أن أُورد قول (**ابن عطاء الله السكندري**) في حِكَمِه :

(إذا اعتادت النفوسُ على تركِ الآثام ، جالت الروحُ في ميادينِ الملكوت وتعودُ إلى صاحبها مُحَمَّلةً بطرائف الحِكم؛ فيعلِّمَهُ (الله) من غير معلِّم ؛ فينطقَ بالحكمةِ ويتكلمَ بالنور) ؛ لأن قوله هذا ÷ يطابق قول (الله) تعالى : ﴿**وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: 52].



والاسم: ﴿**عِبَادِنَا**﴾ في (**الآية**) لا ينحصر في سُكّان السموات والأرض، فإذا قال ﷻ عن السموات والأرض إنه (نورها) فإنه لا يعني أجسام الكواكب ولا دوائر الأفلاك ولا جسم الأرض، وإنما يريد بالنور مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض، ثم ما في السموات وما في الأرض؛ لأن هذا الأخير المُشار إليه بـ (ما) إنما يُراد لخدمة الذين يشار إليهم بـ (من).

فكل ما في السموات وما في الأرض مُسَخَّر لمن في السموات ومن في الأرض، فالآية -في الغالب - آية إحاطة لنورانية وحيوية وتكوينية، ومن ثَمَّ لا تنحصر في السموات والأرض وحدهما، بل هي شاملة كاملة سرمدية لا نهاية لها، حيث يُسْتَمد مفهومها العمليّ في الدنيا والآخرة :﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ** ﴾ [إبراهيم: 48].

ألا تري يا أخي أنه ﷻ هو: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالروح والهداية والإمداد والكفالة والرعاية والعناية ، وهي صفات وقُوى شتَّى لا انقطاع لها في الدنيا ولا في الآخرة ؛ فيكون ذلك مطابقًا لواجبات التقديس والإطلاق بالنسبة لأفعاله سبحانه وتعالى.

فلا تُعَطَّل صفة من صفاته ، ولا ينقطع مدد من إمداده ، ولا تُفْصَم عُرْوة من عُراه ؛ لأنها : ﴿ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 265].

وهل ينتهي إمدادُهُ وهو (دائمُ) ... ويُدْرِكُهُ الإعياءُ وهو (قديرُ)

ويسألُهُ مَنْ في السمواتِ فضلَهُ ... ومَنْ في الثَّرى والكلُّ وهو (خبيرُ)

ومن ذا الذي يُحْصى عطاياه بالنَّدى ... ومَنْ دُونَهُ بين العبادِ (بصيرُ)

وهل غيرُهُ يعطيك علمًا وحكمةً ... وأنت سميعٌ باسمِهِ وبصيرُ

وحَوْلَكَ آلافٌ يَؤُودُكَ عَدُّهَا ... ومِنْ حولِهَا نارٌ تُشَبُّ ونورُ

وهيهاتَ للفاني وإن شفَّ عقلُهُ ... إحاطةُ علمٍ والحدوثُ قصورُ

* * * *

إن السلامة –يا أخي– من مزالق الزَّلَل ومهاوِي الخطأ والخَطَل هي التي تضع أمام العقل الرياضيّ الحدود التي يجب أن يقف عندها بحثه، وينتهي إليها استِقْراؤه ودراسته ؛ فإن في ذلك الأمنَ من الزندقة والنَّجاةَ من (**الإلحاد في الآيات**) والتعامي عن البَيِّنات.

لأن الذين (**لايفقهون**) هم دائمًا (**في طُغيانهم يعمهون**)، والطُّغْيان تجاوُز الحدّ في جَبَروت وكبرياء، ومن الكبرياء محاولة الإحاطة بسر (النور).

فإن ذلك السِّر هو الحد الذي (**تحترق عنده الملائكة**) –كما ورد عن (**جبريل**) عليه السلام (**ليلة الإسراء**)– إذا حاولت أن تتخطَّاه أو تتعدَّاه، فما بالك بالإنسان؟!.



على أن (الله) ﷻ اختصَّ فردًا واحدًا في العالَمين ﷺ ؛ لكيلا يتقيَّد عن الانطلاق وراء حجاب (النور) الأقدس، وكان بها أحق وأحرى : ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: 23].

وقد جاء إلينا وأشرف علينا وحذَّرنا من التعَمُّق في استكناه ذات (الباري) سبحانه وتعالى بقوله ﷺ: « **تفكَّرُوا في مصنوعاتِ (الله) ولا تتفكَّرُوا في ذاتـِهِ**» [(48)]، وبهذا يكون ﷺ قد أطلق للبصائر حق إطلاق النظر في تجلِّيات أسمائه ﷻ وصفاته.

والصفاء شرط في توجُّهات المُصْطَفَين الأخيار~ ، فهم صَفْوَتُه من خلقه يُرِيهم ما يشاء من بدائع مصنوعاته ومُتْقَنات مخلوقاته.

(اللهم) إني أسالك بعظمة ذاتك ومشاهد أسمائك وصفاتك، وبجميع تجلِّياتك أن تصلِّي وتسلم علي سيدنا (**محمد**) ﷺ ،صلاة وسلامًا دائمين بدوامك باقيين ببقائك ،وأن تمنحنا من صلاتك وسلامك عليه وآله صلاة **تُخرجنا** بها (**من الظلمات إلي النور**)،وأن تمنح أبصارنا من بصائر آياتك وجليل بيِّناتك مايكشف عن قلوبنا وأفئدتنا غياهب الجهالة وظلمات الضلالة،إنك سبحانك (بارئ) النسم، (العادل) في كل ما قسم.

و هنا يتجلي لنا المدخل اللائق لتجلِّيات الاسم (**البديع**).



(48) وقد وردت الروايات «**تَفَكَّروا في خَلْق (الله) ولا تَفَكَّرُوا في (الله)**» رواه (أبو نُعيم) في (الحِلية) عن (ابن عبَّاس) ، ورواه (ابن أبي شَيْبَة) في كتاب (العُرْس) له من قوله عن (ابن عباس) بلفظ «**تفكَّروا في كل شيء ولا تفكَّروا في (الله)** » ، و(لأبي نُعيم) عن (ابن عباس) ~ أجمعين أنه ﷺ خرج على أصحابه فقال : ما جَمَعكم؟ فقالوا : اجتمعنا نذكر (ربنا) ونتفكر في عظمته فقال : «**تفكروا في خلق (الله) ولا تتفكَّروا في (الله) فإنكم لن تَقْدُرُوا قَدْرَه** » (**الحديث**) .

المبحث العشرون البَديع

لقد كان (**الحَسَن بن هانِئ**) المُلَقَّب بأبي نُوَاس ، موصوفًا بالخلاعة والتهتُّك، وكان زهرة الأدب العربيّ في عصر (**العباسيين**) وفي عهد (**الرشيد والأمين**)، وكانت الدولة في يَفَاع بذخها وقمة حضارتها، ومع هذا كان الرجل رحمه الله بصير القلب، انطلقت مشاعره في مُشَاهدة تجلِّيات الاسم (البديع) حتى أنه انتهى به تأمُّله العميق إلى حقيقة التوحيد حينما قال:

(تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وانْظُرْ ... إلى آثَارِ ما صنعَ (المليكُ)

عيونٌ من لجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بأحداقٍ هي الذهبُ السَّبِيكُ

على قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بأنَّ (الله) ليسَ لَهُ شَرِيكُ)

ويبدو أن هذه المَزِيَة رشَّحت (**أبا نُوَاس**) للعفو الإلهيّ؛ فقد رآه أحد الصالحين في رؤيا برزخية منامية يَرْفُل (**في سُندُس وإستَبْرَق**) وفي مِعْصَمَيْه سواران من ذهب مشرق منير، فقال له: ويحَك يا خليع!! بِمَ بلغْتَ هذا؟!.. إلخ ما أوردنا بهذا الصدد عند ذكر العفو الإلهيّ والمغفرة الربَّانية.

ومن هذه الرواية نستطيع أن نقول إن ذَوِي البصائر هم أخصّ عِبَاد (الله) في مُشَاهدة تجلِّيات الاسم (البديع) فهي كتاب يطالع البصائر بالبصائر ويُرْشِد التائه والحائر.

ولِمَ نذهب بعيدًا؟!

فانظر يا أخي بنور البصيرة في نفسك أنت أولاً، ألست مُتْقَنًا؟.. ألست سميعًا بصيرًا؟ ..ألا ترى التناسُب بين حاسَّتَيْ الذوق والشم والتعاون والتكامل بينهما؟ ..ألم تعلم أنك تحوي جميع الطُّعوم؟.. فدمعك مِلْح! وريقُك عذب! ومخَاطك حامض مائع! وغطاء سِمَاخ أذنك مُرّ! وخلاصة الدم حلوة!.. وهي (**السُّكَّرُوز الخُلَاصِيّ**) لجميع المآكل مع اختلاف طُعومها! ..

ألا ترى في تكوينك جميع العناصر المركَّزة في كوكب الأرض؟!..

ذلك الكوكب الذي تقوم علـى خدمتـه جميـع المُـدَبِّرات العليـا والمُقَسِّـمات الفلكيـة والـدورة الشمسية بأسرها.

وقد بيَّن ﷻ أنه هوالـذي: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: 7] ، وكـذلك قـال تعـالي : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64].

وهذا كله من تجلِّيات الاسم (البديع).

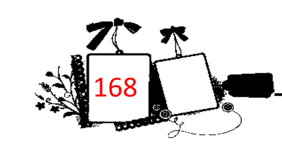
والأصل في الإبداع، هو البدء والتكوين والتصوير على غيرِ مِثَال سَبَق، فبدأك كائنًا وأبـدعك : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 8].

ولا يتم ذلك الإبداء والإبداع إلا إذا كان (الخَلَّاق) (بديعًا)؛ فإذا كان مجرد التكوين لذاته هـو الخلق ، فإن تحسين هذا الخلق أو إحسانه وإتقانه، وتناسب أعضاء المخلوق وقسماته وتمييـزه عـن كل ما سواه، إنما يكون أثرًا لتجلِّيات الاسم (البديع) استقلالًا وتفرُّدًا.

وعلى المرء -متى آمن- أن يكون نظره إلى (**آيات**) (الله) تعالى في كل شيء خلقه ، نظرًا يُفَرِّق بـه بين تكوين الشيء من مادته وبين إبداع صورته على ما أشرنا إليه من التَّنَاسُـب والتَّنَاسُـق ؛ لكـيلا يخلط بين تجلِّيات الأسماء ، التي تختلـف بـاختلاف ظـواهر وطبـائع وصـور الكائنـات ، والعِلَـل الوجودية وراء كلٍّ منها، ومدى الكمال المُرْتَقَب لكل شيء خلقه وبَرَأه وأبدعه ﷻ .

كذلك يلزم ملاحظة استمرار الشيء أو المخلوق الحـيّ إلى أجلـه ، وهـذا الاسـتمرار في الـنماء والتقدم وانتظام التطور يقتضي بذاته استمرار القوة الدافعة إلى الشيء في طريق كماله وبُلُوغ غايته ، وهذا الاستمرار لا يتحقَّق إلا إذا كان المُمِدّ مستمر الإمداد ، واستمرار الإمداد من تجلِّيات الاسـم (الباقي).

ومعنى الاسم (البديع) في اللُّغة ، هو المُبْدِع للأشياء بلا اقتداء ، أي بلا خلق سـبقه للتشـبُّه بـه والتمثُّل بسِماته.



فإن (البديع)- ﷻ عن المثيل أوالند أوالشريك - هو الذي لا نَظير له في ذاته وصفاته ، يُظْهِر عجائب صَنْعَته في خلقه ومُلْكه ومَلَكُوته وعوالمه ، وما نعلم وما لا نعلم من مخلوقاته وأسراره وبالغ حكمته.

ولذلك يُبَيِّن ﷻ قدرته المُطْلَقة في خلقه ، حين يقول: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: 117] ، ويقول عَزَّت مشيئته وجلَّت قُدْرته : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام: 101] ، وحين يدعو أصحاب النُّهى من الناس أن يَتبصّروا آثار إبداعه في أرضه وسمائه في قوله ﷻ: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾ [ق: 6] ، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ [الملك: 3، 4] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: 22] ، بعد أن قال في نفس سورة (الروم) : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21] ويتبصّرون في صفحة الكون ، يستشرفون (**آيات**) إبداعه - ﷻ - غير المتناهية؛ لقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: 47] .

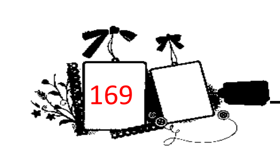
والأَيْد هو القوة **(49)** والعون والتأييد ، من تجلِّيات الاسم (المعين) .

والدعم بالقوة لا يأتي إلا من تجلِّيات الاسم (القويّ) .

وهو ما يقودنا بلطف إلي الاسم (**الباقي**).



(49) ويقال (رجل أيّد) بمعنى قويّ مُعين .



المبحث الحادي والعشرونالباقِي

وهو (الدائم) الوجود بعد كل شيء بلا انتهاء ، وهو الذي لا يقبل الفناء ، فهو (الأوَّل) بلا ابتداء ، وهو (الآخِر) بلا انتهاء.

والاسم (الباقي) مُشْتَقّ من صِفة البقاء؛لأن الذي له صفة البقاء (باقٍ) لا محالة بلا انتهاء ولا انقضاء ، ولولا هذا البقاء لانقطع الإمداد بالقُوَى ، وترتب على هذا الانقطاع المُفْتَرَض فناء العالم وانقطاع تيار الحياة.

وحيث إن هذا لم يقع ولم يكن ولم يحدث ، وحيث إنه ﷻ جعل لكل شيء حدّه وقَدْره وزمنه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: 99] ، فإن (مدبِّر) الكائنات و(خالقها) و(بارئها) و(منشئها) تكوينًا ، ومُحَسِّنها إبداعًا (إله) (باقٍ)،يتجلَّى اسمه (الباقي) على كل شيء، حتى **(يُتِمّ أَجَله إلى مَعَاد)** ووقته إلى ميعاد وكتابه المعلوم أزلاً.

وإن الاستدلال على البقاء ببقاء العالَمَ إلى الآن ومنذ الآماد ، التي لا يمكن تحديد ابتدائها استدلال ثابت بعدم زوال الكون وعدم فساد نظامه، وباستمرار عمليات النواميس الكونيَّة وطبائع الأشياء دون انحلال أو توقُّف.

فلا محلَّ لزعم زاعم أنه ليس (باقيًا) متى ثبت قِدَمه ؛ لأن القِدَم والبقاء صفتان أصليتان لذاته ﷻ ، فالقديم (الباقي) أزلاً وأبدًا هو (الله) تعالى .

وأما الممكنات فهي -كما قدَّمنا- موجودة بوجوده جل شأنه ، في وجودها الممكن الذي ليس قديمًا بل هو حادث ؛ فلزم أن يكون القديم الأزليّ المنفرد -بهذه الصفة وهذا الاسم- (باقيًا) أبديًا ،لا يزول ولا يتحوَّل ولا يطرأ عليه تغيير أو تبدُّل كما في **(الحديث الشريف)**: « **كَانَ (الله) ولا شيء غيرهُ ويبقى (الله) ولا شيءَ غيرُه** » (50) فهو تعالى على ما هو عليه.



(50) فاعلم أن الجهات والأوقات والزمان والحدود والمكان مِن المخلوقات والحوادث، والتي لم تكن ثم أوجدها (الله) تعالى وخلقها من عدم وهذا ما أجمع عليه (أهل السُّنة) ، ونقل عن (علي بن أبي طالب) قوله : « **كان (الله) ولا مكان وهو الآن على ما هو عليه** » .

وهذا من باب الأَوْلى ، متى لاحظنا أن سُنَّته ذاتها لا تبديل لها ولا تحويل، كما قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

وهو القائل سبحانه : ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: 27].

كما انه هو القائل جلَّ شأنه : ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: 73].

والأزليّ هو ما لا يكون مسبوقًا بالعدم ، ويُخْتَصّ (الله) وحده بهذه الصفة، كما أن كل شيء يستولى عليه الفناء ويلحَقُه الهلاك ؛ لقوله ﷻ :﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: 88].

ولأنه –سبحانه وتعالي– (الواجد الموجود) حيث لا مكان ؛ وليس لوجوده ابتداء كما ليس لوجوده انتهاء ؛ فهو (الباقي) وسِمة الحادثات جميعًا –دونه ﷻ الفناء ؛ ناسب أن ننتقل مباشرة لتجلِّيات الاسم (الوارث).



المبحث الثاني والعشرونالوارث

فإن (الباقي)لابدأن يكون (وارثًا)، وإن لكل وارث موروثًا وموَرِّثًا : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 27] ، وكذلك : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النجم: 31] ، وأيضًا : ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: 10] ؛ لأنه (مالك الملك): ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123] ، وإليه المرجع والمآب.

وهذا المجموع مندرج في مفهوم الاسم (الوارث)، متى وقع كل شيء في مُلكه : ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67].

ولكنه ليس ميراثًا بمعنى أيلُولة مِلْك الغير إلى الوارث من المورِّث ، كما هو الشأن في عالم الحوادث ولُزوم المصير ؛ لأنه من:﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[**غافر**:3] ، وما من شيء فيما صار أو من صاروا إليه خارجًا عن مُلْكه أو بعيدًا عن نطاق حُكْمه ؛ إذ (**لا راد لقضائه ولا مُعقِّب لِحُكْمِهِ**) :﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1].

ولنا هنا أن نلاحظ أن الاسم (الوارث) من الأسماء المصدرية– كالاسم (الصَّبُور) والاسم (المؤمن)– وإليه يستند (**توريث كل موروث**) ،كما أجمعت عليه (**آيات**) الكتاب الحكيم في مثل قوله جلَّ شأنه : ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [**الأعراف**: 137] ، وقوله تعالى في (**المعنويَّات**) أيضًا : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: 16] ، وفي(**مجْمَع المعاني والمواد**) قوله جلّ شأنه : ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: 74] ، وفي (**الكلية المصيرية**) قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40] ، وحيث إنه ﷻ إليه المصير والمآب ؛ فلا غَرْو أبدع ما خلق وأتقن ما كوَّن وأحسن ما صوَّر.

ويجمُل بنا في هذا المقام أن نلاحظ الاقـتران بـين الاسـمين الكـريمين (المصـوِّر- البديع)وعلاقـة اقترانهما بالاسم (الوارث) ، فمتى كان (الوارث) (لطيفًا خبيرًا سميعًا بصيرًا حكيمًا غفـورًا) ؛لَـزِم أن يكون الموروث لائقًا لهذا (الوارث) الأعظم.

على أنه قد يكون فرق واضح بين مجرَّد التصوير من تجلِّيات الاسـم (المصـوِّر) ، والإبـداع مـن تجلِّيات الاسم (البديع) ، فقد توجد صور رهيبة لا يُلاحظ فيها معنـى الإبـداع والحُسْـن كصُـور الوحوش والضواري والدواب والزواحف والحشرات.

فهذه ينفصل فيها (المصوِّر) عن (البديع) ؛ حيث لا يتَّصل الاسمان (المصوِّر - البـديع) اقترانًـا إلا في كل صورة تتَّصِف بالحُسْن، الذي هو من تجلِّيات الإبداع وليس مجرد التصوير، يكون إبداعًا متى تجرَّد عن التأثير الجاذبيّ لنفس الإنسان.

وهذا المقام من الدقة بحيث لا يلمحه إلا من شاء (الله) له أن يبلغ مرتبة المتوسِّـمين ، والجمـع بين تجلِّيات صُوَر **(الجلال والجمال)** مرجِعُه إلى **(المجد الأعلى)**، الذي هو الجامع لجميع الشئون.

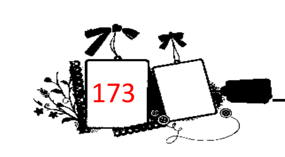
و(الوارث) -جلَّت ذاته- هو (الباقي) بعد فناء الخلق ، فإليه ترجـع جميـع الأَمْـلاك بعـد فنـاء المُلاَّك.

وهو سبحانه القائل في سورة (الحجر): ﴿ **وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ** ﴾ [الحجر: 23].

وفي سورة(مريم): ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** ﴾ [مريم: 40].

وفي (القصص): ﴿ **وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ** ﴾ [القصص: 58] .

وفي (الحديد) يقول ﷻ : ﴿ **وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ [الحديد: 10].



تبارك وتعالى وتقدست ذاته وصفاته وأسماؤه، مسير الرِّكاب إليه ومصير الأمم بين يديه ، إليه يُرجع الأمر كله ومنه ابتدأ ؛ فهو(المبدئ- المعيد) وهو (الوارث -الرشيد) .

سبحانه (**لا (إله) إلا هو يُحي ويُميت وهو على كل شيء (شهيد)**).

وهنا يجدر بنا الانتقال إلي تجلِّيات الاسم (**الماجد**).



المبحث الثالث والعشرون الماجد

وهذا (الماجد) هو (الواجد) مصدر كل موجود ومُبْدِع كل مشهود، يسري سِرُّه في كل والد ومولود.

والأصل في اللغة للمجد أنه الكرم ، ومنْ ثَمَّ فإن الاسم (الماجد) هو اسم فاعل من المجد وهو الكرم ، ويكون (الماجد) مقارِنًا للاسم (الكريم) ومصدرًا لجميع مكارمه ، فيكون الاسم (الماجد) أساسًا ، ويكون الاسم (الكريم) بناءً يقوم على هذا المجد.

و(الماجد- الكريم) يبدو أثره في مَنْح الوجود أولاً، وهو أثر تجلِّيات الاسم (الواجد) بمعنى (الخالق- البارئ) ، ونعمة الوُجود - في حد ذاتها- برهان ماديّ على كرم (الكريم) وعلى مجد (الماجد).

فإذا قلنا: إن مجرد الوجود بعد العدم مجد وكرم ، قرَّرْنا بعد ذلك ما في الوجود الإنساني ذاته من قُويً ومدارك ، جعلته ليس (موجودًا) فحسب ، بل هو مجلىً لصفات من أوجد الإنسان سميعًا بصيرًا متكلمًا خبيرًا عليمًا حكيمًا حسَّاسًا درّاكًا واعيًا يقظًا، وهذه كلها نِعَم مستقلة بذاتها تُضاف إلى نعمة الوجود، بمعنى مجرَّد الإيجاد من عدم.

فلو فرضنا أنه أوجد إنسانًا أصمَّ أبكم أعمى مُقْعدًا، فإن وجوده لا يكون نعمة عليه بل يكون عبئًا ثقيلاً يتبرَّم به ويتأذَّى منه ويتمنَّى زواله، وبهذا نكون قد عَرَّفنا الفرق بين مجرد الوجود، وبين نعمة ما أفاض ﷻ على هذا الموجود من صفات وقُوى وحواس ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ



بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78].

وهي أمانات إلهية استودعها – سبحانه – (**الإنسان**) ويجب عليـه أن يؤدِّيهـا إلى أهلهـا، وهـذه (**الأمانة**) هي التي أشار إليها قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ [الأحزاب: 72] ، أي كان (ظلامًا لنفسـه) بإهدار تلك الأمانة ونسيانه سؤاله عنها يوم العَرْض على (المَلِك)، (**جهولاً بقدر نفسه**) التي امتـازت بحمل هذه (**الأمانة**) على (**السَّموات والأرض والجبال**) التي لا اختيار لها، بينما هو لا إكراه عليـه مـع وجود القِسْم الاختياريّ وهو أساس كَسْبه ؛ إذ إنه لا يخلُق أفعال نفسـه: ﴿ **بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ** ﴾ [القيامة: 14، 15]، وهو مسئول دائمًا عن اسـتخدام (**الأمانـة**)– التـي هـي امتيـازه العقليّ– مسئولية يقول تعالى فيها: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ﴾ [الإسراء: 36].

ولو لم تكن (**أمانة**) ما سُئِل عنها ولا حُوسِب عليها، وعلى هذا يكون مجرد الوجود من غير حَمْل هذه (**الأمانة**) غير مُراد لخليقة (الله) في هذا الكون، ومن نعمة (الله) تعالى إيجاد وتكـوين الأشـياء والحيوان غير العاقل، وتذليله للإنسان المُختاربالأمانة، وهو مسئول عما يحدُث من أنعامـه ودوابّـه من ضرر للغير؛ لقوله ﷺ: «**جُرْحُ العَجْمَاءِ جُبَّار**» [51] أي يلزم عنه التعويض والقَـوْد عـلى عاقـل العجماء أو صاحب البهيمة شرعًا.

فنلاحظ هذه المسألة الدقيقة في الفرق بين الأسماء (الخالق– البديع) ، كما يلزم التمييز بين قوله تعالى : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ** ﴾ [البقـرة: 29] ، وقولـه تعـالى: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ [الرعد: 15].

(51) رواه (**أبو هُريرة**) ﷺ ونصُّه أن رسول (الله) ﷺ قال : «**العَجْمَاءُ جُبَّار والبِئْرُ جُبَّار والمَعَدِنُ جُبَّار وفي الرِّكَـاز الخُمْس**» وورد في بعض الروايات «**جرح العجماء جُبّار**» . والجُبَّار بمعنى=

= المجبور الذي لا دية له ولا قيمة والعجماء هي الدابـة ؛ لكونها لا تُعْرِب عـما في نفسـها . والركـاز يطلـق عـلى المعدن ؛ لأنه مركوز في الأرض . والخُمس هو الحصة التي تؤخذ مما لا عناء في تحصيله وهـو تـابع للغنيمـة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ [الأنفال:41] .

فإن الساجدين العُقَلاء: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الرعد: 15] ، هم الذين خلق (الله) لهم ما في (**السموات**) وما في (**الأرض**) وهذا حد الخلق ، أما ما هو فوق مجرد حد الخلق والتكوين ، فقد بيَّنه -تعالى- عندما قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20] ؛ لنعلم الفرق بين الخلق المتعلِّق بالسموات والأرض المخلوقة للعاقل ، وبين ذات العقل وما إليه من الحواسّ المتعاونة معه ، والتي هي أشبه بنوافذ يشرف من خلالها العقل على مجموع ما في السموات وما في الأرض.

وهذا ما نصَّ عليه قوله ﷻ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53].

وفي الأمر الصادر لقوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 101].

ثُمَّ بتنديده -سبحانه- بالتخلُّف عن النظر في ملكوت السموات والأرض بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 185].

ومن مُجْمَل ما ذكرنا نعلم أن الفضل الإلهيّ في كشف ملكوت السموات والأرض لخليله -ﷻ- (**إبراهيم**) عليه السلام ،كان منحصرًا فيه لرسالته ونبوته ومكانته ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: 75].

بل جعله فضلاً شاملاً لكل مؤمن من عباده ، بالمُجاهَدة وصدق المُراقَبة وإنعام النظر وتدريب البصيرة على الانطلاق في المشاهد الملكوتية ، بالقوة المُفَاضَة عليها من جانب (الحق) ﷻ ، وهي قُوى باعثة للمشاعر والحواسّ.

وهكذا يقودنا البحث إلي المدخل الملائم إلى اسم (الله) -تعالي- (**الباعث**).



المبحث الرابع والعشرونالباعث

وهذا الاسم الفياض لا تنحصر تجلِّياته الفَعَّالة في بعث الموتى فحسب، بل إنه -سبحانه وتعالى- (الباعث) لجميع المشاعر النقية ، التي لم تتأثر فطرتها بمؤثِّرات ظَلْمانِيَّة ، فهو يبعث فيها من القُوى ما يؤهِّلها لتنفيذ أمره ، بالنظر إلى الآيات في الملكوت الأعلى والأدنى نظر التأمُّل والكشف والمشاهَدَة.

وهذا المقام إنما يصل إليه خواص عباد (الله) تعالى ~ وجمعنا معهم، وليس ذلك الكشف إطِّلاعًا على أمر عينيّ ، بل هو مشاهَدَة بالأمر الواقع في السموات والأرض ، الذي تجلَّت به قوة (البديع المصوِّر الخبير الخلَّاق) من إتقان صُنْع؛ وقد قال تعالى: ﴿**صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ**﴾ [النمل: 88].

وتجلِّيات الاسم (الباعث) هي الأساس في انطلاق القُوى الإدراكية والجِسْمانية معًا، فإننا نراه -سبحانه- قد حجز عن غير المؤمنين تجلِّيات اسمه (الباعث) ؛ فقال عنهم : ﴿**وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ**﴾ [التوبة: 46].

فيكون انسحاب ظلال التجلِّيات الباعثة عن مشاعرهم ، سببًا فيما انتهى إليه أمرهم من التثبيط والتخلف ، وهو- ﷻ - يقول فيهم: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ**﴾ [الأنفال: 23] ، أي فلو رآهم جديرين بقوة القَبُول لما انحصرت تجلِّيات ذلك الاسم الفعَّال عنهم.

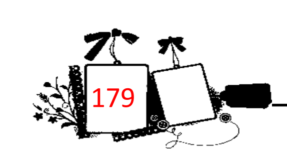
ومن هنا لا تكون تجلِّيات الاسم (الباعث) مُنْحَصِرة في البعث الأكبر، بل هي شاملة كذلك للبعث الدوريّ بين النوم واليقظة ؛ كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى**﴾ [الأنعام: 60] إلخ الآيات.

فالبعث -إذًا- تجلٍّ مستمر يشمل سريان صفة الحياة بتجلّيات الاسم (الحيّ) في كل كائن حيّ ؛ ومن ثَمَّ يظهر تعاون الاسمين الكريمين (الحيّ- الباعث) ، ويعاونهما الاسم (القَيُّوم) ليتم كمال النشأة ؛ فيكون -تعالى- قائمًا بكل حيّ ، (باعثًا) لصفات الحياة ومُقْتَضياتها ماديًّا ومعنويًا، بالحقّ المُقَرَّر من رزق مقدور.

وهو -عز وعلا- ((**باعث) الرُّسُل** عليهم السلام **إلى الناس**) ، و(باعث) الهِمَم إلى معالي الأمور، تمامًا ككونه ﷻ ((باعث) الموتى يوم (القيامة) للحساب والجزاء) ؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: 36] ، وقوله : ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن: 7] ، ثم قوله سبحانه: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا** ﴾ [الكهف: 12] ، وهذا البعث- بكافَّة أنواعه-إنما هو بعث الحقّ والصدق والعدل والجَزَاء الوِفَاق.

وهذا ما يقودنا مُدخلاً أسمي إلى اسم (الله) – ﷻ – (الحقّ) .





المبحث الخامس والعشرون الحق

وقد ذُكِرَ اسم (الحقّ) في (**القرآن**) سبع مرات ، وجاءت لفظة (**الحقّ**) في (**القرآن**) مائتين وثماني وسبعين مرة ، وهي لفظة لا تأتي في (**القرآن**) الكريم إلا مقترنة بعظائم الأمور.

فالحق قيمة عليا قامت عليها (**السموات والأرض**) ، وقد جاء في سورة (**التَغَابُن**) : ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ** ﴾ [التغابن: 3] ، وقال تعالى : ﴿ **فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ** ﴾ [يونس: 32] ، وقال سبحانه : ﴿ **وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ** ﴾ [يونس: 30] ، وقال ﷻ عن الجميع : ﴿ **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ** ﴾ [النور: 25].

و(الحقّ) ضِدَّ الباطل ، الذي هو (**الضَّلال**) ؛ لقوله تعالى : ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴾ [يونس: 32].

وتجلِّيات الاسم (الحقّ) تشكِّل النُّور من تجلِّيات الاسم (النُّور) ، الذي هو المُعَاوِن الأول لتجلِّيات الاسم (العدل) ، الذي هو الصدق والهُدَى.

وتتجلَّى هذه الشبكة الأسمائية من (الحقّ - النُّور- العدل) لتضع الحد القائم ماديًا ومعنويًا بين مُقْتَضَياتها وبين (**الضلال**)،الذي سوف لا يكون شيئًا متى ظهر (**الحق**)، تمامًا كما لا تكون (**الظلمة**) شيئًا إذا أشرقت (**الشمس**).

وهو تعالى يصوِّر هذا الإشراق بقوله : ﴿ **وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: 81] ؛ لأنه كان أثرًا للضلال، والضلال ظلام دامس كأنه الحِجاب المستور: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور: 40].

فإذا كان هناك انبعاث في النفس من تجلِّيات الاسم (الباعث) ، فلن تكون إلا أثرًا مباشرًا لتجلِّيات الأسماء الكريمة (الحقّ – العدل – النُّور) مقرونةً بالاسمين (الهادي) و(الرشيد).

وكل ما هو ليس حقًا فهو باطل، وما ليس عدلاً فهو ظُلْم ، وما ليس نورًا فهو ظلام ، وما ليس هدىً فهو ضلال ، ومن هنا يتبلور معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32].

على هذا النحو نواجه تجلِّيات الاسم (الحقّ) مطمئنين إليه متكيفين معه، مُؤْتَسِين بقوله ﷺ :

« **لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي قائمين على الحقِّ لا يضرُّهُم من خَالفَهُم حتى يأتِيَ وعدُ (الله)** » (52).

وقوله ﷺ مُحَدِّدًا الحقائق الثماني ، فكان صلوات (الله) عليه وسلامه يقول كل ليلة:

«**لَكَ الحمدُ أنتَ (الحقُّ) ، وقولُكَ حقٌّ ، ووعدُك حقٌّ ، ولقاؤكَ حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والنَبِيُّونَ حَقٌّ ، و(محمدٌ) ﷺ حَقٌّ** » (53).

ومعنى قيام طائفة المؤمنين ~ على الحق أن تجلِّيات الاسم (القَيُّوم) ، تُساندهم وتُؤَازِرهم في التوجُّه إلى سبيل تجلِّيات الاسم (الحقّ) .

و(الحق) تجلٍّ باهر وجلال ظاهر وجمال سافر، وهو سِرُّ قيامهم بين يديه تعالى ؛ مِصْداقًا لقوله ﷻ : ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: 238] ، فهم قائمون قانتون خاشعون في تجلِّيات الاسم (النُّور) صدقًا وعدلاً؛ فيكون الواحد منهم في صلاته : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرِۭ﴾ [القمر: 55] ، بوِجْدانه الحي قبل بعثه ، لا يبرح الصدق ولا يتجاوز حد الحق.

(52) وهو (حديث) متواتر جاء نصُّه : «**لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحقِّ لا يضرُهم من خَذَلَهُمْ ولا من ناوَأَهُمْ ـ وفي رواية : خالفَهُمْ ـ حتى تقوم الساعة، وفي رواية : حتى يأتي أمرُ (الله) وهُمْ على ذلك**» ، وقيل هم (أهل الحديث) رضي الله عنهم وعن التابعين الذين يتعاهدون مذاهب الرسول ﷺ ، وَيَذُبُّونَ عن العلم إلى يوم الدين .

(53) وهو (دعاء) معروف للحبيب (المصطفى) ﷺ كان يداوم عليه ، نصُّه : «**اللهُم لك الحمدُ أنت (ملك) (قيُّوم) السمواتِ والأرضِ ومن فيهن ، ولك الحمدُ أنت (نورُ) السمواتِ والأرضِ ومن فيهن ، ولك الحمدُ أنت (قيُّومُ) (مَلِكُ) السمواتِ والأرضِ ومن فيهن ، ولك الحمدُ أنت (الحقُّ) ...**» حتى يقول ﷺ : « **اللَّهُم بك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، وعليك توكلت** » .

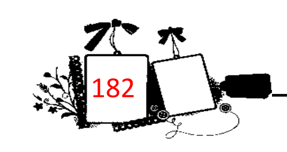
وقد ورد عن (**عُبادة بن الصامت**) ^ :

«**بايَعْنَا رسولَ (الله) ﷺ على السمعِ والطاعةِ في العُسْرِ ـ واليُسْرِ ـ والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ وعلى ألا نُنَازِعَ الأمرَ أهْلَهُ ـ أي أهل (القرآن) ~ ـ وعلى أن نقومَ بالحقّ حيثُما كُنَّا لا نخافُ لومةَ لائمْ** » .

فهذا سر المبايعة على الحق المبين القويّ الـمَتِين ، لا تُزِلُّـهم عنه خُطُوب الحياة ولا صُرُوف الزمان ؛ لأنهم بأمره قائمون وعلى صلواتهم دائمون.

ولعلَّ سائلاً يتساءل كيف يكون هؤلاء : ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾ [القمر: 55] ، بينما هم مازالوا هنا في الحياة الدنيا ؟ . .

فنقول: إذا كان ﷻ يقول في (القرآن) : ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ [التوبة: 49] ، فإن المحيط اسم فاعل ، واسم الفاعل حقيقة في الحال مجَاز في الاستقبال . فلا غَرْو أن قلنا إن هؤلاء محيطة بهم الجنة ؛ لأن (**مقعد الصدق**) يلتمس نوره في الدنيا وفي الآخرة ، كما ورد في سورة (**الحديد**) : ﴿**يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا**﴾ [الحديد: 13].



وقد دلَّ هذا على أن الصدق يفيد استنهال الصادقين ~ وجمعنا معهم لتلقِّي نورالصدق ، ولا مجال لهذا الصدق في الحال والمقال إلا في الدنيا ؛ لأن معنى: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: 55] هو أن (الجنة) لهؤلاء الصادقين بحُكْم الصَّيرورة ، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119] ، وللزوم المَعيَّة الرُّوحية الثابتة بالأمر المُنَزَّل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [**التوبة**: 119].ومتى كنت يا أخي ملتبسًا بالصدق حق الصدق، تتلو الكتاب حق تلاوته فأنت مع الصادقين، وصيرورتك (**مقعد الصدق**) رحمة من (الله) ﷻ وفضلاً.

وإذا كان علينا أن نقول فلنَقُلْ:

مَقْعَدُ الصِّدْقِ لَيْسَ مِنْكَ بَعِيدَا	إِنْ جَعَلْتَ الصَّلَاةَ لِلْقَلْبِ عِيدَا
صَادِقَ الْقَلْبِ صَادِقَ الْحَالِ فِيهَا	وَمَا تَبْتَغِيهِ كُنْتَ سَعِيدَا
وَزَمَانُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ فَأَنَّى	كُنْتَ كَانَ الْمَصِيرُ مِنْكَ قَعِيدَا
وَمَتَاعُ الدُّنْيَا متاعٌ قَلِيلٌ	وَهَوَاهَا يُلْقِي إِلَيْكَ الْوَعِيدَا
هِمَّةُ المُؤْمِنِ المُحَقِّقِ أعلَى مِنْ	تَرَاهَا إِذَا ابْتَغَيْتَ مَزِيدَا
كَيْفَ يَرْضَى بِهَا حَلِيفُ سُهَادٍ	بَاتَ في غيرِهَا مُرِيدًا شَهِيدَا

ولا يُراد بالمقعد مكان القعود ولكنه مقام الاستواء ، هذا إذا نظرنا إلى القُعود من زاوية القياس البدنيّ ، في مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95] ؛ وذلك لأن المراد بـ:﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: 55] ، أنه المُسْتَقَرّ والاستواء الكامل.

وأهل اللغة يَرَوْن أن الصدق معناه الحق ، وأن حق اليقين هو صدقه، وصدق اليقين هو القائم على المُشاهَدَة لا على مجرّد السماع فالتصديق[54].

فإذا قال (القرآن) العزيز: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: 115] ، فالمتبادر أن قوله :﴿صِدْقًا﴾ يعني حقًّا، ودرجات التعيين الثلاثة هي: (علم اليقين) و(عين اليقين) و(حق اليقين).

وقد قال ﷻ عن (علم اليقين): ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر: 5، 6] ، ثم أشار إلى الدرجة الثانية من (اليقين) بقوله: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: 7] ، ثم أشار إلى الدرجة الأولى من (اليقين) بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: 95].

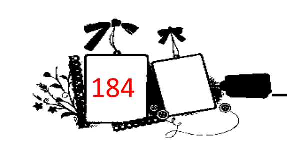
ومن هنا تبينَّت مرتبة الحقّ بمعنى الصدق الكامل، ومن هنا أيضًا تُعْرَف كلمة الحقيقة ، فإنها من الحق بمعنى الصدق ، وقد بيَّنت (الآية): ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: 25] بمعنى الصحيح.

ثم أردف بأن هذا يُطْلَق أيضا علي ذاته ﷻ بقوله : ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: 25] ، وكذلك بقوله -تعالى- في سورة(الحج): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: 6].

ومن مجموع (آيات القرآن) نستطيع إدراك المراتب ، التي يكون فيها (الحقّ) بمعنى (الله) ﷻ ، وبمعنى الصدق ، وبمعنى الواقع ، وبمعنى حقيقة الشيء.

ومتى كان (الله) هو (الحَقّ) كان جديرًا بأن يكون -سبحانه وتعالى- (الوكيل) عن كل شيء ؛ لأنه جل شأنه : ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: 6] .

(54) وقد ورد في (الأثر) من (دعاء الرسول) ﷺ : «اللَّهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه» فالحق نور تُطْلَب فيه الهداية.



ومتى كنا نريد الصدق، فهو –سبحانه وتعالى– يقول الصدق، وقد بَـيَّن هـذا المعنـى في سـورة (**البقرة**) في قوله عن (**بنـي إسرائيـل**) لنبيـه (**موسـى**) عليه السلام، حـين قـال: ﴿**قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ**﴾ [البقرة: 71] ، وفي قوله تعالى: ﴿**قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ**﴾ [الأنعام: 73].

وهكذا عندما يريد الحقيقة لذاتها ذَكَر تعالى : ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الـروم: 47] ، وقوله ﷻ : ﴿**حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ**﴾ [الأعراف: 105].

ومن هذا القبيل في تعيين الصدق والواقع معًا نـرى قولـه تعـالى: ﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ [الأنفال: 4] ، ثم إنه ﷻ القائل: ﴿**وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ**﴾ [الأحزاب: 4] .

ثم إنه –تعالى– يقول: ﴿**ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ**﴾ [الحاقة: 1–3]، فقـد سُـمِّيت هنا (**القيامة**) بـ (**الحاقّة**) ؛ لأنها حقّ وسَيَحِقُّ فيها الحـق ويُزْهَـق فيهـا الباطـل:﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا**﴾ [الأنعام: 115].

وعند ذكر (**القيامة**) يأتي ذكر الاسم (**الوَكِيْل**) وتجلّياته.



المبحث السادس والعشرون الوكيل

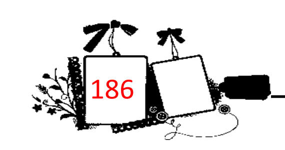
وهو -في اللُّغة- (الوليّ) أو النائب في الأعمال ، وينقسم إلى قسمين: وكيل عام ووكيل خاص.

ولكن بالنسبة لذات (الله) -تعالى- فالوَلاية عامة له ﷻ دون سواه ، فالشاهد في سورة (الكهف): ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الكهف: 44] ، وفي(الإسراء) يقول تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا [الإسراء: 2] ، وكذلك في (المزمل) : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: 9] ، و في مِثْل قوله تعالي : ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: 257]. وكل هذه (الآيات) إنما تفيد معنى الولاية العامة والوكالة التامة.

أما في الخاصة فعندك وكيل أعمالك ، ويقوم بالاختصاص في مباشرة بعض شئونك :﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: 71].

والاسمان الكريمان (الوليّ- الوكيل) اسمان متعاونان ، يقتضي كل منهما الآخر، وإنما أردنا بحصر الوكالة التامة والولاية العامة في ذات (الله) -سبحانه وتعالى-شاهد (الآية): ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: 2] ، و(الآية) الكريمة : ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: 196] ، والآيةالجامعة: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [يوسف: 101] على لسان (يوسف) عليه السلام.

ومتى كان (الله) ﷻ (وليًّا) للعبد كان العبد وليًّا (لله) لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: 62، 63] ؛ ذلك لأنه (وكيلهم) في كافة شئونهم.



ومتى كان (الوكيل) (حقًا) ومتى كان (الولي) عامًّا (مهيمنًا)، فإنه سبحانه يقوم بشئون عبده المؤمن التقيّ ، ومن هنا يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: 38] ، وكفى بدفاعه -تعالى- ولاية على وكالته.

فإذا كان المعروف عند الناس في الشئون القضائية أن وكيل الدعوى (**المحامي**) يتولى الدفاع عن صاحب المصلحة في هذه الدعوى ، فإن(**الآية**) صريحة في (**دفاع (الوكيل) عزشأنه عن عباده الذين آمنوا**).

ولِقائل أن يقول : إن ولاية (الله) ﷻ عن المؤمنين كرم منه وفضل ، ولنا أن نقول: إنه سبحانه وتعالى جعل دفاعه ووكالته (**حقًا عليه**) للمؤمنين ؛ لقوله تعالى بالنص: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [**الروم**: 47] ؛ فقد جعله تعالى- بنص (**الآية**)- (**حقًا عليه**) ﷻ بما كتب على نفسه الرحمة.

والقيام لشئون المؤمنين في الدفاع والوكالة عنهم نصر لهم ، وهو جزاء لقيامهم هم بنصر (**آياته**) سبحانه وإعلاء كلمته ؛ فقد أقسم بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: 40].

وأضاف تعالى في توكيد جديد محقَّق: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [**غافر**: 51] ، والشواهد على هذا متواترة في (**القرآن**) الكريم في (**آيات**) بيِّنات ونجوم زاهرات باهرات قاطعات.

والحاصل أن تجلِّيات الاسم (الوكيل) مقترنةً بتجلِّيات اسمه (الحقّ) ، هي التي تقوم بإلهام كل وكيل بالحق ، قائمٍ على الصدق في ولاية كل وليّ من تجلِّيات الاسم (الوليّ) ، وكذلك بتجلِّيات الاسم (العدل) ، الذي تَصْدُر الأحكام الصادِقة من تجلِّياته : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: 115] ، و(لامعقِّب لحكمه): ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

وفي نور ذلك كله، تبيَّن لنا معنى حكمته –تعالى– في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: 180].

فقد علم سبحانه أن لكل نفس منهاجًا إليه، وعِلَلاً تطرأ عليها، وتختلف مظاهرها وظواهرها وأعراضها؛ فجعل لكل منها ما يناسبه من الأسماء.

فإذا حلَّ العبد بمرحلة من مراحل الحياة أَوْحَلَت به ، تخيَّر من ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ ما يلائم تلك المرحلة ويناسبها ، فدعى (الله) – ﷻ – بها تناسُبًا وتواؤُمًا مع الموقف الذي هو به ، أو السبيل الذي هو سائر إليه وفيه.

وهذا يُلاحَظ بوضوح في التسبيح المُجَرَّد المقترن بالتوحيد المجرَّد ، عندما نادى (**يونُس**)عليه السلام ربه في الظلمات الثلاث: ظلمة الليل والموج وبطن الحوت، إضافة إلى الظلمة الرابعة وهي ظلمة المُغَاضَبة : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] .

حيث رأى عليه السلام أن يبدأ بكلمة (**الوَحْدانية**) ؛ ليدخل بها في سجلّ المؤمنين أولاً، ثم قرَّر –بعد ذلك– الاعتراف بأنه كان ظالمًا عندما كان في المُغَاضبة، وجعل هذا الاعتراف بالذنب تقريرًا للتسبيح المُطْلَق ، الذي بدأ به إعلان الوَحْدانية.

لأننا نفهم أن معنى (**سبحانك**) هوتنزيه (الله) تعالى بهذا المصدر من الوقوع في الأخطاء والمظالم ، التي هي من شأن الإنسان ، و(الله) تعالى هو الذي يقول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28] ؛ فاعتذر بضعفه عن خطئه مُسَبِّحًا اسم الذي تنزَّه عن الخطأسبحانه. وما كان خطأ (**يونُس**) ﷺ إلا أنه حدَّد على قومه بموعد العقوبة العاجلة لعدم إيمانهم برسالته، فأنذرهم بنزول نار تأتي على الأخضر واليابس ، وكان هذا منه ﷺ تجاوُزًا لحد الرسالة ، مع حُسْن الظن والنية وسلامة السريرة والطوية ، وإنما قلنا عن حسن الظن طبقًا لقوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [**الأنبياء**: 87] ، أي أنه ﷺ (**ظن**) أن (الله) تعالى –برأفته ورحمته وخَفِيِّ لُطْفه– (**لن يُضيِّق عليه**) مهما بدا تَبرُّمه بقومه ومغاضبته لهم.

وهكذا نرى من (**النبي**) ﷺ ملاحظة الأسماء في مُخْتَلِف الأحوال ، فقد سمعناه في مقاومة الكَرْب يقول :

«**اللَّهُمَّ رَحْمَتك ، يا (حيُّ) يا (قيُّوم) ، برحمتك أستغيث ، أصْلِحْ لي شأني كُلَّه، ولا تَكِلْنِي إلى نَفْسي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، ولا أدنى من ذلك ولا أقلَّ يا (أرحمَ الراحمين)**» ، ثم يختم بإعلان التوحيد ، حيث قال ما بدأ به (**يونُس**) عليه السلام: «**لا (إلهَ) إلا أنت**».

ونراه ﷺ في (**الطّائف**) يذكر ضعفه ، ويشكو إلى (الله) قلة حيلته وهوانه على الناس ، ثم يلوذ (بأرحم الراحمين) لمناسبة الرحمة لموقفه تمامًا ، ثم يُرْدِف بذكر الاستضعاف والمُسْتَضْعَفِين مستجيرًا برُبوبيَّة (القادر) سبحانه وتعالى ، ثم يُلَمِّح إلى معاتبة ربه (الوكيل) الذي يكله إلى غيره ، ولا يعلم لذلك سببًا إلا أن (الوكيل) غير راضٍ عنه في ذنب قد يكون قد وقع منه دون عمد «**إلى من تكِلُني**»؟ ، ثم يشير إلى أعدائه وأعداء دعوته بقوله: «**إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُني**» ، ويعبس في وجهي كأهل الطائف «**أم إلى عدو مَلَّكْتَهُ أمري**» ، ويعني (**أبا جهل**) رئيس الندوة ، ثم يبدو فدائيًا باسلاً عندما يقول : «**إنْ لم يَكُنْ بك عَلَيَّ غَضَبٌ فلا أُبَالِي**» ، ثم يطمع في القوة والحياة لإبلاغ الرسالة فيستدرك : «**ولكنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي**» ، ثم يلجأ فازعًا إلى الاسم (النُّور) لمقاومة الظُلُمات بقوله : «**ألوذُ بنورِ وجهِك الذي أشرقت له الظُّلُماتُ وصَلُحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة أن يَحِلَّ بي غضبُك أو ينزلَ عليَّ سَخَطُك**» ، ثم يعلن الرضا المُطلق بختامه قائلاً : «**لك العُتْبَى حتى ترضى**» ، ثم يتجرَّد فيقول : «**ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك**».

ومهما يكنْ للعبدِ جَهْدٌ وحيلةٌ فمرجِعُهُ (للهِ) وهو (قديرُ)

إذا لم يكُنْ (بالمُسْتَعَانِ) مُؤَيَّدًا فأيُّ مُمِدٍّ بعد ذاكَ يصيرُ

فلا غَرْوَ نادى مَرْجِعَ الأمرِ كُلِّهِ ومَنْ هو للمُستَضْعَفِينَ نصيرُ

فأنزلَ (جبريلَ) الأمينَ مُبَشِّرًا لمن هو بالذِّكرِ الحكيمِ بشيرُ

ليَعْرِضَ أمرَ الخَسْفِ إن شاءَهُ لهم وكيف يشاءُ الخسفَ وهو صبورُ

فيا رُحَمَاءَ الكونِ إنَّ (محمدًا) عليمٌ وعُمْرُ الشِّرْكِ فيه قصيرُ

فكان هدىً أن يسألَ (الله) عفوَهُ عن الناسِ والفتحُ المبينُ ظهيرُ

ألم يكُ هذا رحمة (اللهِ) لِلْوَرَى وإن جَدَّ طاغٍ أو ألحّ كَفُورُ

ويطمعُ في التوحيدِ وهو مُؤَمَّلٌ وكم جَدَّ من بعدِ الأمورِ أمورُ

* * * *

وجدير بالذكر والملاحظة دعوات (النبي) ﷺ، أن يجعلها درسًا في اختيار (**الأسماء الإلهية**)، التي تُنَاسِب حاله وتحقق آماله وتزيل أوحاله وتُقِيم أحواله؛ ومن أجل ذلك شرحنا مضامين الأسماء (**الإيجابية**) و(**السلبية**) و(**الذاتية**)، ونحن مأمورون بالفرض المنصوص أن (**ندعو** (الله) **بها**)، مبتدئين باسم الذات وعليه اسم العرش(الرحمن)، الذي له الحُكْم وحق التوجيه؛ وذلك لقوله ﷻ: ﴿ **قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ** ﴾ [الإسراء: 110]. وقد بيَّنا أن الأسماء (المنتقِم- الجبّار- القهّار) وأمثالها من الأسماء الحُسنى؛ لأنه متى كان الانتقام والجبروت والقهر، في ظلال اسْمَي (العدل- الحكيم) فهو فعل حَسَن؛ لأنه تأييد للرحمة ووقف لتيارات اللعنةوالعياذ (بالله).



ومن ثَمَّ يكون قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: 180] شاملاً لجميع الأسماء التسعة والتسعين ،التي جاء التوقيف أو الإذن بها من جانب المُرسل بالوحي نفسه ﷺ، على أنها أسماء الإحصاء بقوله ﷺ :

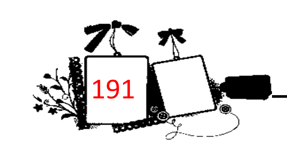
«إنَّ (لله) تسعةً وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وِتْرٌ يحبُّ الوتر» وإلا فالأسماء الإلهية فوق الألف كما ورد (55).

فللعبد المظلوم أن يدعو باسم (العدل) ، وللمقهور أن يدعو باسم (القهَّار)، وللمريض أن يدعو بالأسماء (الرحيم- الرءوف -اللطيف) ، ولذي الضائقة أن يدعو بالأسماء: (الرزّاق- الفتّاح- العليم- الكريم- الوهَّاب).

وهكذا على اختلاف الأحوال المطابق لاختلاف الأسماء ، وهذا هو سر الاختلاف الأسمائيّ لاختلاف أحوال الداعين ومقاماتهم عند (الله)سبحانه، والإنسان في **(دنياه)** هذه عابر سبيل ، يقوم برحلة منها عبر **(البرزخ)** إلى **(المُسْتَقَر)** الذي لا بد منه ، محكومة بالنواميس الكونية خطراته وأحواله، وفراسخه الأيام والليالي ، تختلف عليه تجلِّيات الأسماء مثل (القابض والباسط) والفرق بينهما واضح.

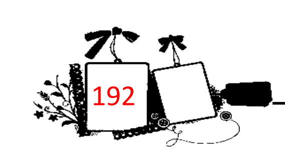
فهذا العبد في تجلِّيات الاسم (القابض) مُوزَع بالالتجاء إلى الاسم (البَاسِط) ، وهذا الالتجاء إنما هو نتيجة مقدمتها عُسْر وألم ، يكونان الباعث الإيجابيّ للتضَرُّع والالتجاء إلى الاسم المُضاد ، كما يلجأ صاحب الحريق إلى المطافئ من الماء ،

(55) ويرى جمهور العلماء أن أسماء (الله) تعالى غير محصورة في تسعة وتسعين اسمًا، قال الإمام (النووي) تعليقًا على قول (النبيّ) ﷺ مُتَّفَقَ عليه، وليس معنى (الحديث النبويّ) أنه ليس (لله) أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود (الحديث) أن هذه التسعة والتسعين اسمًا من أحصاها فهمًا وتعمَّق دلالاتها واعتملت داخل ذاته ، دخل الجنة، وهو المراد الإخبار عنه لا حصر الأسماء وبهذا جاء في (الحديث) الآخر «**أسألُك (بكل اسم هو لك) سمَّيْتَ به نفسكَ، أو علَّمْته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» ، وقد ذكر الحافظ (أبو بكر بن العربي) عن بعضهم أنه قال : (الله) ألف اسم ، وقال (ابن العربيّ) : وهذا قليلٌ فيها ، و(الله) أعلم ، وأما تعيين هذه الأسماء فقد جاء في (التِّرْمذيّ) وغيره وفي بعض أسمائه خلاف ، وقيل : إنها مخفيَّة التعيين مثل **(الاسم الأعظم)** ، و**(ليلة القدر)** ونظائرها ، وهو ما ورد في (شرح صحيح مسلم) رضي الله عنه وعن الصحابة والتابعين أجمعين .



فهو تحت ضغط الحرارة الناريّة مُوزَع -أي مدفوع- تلقائيًا إلى أن يفزع إلى ما يضاد النار ويطفئ سعيرها. وكذلك على الإنسان أن يلاحظ مكانه من التجلِّيات الأسمائية ؛ ليتوجه إلى ما يلائم ذلك المكان من عُسْر أو يُسْر أو قبض أو بسط أو مرض أو شفاء؛ فهو عند العُسْر يطلب الكِفاية ولها أسماؤها ، وعند الغواية والانحراف يطلب الهداية ولها أسماؤها كذلك.

والعارف يؤتيه (الله) الحكمة وهي -في الغالب- دقة المُلاحَظة لطبائع الأشياء واختلاف الأحوال ، واليقين في وَحْدة المتجلِّي مع اختلاف التجلِّيات. فيَفِيد العارف من هذا اليقين انتفاء الرِّجفة أو فقد السكينة عند حلول الخُطُوب : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28] ، راضيًا بالقضاء والقدر، يلوم نفسه معتذرًا إلى مولاه فيما يتورَّط فيه مما يُنْكِره ضميره ويأباه ، مستمسكًا بعُرْوَة الحمد الوُثْقَى على كل ما يجوز من مُخْتَلِف الشئون والشجون.



خاتمة الباب الثاني
مقام الصِّدِّيقين وأسبَقِيَّته على مقام الشُّهَداء

وهذا لَعَمْرُ (الحقّ) مقام الصِّديقين ~ الذي لا يبلغ إليه إلا مـن صَـحَّت نيتـه ، وطَهُرت في سـبيل (الله) سريرتـه ، ونَفَـذت خـلال الأيـام والأحـوال والبـدايات والنهايات بصيرته.

وهنا تتجلَّى للبصائر صورة باسـمة لسـعيها ناعمـة في بطـل التوفيـق (**أبي بكـر الصِّديق**) ÷ وأرضاه ، فإذا هي الصفات التي تحلَّى بها بينما الأحداث تُزَلْزِل الجبـال وتَعْصِف بعزائم الرجال ، وهو السَّبَّاق بالروح والمال :

(ولو لمْ يكُنْ في كفِّـهِ غـيرُ رُوحِـهِ
لجـادَ بهـا فليَتَّـقِ (اللهَ) سَـائِلُهْ
ولـو لمَ تكُـنْ تبـدو أواخـرُ أَمْـرِهِ
فقـد صَـدَقَتْ فـيما تحـلَّى أوائِلُـهْ)

فقـد كـان ÷ مجـلىً صـافيًا ومـرآة صـقيلة، تجلَّـت فيهـا مزايـا (**محمد**) ﷺ إمام الصابرين ورسول الأوَّلين والآخِرين ، حينما كانت الأهوال والليالي الطِّوال تحرق بمكمن الرحمة ومنزل النعمة في دار (**الأرقـم بـن أبي الأرقـم**) ، ينهـاهم النادي عن الصلاة أو الاقتراب من بيت الآيات البَيِّنات.

وكأنما التوحيد جريمة والدعوةإلي (الحق) سخينة ، تَغْلِي بها قُـدُور وتفـور بهـا صـدور، لم يَعْمُرهـا الإيمان من أولئكَ الصُّم البكم العُمْيان ، فقدَّر (ربك) مرارة المأساة وكلمة المواساة حول هـؤلاء الأبـرار المُصْطَفَيْن الأخيار~ ، وهي كما يقول شاعر أهل البيت (**الكُمَيْت بن زيد**) :

(يصولُ عليَّ الجاهلون فأعتلي ... ويعجُمُ فيَّ القائِلُونَ وأَعْرُبُ

يَرَوْنَ احتمالي غُصَّةً ويزيدُهُم ... لواعجُ ضَغْنٍ أنَّني لستُ أَغْضَبُ)

ولَعَمْرُ (الحق) فقد كان الحِلْم شعارهم والوقار إزارهم والصبر حِلْيَتهم والعفو شيمتهم ؛ وما كان ذلك إلا لأنهم استمسكوا دائمًا بعُرْوة الحمد وسرعة المآب إليه –سبحانه– في الخطأ والعمد ؛ لاستغراقهم في شهود آياته على طلائع بيِّناته ، فصار العذاب من أجلها عندهم عذبًا والصبر قُرْبًا :

أقاموا على التَّوحيدِ صَرْحًا مُجَرَّدًا ... من الرُّوح من نورِ المعاني الخَوَالِدِ

ولاذوا به في كلِّ خَطْبٍ ومِحْنَةً ... برِضْوانِ محمودٍ وإيمانِ حامدِ

فلا أيَّ حَرْفٍ يعبدون لأجلِهِ ... ولا عِزَّ مولودٍ وعِزَّةَ والدِ

ولا شَهَواتِ النفسِ في مُتْرَفِ الغِنَى ... وعابدِ مالٍ عارضٍ ثُمَّ بائدِ

ولكنْ لوجهِ (الله) و(اللهُ) حَسْبُهُمْ ... (مُعِينًا) لهم ما بينَ قلبٍ وساعِدِ

وما عُرِفَ (الصِّديقُ) إلا مُصَدِّقًا ... لَهُ من كتاب (الله) خيرُ مؤيِّدِ

ومن كلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ على التُّقَى ... تلقَّى النَّدَى بالقلبِ لا راحةِ اليدِ

وفي الخُلْدِ معنى قُرَّةِ العينِ عِنْدَ مَنْ ... أقامَ على الإيمانِ معنَى المُوَحِّدِ

وقامَ بِهِ (لله) دِينًا ومِلَّةً ... يسيرُ على منهاج كلِّ مُفَرِّدِ

فلا شيءَ إلا (اللهُ) يبغي بحُبِّهِ ... رِضَاهُ قريبًا بالرضا غَيْرَ مُبْعَدِ

هنا شرفُ الإحسانِ في شِرْعَةِ الهُدَى ... من الصَّابرِ الهادي إلى قلبِ مُهْتَدِ

يرى نِعْمَ (الفَرْدَوْسِ) أدنَى مكانةً ... من المثلِ الأعلى بزَعْمِ الْـمُفَنِّدِ

وليس سوى (الرحمن) (جلَّ جلالُهُ) ... تَعِلَّةَ قَلْبِ الناسكِ المُتَعَبِّدِ

لهم مِنْ تَجَلِّي الحُسْنِ قُرَّةُ أَعْيُنٍ ... كما شَهِدَتْ بِالسَّنَا (أُمُّ مَعْبَدِ) [(56)]

تجلَّى لهم في كلِّ شيءٍ بصُنْعِهِ ... وألبابُهُمْ وَقْفٌ على كلِّ مَسْجِدِ

فما خرجوا عنه ولا ضَلَّ سَعْيُهُمْ ... إلى شَهَواتِ النَّفْسِ في أيِّ مَشْهَدِ

---

(56) سيدة بدوية وصل إلى خيمتها (أبو بكر الصديق) ورسول (الله) ﷺ أثناء رحلة (الهجرة) وشربا من لبن ماعزها الذي باركه (النبي) ﷺ واستطاعت بعد ذلك أن تصف تقاسيم النور والسمات في وجه (النبي) الأمين ﷺ كما لم يستطع غيرها وصفه .

تَعَالَيْــتَ أَدْرَكْنَــا بلُطْفِــكَ أَنَّنــا	نَسِيغُكَ رَاحَ الرُّوح فِي كُـلِّ مَـوْرِدِ
ولو كانت الأكـوابُ صـابًّا وفُرْقُفـاً	فليسـت علينـا في الرِّضـا منـك
لك الحمدُ حَمْدَ الصابرين عـلى الأذى	ولو نالَـهُمْ غُـرُبُ الحُسَـام المُهَنَّـدِ
وأقبلـتِ الأهـوالُ مـن كـلِّ جانـب	وبغيُ الهوى من كـلِّ ذِهْـنِ مُبَلَّـدِ
وأَلْقَــتْ بأسـبابِ المنايـا عِـدَاتُهُمْ	فما حَوْلَـهُم غيرُ العُـلا أيُّ مُنْجِـدِ
أليس لإحـدى الحُسْـنَيَيْنِ مَصِـيرُهُمْ	تبارَكْـتَ هــذا قَولُـكَ الفصـلُ

* * * *

فانظر إلى بسالة (**الصِّديق أبي بكر**) ÷ الصادق العزيمة ، والمُوقِن حق اليقين من الرسالة والرسـول ومَنْ أرسله ، كيف بادر إليه بقلبه ويديه وجَهْده ورجليه حينما أطبقوا على عُنُق (**النبيّ**) ﷺ عندما نـدَّد بآلهتهم فدفعهم عنه بقوة متمثلاً قوله تعالى: ﴿**أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ**﴾ [غافر: 28].

هنا تتجلَّى لك -إن كُنتَ على بصيرةٍ مـن أمـرك- مراتـب (**الصِّـدِّيقين**) ~ ، التـي تـلي مراتـب (**النبيين**) وتفُوق مراتب (**الشُّهداء والصالحين**) عليهم السلام ؛ لأنهم في حياتهم الدنيا شـهداء أمـام صـدمات القَدَر بين من طغى وكفر وأدبر واستكبر، وبين من لان وانطوى وارعوى وعصى أوامر الهوى ونـأى عمن ضلَّ وغوى ، وبين أقوام وقفوا بين الصَّفَّيْن لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك ، وإنما هم عُبَّاد أهوائهم وتُبَّاع دنياهم ، كلما اندفعت بهم رياح المطالب وأعاصير الرغائـب ، فهـم عـن كـل مـا سـوى الـدنيا غافلون ، وفي أثواب الخزِّ والدِّيباج ومناعم الحياة الدنيا رافِلُـون : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**﴾ [هود: 16].



نعم يا أخي بين هذه الصدمات يعيش (**الصِّدِّيقون**)، ليُقْتَل الواحد منهم كل يوم عشرات المرات ؛ كلما رأى مجترئًا أو شهد مستكبرًا.

ينأى عن الذِّكْرِ الحكيم سَفَاهةً	وعلى الضلالةِ نفسُهُ تَتَصَلَّبُ
ويثيرُهَا حربًا على سُنَنِ الهُدَى	وَيُرَدُّ مُنْدَحِرَ الجِدَالِ ويُغْلَبُ
وعلى النفاقِ يعيشُ عَيْشَ تَمَلُّقٍ	ساءت عواقِبُهُ وساءَ الْمَطْلَبُ
يُعطيك من طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوةً	وَيرُوغُ منك كما يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

* * * *

فأين هذا العذاب الذي يتراخى به الزمن وهو في آلامه ، وما يثير من الحسرات القاتلة في نفوس المؤمنين فضلاً عن الصِّديقين.

نعم أين هذا الألم المُبَرِّح الطويل المدى من لحظة واحدة أو لحظات يُقْتَل فيها أحد المجاهدين ، ثم يحيا على الفور في دار الشهداء؟!..

الحق أن (الله) ﷻ أعلم لماذا قدم (**الصِّدِّيقين**) على (**الشُّهَداء**) ~ أجمعين ، في ذكر: ﴿**ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا**﴾ [النساء: 65].

ولعل سائلاً يقول: إن الآلام والعذاب الوجدانيّ المترتِّب عليها،لا يمكن أن يساوي مصرع القتل؟.

ونجيب على هذا بما خاطب به (الله) -سبحانه- رسوله ﷺ مُواسيًا في(الآية) : ﴿**فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ**﴾ [فاطر: 8] ، و(الآية) : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ [الكهف: 6] .

ومعنى (**ذهاب النفس**) في (**الآية**) الأولى قَبْضها، الذي يترتب عليه فقد الحياة وجعل (**الحسرات**) حالاً مُفْضِية إلى القتل، فكأنَّ (**الآية**) تقول له ﷺ: «**لا تقتُلْ نفسَكَ حَسَراتٍ عليهم**».

وفي (**الآية**) الثانية معنى ﴿**بَٰخِعٞ**﴾ أي قاتل، وتقديرها: لعلك يا (**محمد**) قاتلٌ نفسَك -أو مُؤْذِيها أذىً شديدًا- أسفًا لأنهم لم يؤمنوا بهذا (**القرآن**)، و﴿**بَٰخِعٞ**﴾ اسم فاعل، و﴿**أَسَفًا**﴾ حال من الفعل (**أَسِفَ**)، وهذا دليل على أن الأسف الشديد يصل بالحسرة إلى حد قتل النفس.

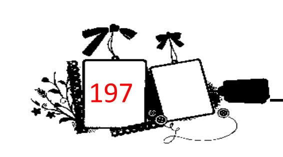
ولعلك بهذا يا أخي تدرك كم مرة في اليوم تشتد الحسرات على الصِّدِّيق؛ لِمَا يشهده من المنحرفين عن جادَّة السبيل من إعراض عن الحقّ الواضح المُبين، والصِّدِّيق يكاد يقتل نفسه أسفًا وألَمًا أمام كل حسرة من تلك الحسرات.

لكن المجاهد إذا قُتِل فما أسرع حادث القتل وما أيسره على الذين يتَلَقَّوْن ضربة فاصلة تقطع الصلة على التوّ بالحياة الدنيا والجسم ومتاعبه وآلامه، فهذا قطعًا أخفّ عذابًا من الصِّدِّيق، الذي يباشر ذلك العذاب الباعث للحسرات كلما لمح زيغًا أو شهد انحرافًا.

هذا مُحَصَّل الرد على ما عسى أن يسأل عنه سائل بصدد (**الآية**)الكريمة: ﴿**وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ**﴾ [**الزمر**: 69]، لتكون معارِضَةً للترتيب الواضح في قوله تعالى: ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [**النساء**: 69].

وقد مَيزَّ (**الله**) ﷻ شهداء الصِّديقين ~ بأن جعلهم ميزان (**الأعراف**) يوم (**القيامة**)، كما يقول جلَّ شأنه: ﴿**وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ**﴾ [**الأعراف**: 46] إلخ آياتهم فيها وفي غيرها.





فأؤلئك هم قَتْلَى الصِّدِّيقين ، فمع حصولهم علـى مرتبـة الصِّـدِّيقية حَصَـلُوا أيضًـا عـلى مَنْزِلَـة الشهداء ، وكان امتياز الصِّدِّيقية هو الذي هَيَّأهم ليكونـوا عـلى الأعـراف ويمتـازوا بكـونهم : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾[الأعراف: 46].

فهذا- يـا حبيبـي- هـو المكـان الـذي يَتُـوق إليـه رجـال الهِمَـم العاليـة والمقاصـد السَّـامية ، والصِّدِّيقون -أنفسهم- تتفاوت مراتبهم بتفاوت بلائهم في سبيل (الحقّ)، فأسماهم أحسنهم بلاءً وأصدقهم ولاءً وهكذا : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: 11] .

فلاَ يتَّسِق مقام صريع عالِمٍ مع مقام صريع جاهل؛ لقولـه تعـالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9].

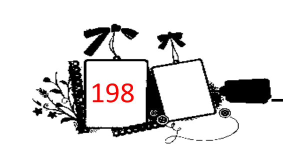
ولكنَّ الذين لا يعلمون في الدنيا فازوا بالعلم في دار الشُّهداء، والعُلَـماء مـن الشُّـهداء ازدادوا على علومهم علومًـا وعـلى سُـمُوِّهم سُـمُوًّا : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مـريم: 76] ، والآية: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ [الشورى: 23] .

هذا هو الحقّ الذي لا يَتَّسِع لجدل أو مِرَاء.

وكفى بنا يا أخي أن نُرْشِدك إلى منهج المُنَاسَبة بين حـال الـدَّاعي وتجلِّيـات الأسـماء المختلفـة ؛ ليتخذ الدَّاعي (مولاه) عنه (وكيلاً) في كل اتجاه وفي كل حال.

فإن ملاحظة وَكَالة (الله) ﷻ وَولاَيته في كل أمر هي أحكم مِنْهَاج ، لا نَزِيدُك عنـه دلـيلاً أكثـر من قولـه تعـالى: ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: 2].

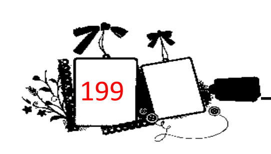


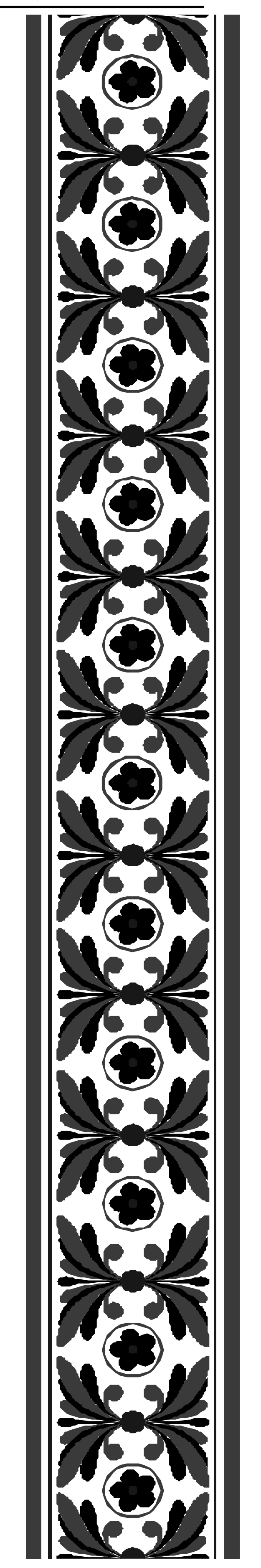


فجعل -سبحانه وتعالى- المُحَصَّل الكليّ من (**التوراة**) هو توثيق عُرْوة الوَلَاية العامة لذاتـه ﷻ واتخاذه (وكيلاً)، كما كانت مِفْتاح النصـر يوم (**بدر**)، عندما قال (**النبي**) ﷺ للذين كانوا يحـاولون إرعاد فرائصـه ﵇ وقـولهم لـه: ﴿**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ**﴾ بقـول (القـرآن) الكـريم: ﴿ **فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: 173].

نعم أيها المؤمن التقيُّ النقيُّ الـورع هـذا خـير الـدليل : ﴿**وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ** ﴾ [**الأحزاب**: 4].







البَابُ الثَّالِثُ

المبحث الأول الأزَلِيَّة والأبَدِيَّة

الأزلية والأبدية مُساويان للأوليَّة والآخريّة، وكِلْتاهما نسبتان مُنْتَزَعَتان من قياس الإنسان الأمور بمقياس نفسه.

ثُمَّ اعلم -علَّمني (الله) وإياك- أن المعنى الـمُراد بالأزليَّة ، هو قيام الوجود الذاتيّ الإلهيّ، وأن الـمُراد بالقِدَم أو الأزلِيَّة هو سَبْق وجود (الله) تعالى على وجود الأكوان.

والسَّبْق – عند الحُكماء – اقتضاء ذاتيّ؛ لأن الصانع سابق في الوجود على المصنوع ؛ لاستحالة وجودهما معًا في وقت واحد.

لكنَّ هذه القضية إنما نشأت عن قياسنا نحن على أنفسنا؛ لأن لنا أولاً وآخرًا، فأردنا تنزيه (الله) ﷻ عن مُشَابَهتنا، فقلنا إنه قديم أزليّ لا أوَّل له ؛ لأن الذي لاأوَّل له ولا قَبْله شيء ، يكون هو (الأوَّل) اقتضاءً ذاتيًا.

والذي لا أوّل له لا يكون له آخِر؛ لأن نفي الابتداء أو البداية يقتضي نفي الانتهاء أو النهاية ، فهو إذًا (الآ خِر).

ومتى كان هو (الأوَّل) و(الآخِر) تعيَّن -التزامًا- أن يكون هو (الظاهر) و(الباطن) ، وأن كُلاًّ من الظهور والبطون نسبيّ ناشئ من منشأ انتزاع بشريّ، مطبوع – بجِبِلَّته- في القياس والحد والرسم والوصف – في جميع القضايا المنطقية والمقدمات القياسية- على الشكل الأول إلى ما يليه من شُكُول القياس ؛ لاستنتاج النتيجة من مقدِّمات صحيحة.

فهذا الإنسان -لَعَمْرُ (الله)- إنما هو مجموعة نسب قائمة على لطائف عقلية تُحَدِّد ماهيَّات الأشياء ، أما من ناحية (الله)تعالى ، فهو ﷻ مُنَزَّهٌ عن النواحي، فما ظهر لغيره ولَا بَطُن عن نفسه، ولكنه يخاطب بهذا عباده الذين تعتورهم تجلّيات الأسماء في الصباح والمساء ، وهم بينها غادون رائحون: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: 17].

فإذا ما استعرنا صفة (**الليل**) الغاسق لتحديد ماهية البطون والخفاء ، فإنما نشأ قياسنا على هذه الظاهرة غير ذات اللون ، التي نُسَمِّيها (ظلامًا) : ﴿ **وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ** ﴾ [يس: 37].

لكنَّ الذي هو فوق الزمان والمكان والنور والظلام- من حيث الذات الـمُطْلَق حتى عن قيد الإطلاق نفسه- يستحيل عليه أن يكون في بطونه خفيًّا، ولا أن يكون في ظهوره مُسْفِرًا مشرقًا.

فإنما هذا كله واقع في دوائر القياس الفطريّ وأداة العقل البشري المحدود ، التي من شأنها اعتقال الحقائق وتعريفها بالماهية الذاتية فيما يَعْرِفون ويَعْلَمون : ﴿ **سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [**الصافات**: 180].

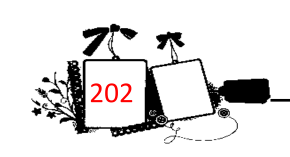
ذلك لأن الوصف صادر ممن (**لم يُؤْتَ من العلم إلا قليلاً**)، ولا يستطيع أن يدَّعي أي دعوى صادقة إلا إذا أقام عليها دليلاً، وهذه قيود كيف تحتوي الـمُطْلَق أو تحيط بذاته.

ومن الباطل بداهةً إمكان إحاطة شيء بمن هو : ﴿**بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ**﴾ [**فصلت**: 54] .

هذا فساد في القياس يلزم منه استحالة الوصول إلى تعريف صادق أو دعوى صحيحة عن ذات (البارئ) عزَّ وعلا.

وكيف لا وهو الذي يقول للذين يقرأون ويفهمون : ﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 216] .

وقد أقام (القرآن) العزيز في مأساة جهل (الإنسان) فصولاً : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ [الأحزاب: 72].



فكيـــف يحـيطُ العقــلُ وهــو صَـــنِيعُهُ — وكـــانَ وفيـــهِ العقـــلُ بَعْـــدُ جَهْـــولاَ

يُـــمَارِي وشــــمسُ الحـــقِّ تبْهَـــرُ عَيْنَـــهُ — ويطلُـــبُ عَـــنْ ذَاتِ الضِّـــيَاءِ دَلِـــيلاَ

ألا إنَّ (رَبِّي) (ظَـــاهِرٌ) (بـــاطِنٌ) معًـــا — وهــــذانِ إنْ شِــــئْنَا إليــــهِ سَــــبِيلاَ

ومـــا اجتمـــعَ الضِّـــدَّانِ إلاّ بنســـبةٍ — وعـــن ذاتِـــهِ مـــا إنْ رأيـــتَ مَثِـــيلاَ

تعـالى عــن الأَضْـدَادِ أو مُرْتَقَـى الْحُجَـى — وعَـــزَّ (عَلِيًّـــا) في الجـــمالِ (جَلِـــيلا)

وهـــل يطلـــبُ العبـــدُ الجَهُـــولُ إحاطـــةً — ومـــا نـــالَ مـــن سرِّ الحيـــاةِ فَتِـــيلاَ

وسرُّ حيـــاةِ المـــاءِ مـــازالَ مُـــبْهَمًا — أتبغِـــي إلى رُوحِ العَـــلَاءِ وُصُـــولاَ

وهـــا هُـــوَ يَرْنُـــو إليـــكَ بِنَـــرْجِسٍ — عَطَـــيرٍ عَسَـــى يُشْـــفِي العَبِـــيرُ عَلِـــيلاَ

وهـــذا خَرِيـــرُ المَـــاءِ في جَـــدولٍ صَـــفَا — عَسَـــى المَـــاءُ يُشْـــفِي للصَّـــدَاةِ غَلِـــيلَا

ألم تَـــرَهُ في وَجْنَـــةِ الـــوَرْدِ باسِـــمًا — وفي نَسَـــمَاتٍ بالرِّيـــاضِ أَصِـــيلاَ

وتلـــكَ حُـــرُوفُ الكائنـــاتِ صَرِيحَـــةٌ — تراهـــا فُرُوعًـــا دائـــمًا وأُصُـــولَا

وفي قُـــدُسِ الأَقْـــدَاسِ تَســـرْي حَيَاتُهَـــا — وعِلْمُـــكَ يَغْـــدُو بـــالوُجُودِ قَلـــيلَا

فَفَـــوِّضْ إليـــهِ الأمـــرَ تَسْـــلَمْ مِـــنَ الْــــهَوَى — وقِـــفْ في هُـــدَى نُـــورِ الصَّـــلَاةِ ذَلِـــيلاَ

وفي هَمَسَـــاتِ الليـــلِ نجـــوى مُسَـــبِّحٍ — لِيَتَّخِـــذَ الْمِحْـــرَاب مِنْـــهُ خَلِـــيلَا

وَيعْبُــــدَهُ بالقَلْـــبِ أَبْـــيَضَ مُخْلِصًـــا — وَيَشْـــهَدَ في الأشـــياءِ مِنْـــهُ رَسُـــوَلا

وفِي الـــنَّفْسِ مَيْـــدَانٌ لـــدُنْيَا حَيَاتِهـــا — ولا تَبْتَغِـــي دُونَ الخُلُـــودِ بَـــدِيلَا

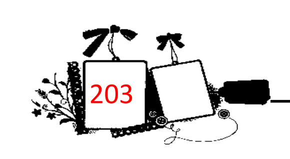
ومَـــا عَلِمَـــتْ شـــيئًا عـــن الخُلْـــدِ مَـــرَّةً — ولم تَـــرَ كَـــالْإِيمانِ ثَـــمَّ سَـــبِيلَا

فمـــن شـــاءَ فليُـــؤْمِنْ إذَا أَمَّـــمَ الهُـــدَى — ومـــن شـــاءَ فليَكْفُـــرْ وسَـــاءَ مَقِـــيلَا

وعَجْـــزِي عـــن الإدراكِ إدْرَاكُ مَـــوْقِفِي — كـــما عَجَـــزَتْ جُنْـــدُ السَّـــمَاءِ قَبِـــيلَا

وَهَيْهَـــــــاتَ لِلْعِبْـــــــدَانِ إدراكُ سِرِّهِ — سَـــلِمْتَ فَـــآمِنْ إنْ غَـــدَوْتَ نبِـــيلَا

❊ ❊ ❊ ❊



ولقد أشرنا -في مطلع هذه الرسالة- إلى كلمات صدرت من أساطين عُلَماء الغرب ، حيث قال الأستاذ (**سِدْيُو**) :

(اللَّهُمَّ ما أكبرك ، فمن ذا الذي تجاسر وسَمَّاك لأول مَرَّة؟!.. وإن محاولة إدراك أسرارك بمسايير- أي معايير العقل الاعتباريّ القاصر، هذه المحاولة جريمة لا تُغْتَفَر، فأنت على ما تعلم ذاتك يا لا نهايةً سامية).

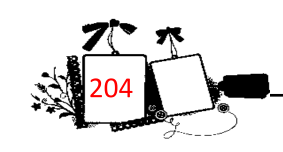
ومن أمثال هذا كثير مما كتب الباحثون عن عجز البحث إذا هو حاول أن يكون موضوعه ذات (الباري) جلَّ وعلا ؛ لأن الباحث -نفسه- يجب أن يبحث أولاً بين خفايا نفسه كيف أنه يبحث ، ثم كيف يسمع ويرى؟!..

فمتى أدركه العجز عن فهم ماهيَّته هو ذاته، فمن الإنصاف أن يعلم أن البحث في أسرار الذات الإلهية العُلْيا ضَرْبٌ من الجنون ، أو هي طَرَقَات محموقة على أبواب الأسرار العُلْيا ، التي بها كان الباحث باحثًا والمدرك مدركًا والعالِمُ عالمًا وهكذا.

فلولا تلك الأسرار ما كان الباحث السميع البصير المدرك الخبير، ولا كان البحث ولا السمع ولا البصر ولا الإدراك ولا الخبرة.

ولقد مرَّت (**المدارس اليونانية**) القديمة ، ابتداءً من مدرستي (**أنيكسيمانس**) الملطي و(**إنكسماندر**) إلى مدارس (**فيثاغورس**) و(**سقراط**) و(**أرسطوطاليس**) تلميذ (**أفلاطون**) وما تلاها بنفس هذه القضية، (**قضية الوجود**) وماهيات الحقائق ومُثُلها العُلْيا، وتخلَّلت الفترات المتتابعة حَيْرَات داجية، هل الوجود هو الماء؟ أم هو العدد؟ أم هو الذرَّات؟ أم هو الهواء؟..

وخلال هذا قامت (**المدرسة السوفسطائية**) لتضرب مثلاً عجيبًا ، تزعم فيه أن كل مفكر مصيب فيما فكر فيه من زاوية نفسه : ﴿**وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ**﴾ [المؤمنون: 71].

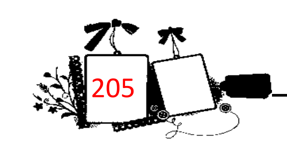


فماذا أنتجت بحوث (**المدارس اليونانية**) و(**فلسفات الإغريق**)المادية الجدلية؟.. أما زالت تتيه في دياجير الحيرة ، حتى ظهر أخيرًا (**أفلوطين الإسكندري**) فرأى أن آراء (**المدارس الإغريقية**) في وَحْدة الوجود آراء صحيحة ، لكن مجموع هذه الوَحْدة إنما هو (الإله) (المهيمن) على ظواهر الأمور وبواطنها.

هذا وقد جاء (**الإسلام الحنيف**) الذي أتمَّه (الله) وأكمله : ﴿**دِينًا قِيَمًا**﴾ [**الأنعام**: 161] ، على (**نبيه**) ورسوله (**محمد**) ﷺ ؛ ليقول للحائرين التائهين في مشارق الأرض ومغاربها حول البحث في ذات (الله) ﷻ : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: 11]، ثم نفى الإدراك الشُّهوديّ نفيًا قاطعًا مريحًا من الثرثرة والجدل : ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ ، [الأنعام: 103]. وعاد لينفي متاهات التصوُّرات القاصرة على تعدُّدها: ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: 43]، ثم أشار إلى ما تورَّط فيه البشر من أخطاء وظنون وتخرُّصات وأوهام عندما قال تعالى : ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ**﴾ [هود: 123] ، وعندما قال جل شأنه: ﴿**ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ**﴾ [يونس: 23]، ثم أشار ﷻ إلى الاختلاف في الرأي والعقيدة وموقف الرسول ﷺ منه عندما قال : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الزمر: 46].

وهكذا أرسلت (**آيات الكتاب الحكيم**) أشعتها النَّفَّاذة على فلسفات الجن والإنس في المشرق والمغرب ، وما اندفع إليه تطفُّل العقل على محاولة استكناه الأسرار الكبرى ، المختبئة خلف مظاهر الكون عُلْويّة وسُفْليّة ، وقرع أقفية الزنادقة المتنطِّعين بصفعات عريضة عندما قال عَزَّ جاهه: ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**﴾ [الذاريات: 7-13].

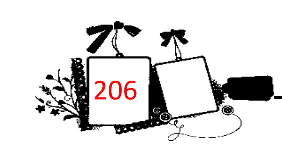




والأمر المشهود أنّ تَطَوُّح العقائد كان في الشرق أوسع نطاقًا وأبعد مدىً، وقد أشار الفيلسوف الإنجليزي الكبير (**تُومَاس كارْلِيلّ**) في المحاضرة الأولى من كتابه: (**الأبطال وعبادة البطل**) كيف كان البطل في صورة (إله) أيام كان الإنسان يعبد الإنسان، متى امتاز على الآخرين في القوة والبدن والجمال، وكيف كانت تُعْبَد الطماطم وظواهر الطبيعة، كالعواصف والرعود والأعاصير، وكيف كان يُمَثَّل لذلك كله بالتماثيل، وتُنْصَب في الميادين وتُقَام بين يديها النُّصُب وتُنْحَر عليها القرابين.

هذا فيما رآه الفيلسوف المذكور، إلا أنه لم يتناول بالتفصيل ما كان في الشرق بين (**الهند**) وبلاد (**فارس**) وما إليها، فكان في هذا المجال بحث مستقل مستفيض حسبما يسمح المقام، نعرضه عليكم فيما يلي من مباحث وفصول.





المبحث الثاني الحلُول والاتحاد والثنَويَّة وما دار في فَلَكها

وقد زعم بعض (**مُتَصوِّفة الفُرْس**) أن (الله) ﷻ ، بوصفه فيَّاضًا (**يَحُـلّ**) في الأجسـام و(**يَتَّحـد**) بها؛ فتقع الأفعال بناءً على هذا.

وقضية (**الحُلُول والاتحاد**) قضية مشهورة البُطْلان، تناولتها كتب العقائد، ونحن نوجز لك هنا براهين بطلانها : -

فأما كونه ﷻ يَحُلّ بالأجسام فمُحَال؛ لأن المَحِلَّ ظرف للحالِّ به، ووجود الظرف إما أن يكون مساويًا في الوجود للمظروف ، وإما أن يكون سابقًا عليه ، فإن يكن مساويًا فكيف صدر ومن أين جاء؟! فيلزم التعدُّد حتمًا ؛ لأن ماهيَّته قائمة قيام ماهية المظروف وكلاهما مُحَال .

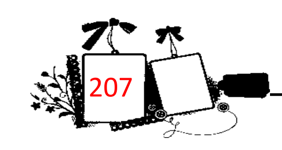
ثم نقول إن الظرف محيط بالمظروف ، فكيف تكون الأجسام محيطة بمن حلَّ بها ؟! وهـو تعـالى: ﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ**﴾ [فصلت: 54].

والآية برهان قطعيّ الثُّبوت على نَفْي الظرف بتاتًـا ؛ لأن (الله) –سـبحانه– واجـب الوجـود ، ومتى كان واجبًا لزم سبقه في الوجود على وجود الممكنات.

وإن السبق – في حد ذاته – لبرهان على عدم إحاطة المسبوق بسابقه ، الذي له الأبدية والأزلية بهذه الموازين الاعتبارية ؛ إذًا فإن القول بالحُلُول كُفْر صُرَاح وجهل جهول بذات (العلي) ﷻ .

أما الاتحاد ، فهو صيرورة الحَالِّ والمَحِلّ شيئًا واحدًا ، بمعنى اتحاد كل من الظـرف والمظـروف وصيرورتهما واحدًا بالذات.





وهذه الأخرى أوضح بطلانًا من الأولى؛ لأنها تجعل كل مَحِلّ حالاًّ، وتجعل كل موجود هو (الله) وهذه باطلة ببداهة العقل؛ لأننا نرى الأشياء والأحياء في عالم **(الكون والفساد)** تكون ثُمَّ يفسد تكوينها، فهل نقول إن (الله) -تعالى- يموت في الميت؟ أم ينسحب منه كانسحاب المظروف من الظرف؟!.

وأصل الفرض أن الظرف صار مظروفًا، وأن المظروف هو عين الظرف بالاتحاد المزعوم ، هذا خُلْف واضح يجب إهماله.

وهكذا اتضح لنا بطلان القول بالحلول والاتحاد ، الذي أدى إلى ظهور الزندقة والسفسطة والإلحاد ، ولطائفة **(الحُلُوليين)** ثرثرات هَذَيَانيّة لهم فيها شعر منظوم في مثل قولهم :

(إنِّي أنا (اللهُ) لَـمَّا جَاز مِن شجرٍ فكيف بالكاملِ السَّامِي من البشرِ)

ومُحَصَّل هذا البيت الشعريّ البهلوانيّ أن **(القرآن)** الكريم يقول عن (الله) سبحانه وتعالى: ﴿ **فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [القصص: 30].

ويزعم **(الملحدون)** أن قوله: ﴿**مِنَ ٱلشَّجَرَةِ**﴾ تحديد للذات الإلهية ، التي هي في نظرهم -حين القول- مَحِلٌّ حلت فيه الذات العلية ، وقالت ما قالت. فهو يقول للموحِّدين عليهم السلام ، إذا جاز أن يقول **(القرآن)** بالحدود : ﴿**مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ**﴾ [القصص: 30] ، فكيف لا يجوز أن يحل في الإنسان عندما يقول : ﴿**إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ**﴾كما جاء في سورة **(القصص)**.

فيا هؤلاء الآلهة كيف تموتون؟! ويا هؤلاء الآلهة كيف تَهْرُمون وتَضْعُفون؟! فهل قوة اتحاده عز وجل بكم يعتريها المد والجذر والتقلص والالتواء؟! فإذا صَوَّح غضن شباب ، فهل معنى هذا أن قوة الاتحاد في ذلك الواحد أخذت تتقهقر وتأخذ طريقها إلى الانفكاك والانحلال؟! .

هذا – رغم أنوف شياطينكم – ظاهر الضلال وباطل المُحال، فإنكم لن تجدوا في أنفسكم برهانًا واحدًا على الاستقلال بالوجود والقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام.

بل إنكم تستمدون هذا كله من تجلِّياته ﷻ عليكم ، ولكنكم في دياجير ضلالاتكم تُوَحِّدون بين المتجلِّي والمجلَى، فتقولون إن المجلَى هو عين المتجلِّي، وهذه معناها أن القمر وهو مجلَى الشمس هو عين الشمس ، وهي ذات الضياء المتجلِّي.

فليخبرنا شيطانكم إذا واجه الإنسان مرآة فظهرت فيها صورته ، فهل هذه الصورة المنعكسة بمجلَى المرآة هي عين الشخص المتجلِّي أمام المرآة؟!..

إنك مُرْغم أن تقول إن الصورة الظاهرة في المرآة ليست عين المتجلِّي بها، كما أنها أيضًا ليست غيرًا له ؛ لأنها لو كانت عينه فأرسلنا أصابعنا في عينيه لفَقَأْتِها، ولكنَّ هذا لا يكون!. فهي إذًا ليست عين المتجلِّي، كما أنها كذلك ليست غيرًا له ؛ لأنها لولاه ما ظهرت ، ولو كانت غيرًا له لكان لها استقلال وجوديّ لا يزول بزواله ، إذًا فمتى كان الانعكاس الظاهر في المرآة لا عينا ولا غيرًا للمتجلِّي؛ فيلزم أن يكون تجلِّيًا له.

كذلك –وله المثل الأعلى– تكون جميع الحقائق الكونية من تجلِّيه ﷻ– بصفاته وأسمائه– ليست عينًا له ولا غيرًا ، هذا هو رأي **(المُوَحِّدين)** ، فلم يبقَ محل لزعم **(الحُلُول)** ولا حصر يُعْقَل على المُطْلَق في زعم **(الاتحاد)**.

وذلك لأننا فرغنا من تقرير وَحْدَانية الأزليّ الأبديّ ، فلا حلَّ بشيء ولا به اتَّحد وهو المفهوم الواضح من الآية : ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: 1].

ومقام **(الأحَديّة)** غير قابل إلى **(الثَّنَوية)** بوجه من الوجوه ، وبهذا يُجاب على أوهام **(المَجُوس)** أيضًا حيث يزعُمون أن الحقيقة الكلية قد انقسمت بذاتها إلى قسمين :

أوَّلها النار: وهي (**إله**) عندهم يطلقون عليه اسم (**أهرمن**).

وثانيها الماء: وهو (**إله**) عندهم مستقلّ بالعبادة كزميله ويُطْلَق عليه اسم (**يزومن**).

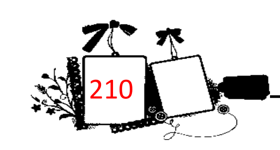
فالإله (**أهرمن**) عندهم مصدر الحرارة والقوة والإنضاج والدفء، والإله (**يزومن**) عندهم هو مصدر الحياة والرُّوح، وهو قاهر فوق النار وله عليها السلطان إلا إذا حيل بينه وبينها بحجاب، فإن الإله (**يزومن**) حالتئذٍ يثور ويفور ثم يأخذ طريقه إلى الإطلاق المائيّ وهو الهواء ، حيث يكون الإله (**يزومن**) في حال الغليان بُخارًا ، يبحث عن باب ينطلق منه ويعلو على سلطة (**أهرمن**) ، ويُرى هنا الإله (**يزومن**) جبارًا يفجِّر كل قيد ويحطِّم كل حصار.

أمثال هذه الأوهام تنتهي بنا إلى ما أشار إليه العلَّامة الذي ضَرَبْنا به مثلاً من فلاسفة الإنجليز (**توماس كارْلِيلّ**) عندما تكلم عن عبادة ظواهر الطبيعة.

ومن بين الطرائف المتفشية في بلاد (**الفُرْس**) من يعبد الفَرْج، ويعتبره بابًا لتنزُّل الرُّوح الأعلى، ومنهم من يرى نَفْي المِلكِيّة بتاتًا وهو (**مردوك**) الفارسيّ الشيوعيّ الفاشل الذي ما كاد أمره يبتدئ حتى انتهى ، ومن بينهم (**ماني**) زعيم طائفة (**المانوية**) ، ومنهم أيضًا (**ديصان**) وهو زعيم طائفة تنتحي منحىً آخر، وهكذا لم نجد من بينهم من يستحق الاهتمام سوى (**زَرَادَشْت**) [57].



(57) عاش (زرادشت) ما بين عامي (150–160 ق.م)، وهو مؤسِّس (**الديانة الزرداشتية**) ، أو ما يُعرف باسم (**المجوسية**) في بلاد (**الأكراد**) القديمة، ولا أحد يعرف على وجه اليقين هل هو نبيّ أم فيلسوف أم أنه مصلح يحب الخير لقومه الذين كانت قد انتشرت بينهم عبادة الأصنام وسيطرة السّحرة والمشعوذين على أذهان البسطاء.



فقد ترك كتابًا عجيبًا، وطرق بذلك أبواب مباحث كبرى ، وكان فيلسوفًا عبقريًا دخل بالعقل البشريّ إلى آفاق لا يستطيع إدراك مداها، واتهمه بعض أعدائه بأنه شخص غامض في ذاته لغموضه في عباراته.

و(**للفُرْسِ**) قدم سبَّاقة إلى (**الفلسفات الكونية**) ، ولعلك تجد في كتاب (**الشَّاهْنَامة**) [58] ما نلمس من أثرات ما ورد بالغرب في (**إلياذة هوميروس**) [59] ، وهذا يدل على مواقع اللقاء الاضطراريّ بين الباحثين والفلاسفة في الشرق والغرب معًا.

وإذا نحن عرجنا على (**الهند**) ، اتسع أمامنا نطاق البحث في مذاهب (**السِّيخ**) و(**البَرَاهِمَة**) و(**البُوذِيّين**) و(**عُبَّاد البقر**).

ومع هذا نجد أفرادًا من كبار فلاسفة (**الهند**) ومن معتنقي مبادئ (**البراهمة**) وطائفة (**اليُوجِيّنْ**) أتباع (**الراجايوجا**) [60] ، من استطاع بالشعر أن يرتفع عن المستوى الذي يحيط به من أمثال (**المهاتما غاندي**) الزاهد ، وأيضًا (**رابندرانات طاغور**) [61] اللَّذين حلَّق أوَّلهما في سماء الحقائق الكُلِّية، فآمن بأن الدين هو المحبة والرِّفق بكل حيّ والإعراض التام عن زخارف الدنيا ، والتحلِّي بالثياب الإحرامية والقناعة في الزاد ، مع الشجاعة التامة وسِعَة الأفق في الدراسات ؛ لأن (**غاندي**) كان من خريجي جامعة (**أُكْسُفورد**) يلبس ملابس طلبتها ، حتى إذا هدته العناية إلى الكفاح من أجل تحرير بلاده ، تحرَّر من زينة الدنيا واكتفى من الثياب بما يشبه ملابس الإحرام ، مع أنه كان من أصحاب الملايين ،الحاصلين على درجات الامتياز وأنواط الشرف من كُبْرَيَات الدول.

(58) (**الشاهنامة**) كتاب الملوك أو ملحمة الملوك ، أَطْلَق عليه (**ابن الأثير**) (قرآن فارسيّ) وهو يُعَدّ الملحمة الوطنية لإيران (بلاد فارس) وإحدى كلاسيكيات الأدب العالمي.

(59) تعد (**إلياذة هوميروس**) واحدة من معجزات الأدب عبر التاريخ ، وتحكي القصة (**حصار مدينة طروادة**).

(60) (**الراجايوجا**) كتاب يتضمن خلاصة الغوص في بحار عدد من العلوم والفلسفات الشرقية والغربية المعقدة، بعضها يضرب في القِدَم إلى أبعد عهد الحضارة ، وبعضها يَدِين بالفضل إلى أحدث اكتشافات معاهد (**العلوم الماورائية**) الحديثة ، ويتناول كما هو عنوانه (**قوى الجسد الخفية**) .

(61) (**طاغور**) شاعر وفيلسوف هنديّ وُلِد عام 1861م بمدينة (**كالكتا**) ، وتلقَّى تعليمه في منزل الأسرة على يد أبيه وبعض المعلمين المعروفين ، درس (**اللغة السِّنسكريتية**) لغته الأم وآدابها ، ودرس اللغة الإنجليزية ونال جائزة (**نوبل**) في الآداب عام 1913م .

أما (**طاغور**) فقد كان موسِرًا واسع الاطـلاع ، سـائحًا يَقُـصّ آثـار العصـور والأجيـال عـلى رسومها وبين أطلالها، ويقتنص العِبْرة حتى اهتدى إلى مـا اهتـدى إليـه مـن قبلـه بـآلاف السـنين (**أفلاطون**) و(**أرسطوطاليس**) في علم الحكمة وأن هذا الوجود خير مَحْض، وأن هذا الخير إنما هـو خير نسبيّ وليس مُطْلَقًا.

وهذا ما يقوله (**أفلاطون**) بالذات:

(ليس في العالم شيءٌ هو خير بذاته أو شرّ بذاته بل بالوضع، وقد يكون الخـير شرًا، وقـد يكـون الشر خيرًا) ؛ فلا تكون هنالك حقيقة ثابتة.

وهكذا رأينا أن الذين كانوا صرعى(**الشك**)، أوصلهم ذلك إلى وجود يقينيّ، كما كـان يردّدهـا (**ديكارت**) [62] الفيلسوف الفرنسي حينما قال:

(أنا أستطيع أن أشُكّ في كلِ شيء، ولكن شـيئًا واحـدًا لا أسـتطيع أن أشُـكَّ فيـه، وهـو أنني أَشُكّ).

وهي في الواقع حكمة يأخذها المؤمن (**أنّى وجدها**)، فإذا كان (**الشك**) مبدأها، يُطَبّق في النظـر إلى الحقائق ، فلا مفرّ لهذا الشاكّ من التسليم الموقن بأنه يَشُكّ ، ولو أنه –بعد ذلك– أخذ يَشُـكّ في أنه يَشُكّ ، لانتهى به الأمر إلى الجنون.

وهنا نجد (**القرآن**) العليّ الحكيم يعلنها في صراحـة : **﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾** [**إبراهيم**: 10].



(62) (**رينيه ديكارت**) المولود في 31 مارس 1596م ، ويُعتبر (**أبا الفلسفة الغربية الحديثة**)؛ لأن لـه تـأثيرًا كبـيرًا على المفكرين الذين أَتَوْا من بعده ، وتأثّروا بفلسفته القائمة على (**منهج الشك**) للوصول إلى اليقين في بحث كافة الحقائق.



وهذا الاستفهام المُشَبَّع بروح الأفكار فيه من التحدِّي ما ينفي (**الشك**) نفيًا علميًّا، فكأنه يقول : ألم يَكْفِ الشاكَّ –وهو سميعٌ بصير– ما يشهده من آيات ظهوره ودلائل قدرته وتجلِّيات نوره بين السموات والأرض ، تُطَالِعه قبل أن يُطالِعها وَتَزُفّ إليه مُتْقَنَاتها وبدائعها، ويدق أمامه مدار غواربها وطوالعها على نَسَق مستقر في الدنيا بجميع مواقعها ومواضعها.

وقد أشار (**المحيط**) بجميع العلوم ﷻ : ﴿**فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ**﴾ [الواقعة: 75].

أجل.. أما يكفيه كل هذا لدفع الشك عن وجود (**الله**) جلَّ وعلا، بينما آياته قواطع للشكوك مُذْهِبات للرِّيَب؟!..

تَجَلَّى فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ يَزَلْ ... عَلِيًّا كَبِيرًا فَضْلُهُ يَتَجَدَّدُ
وَأَرْسَلَ آيَاتٍ مِنَ النُّورِ لِلْهُدَى ... ونَادَى بِهَا بَيْنَ البَرَايَا (مُحَمَّدُ)
أَيَجْحَدُهَا بِالشَّكِّ مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ ... وَعَيْنَاهُ آيَاتِ السّمَوَاتِ تَشْهَدُ
وفِي نَفْسِهِ بُرْهَانُهَا وَهُوَ قَاطِعٌ ... وَفِي كُلِّ قَلْبٍ لِلْعَلِيَّاتِ مَعْبَدُ
ومَنْ شَكَّ أَنَّ الشَّمْسَ يُصْلِيهِ حَرُّهَا ... ويُجْلَى ضُحَاهَا فهُوَ لَا شَكَّ مُلْحِدُ
وهلْ يُنْكِرُ الأَعْمَى ضِيَا الشَّمْسِ ... وَمِنْ حَرِّهَا أَنْفَاسُهُ تَتَرَدَّدُ
وأينَ العَمَى بُورِكْتَ مِنْ ذِي بَصِيرَةٍ ... إِذَا عَنَّ حَمْدٌ فَهُوَ (لله) أَحْمَدُ



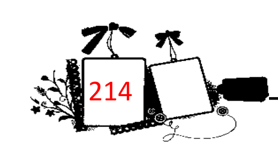
نعم و(**الله**) يا أخي، إن سريان الرَّيْب في النفس ليس إلا برهانًا على انعدام استقرارها وفُقْدان استبصارها؛ ومن أجل ذلك نرى في مطلع (**القرآن**) مباشرةً قطع دابر الشك والرَّيب في صدق هذا الكتاب السامي بمضامينه ومعانيه وإشاراته : ﴿**الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ**﴾ [البقرة: 1، 2].

وحيث إنه من الغيب؛ فمن حقه أن يقول : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ﴾ [البقرة: 2] ، ولكنَّ الذين ارتابوا ساءت عُقْبَاهم ؛ فقد أشار إليهم - ﷻ - بين المُعَذَّبين بقوله: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: 13، 14].

وهؤلاء لم نُسَلِّم لهم بأنهم أصحاب مدرسة كمدرسة (**السوفسطائيين**) [63] مثلاً ؛ لأن هؤلاء لا يستطيعون أن يقيموا بناء مدرستهم أو لَبِنة واحدة من لبناتها على قاعدة الشك المزعومة تلك ؛ لالشئ إلا أن ذات (**البارئ**) تبارك وتعالي تسمو، وتفوق كل مايمكن أن نصفه نحن الذين (**لم نُؤت من العلم إلّا قليلا**) بالماهيَّات العقلية المجردة .



(63) (**السوفسطائيون**) اسم يُطلق على أعضاء حركة ثقافية، وُجِدت في مجتمع المدن (**الإغريقية**) في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، وهم أساتذة رحَّالون يُدَرِّسُون قواعد اللغة وفن الخَطَابة ، الذي كان مُهِمًّا في ظل الأنظمة الديمقراطية القديمة التي كانت سائدة في (**أثينا**) ، ومن أشهرهم (**بروتاجوراس**) و (**جورجياس**) و (**أنتيفون**) .



المبحث الثالث إن ذات الله ـ تعالى ـ فوق المَاهِيَّات

إن ماهيَّة الشيء هي حقيقته التي هو بها هو، وهي التي يُجاب بها على السؤال بـ (ما هو)؟.

لكنّ هذا لا يمكن أن ينطبق على حقيقة الحقائق ، التي هي مصدرها ومَعَادها بلا زمن ولا حدّ ولا وَصْف ولا رَسْم ، ولا ترقى إليه ﷻ قضايا المنطق العقليّ ولا أشكال القياس.

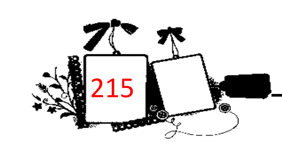
فذات **(الباري)** سبحانه وتعالى -بوصف كونها محيطة إحاطة الشُّمول- لا يمكن أن تكون مُحاطًا بها بأيّ وصف من الأوصاف؛ ولذلك كان مجال العلم ومِضْمار البحث إنما هو في الصفات الذاتية التي تتجلَّى آثارها دائمًا وبصفة سرمديّة لا نفاد لها.

وعندما نقول باستحالة الإحاطة بأسرار الذات، فإنما نريد أن نسأل :

هل يُسلِّم الخَصْم بوجود الأسرار أم يُنْكِرها؟ ..

فهو إما أن يكون مؤمنًا بوجودها، ومن ثَمَّ لا يُعْقَل أن يطالبنا بتعريف ماهيّتها، وإما أن يكون مُنْكِرًا لها؛ فنعود إليه لنسأله هل يستطيع أن ينكر أنه كان وَحْدة مَنَوِيَّة لا يمكن أن تُرى إلا باستخدام **(الميكرسكوب)**، وهو مُلْزَم أن يجيب بالإيجاب. فهل ينكر إذًا أن شيئًا جعل هذه **(الوَحدة المَنوِيَّة)** تتحول إلى **(عَلَقة ثم إلى مُضْغة)** وهكذا حتى صار كما يرى نفسه ، فهو مُلْزَم الآن أن يعترف بأن شيئًا خفيًا أخذ يدفع تلك الوَحْدة في طريق التطور إلى الكمال المنشود منها. فهل يعرف ما هو هذا الشيء؟..

والجواب لا، فنعود لنقول له إن هذا الذي لا تعرفه ولم تشهده بعَيْنَيْ رأسك ولا أنت تدركه بعقلك، هذا الشيء الخفيّ هو الذي نسميه سِرًّا؛ وبناءً عليه فأنت مُلْزَم بالاعتراف بوجود السر الخفي، وإن وراء هذا السر لأسرارًا متوغِّلة في أعماق الخَفَاء.



فيلزم من كل هذا الاعتراف -بدون أدنى ريب أو شك- بوجود قوة مُدَبِّرة حكيمة عليمة قادرة محيطة غنية، تقوم بكل ذلك الإبداع والتكوين وبث الطُّعوم والروائح والألوان والقسمات.

وهذه القوة هي صفة لذات (**البارئ**) ﷻ ، (**الظاهر**) بصفاته ، (**الباطن**) بأسرار ذاته.

فسبحانه مُنَزَّهًا عن سمات المُحْدَثات ،وعن الحدود والجهات، وعن الخصائص والماهيَّات ؛ لأن كل ذلك إنما كان بصُنْعِهِ وتدبيره وحكمته وتقديره وإبداعه وتصويره :

فسُبحانه مِنْ (عَلِيٍّ قديرْ ... حكيمٍ عليمٍ سميعٍ بصيرْ)

(رؤوفٍ) رحيمٍ يَبْذُلُ النَّدى ... (قويٍّ عزيزٍ مُحيطٍ خبيرْ)

تعالى وعزَّ عن المُدْرَكاتْ ... ومنهُ ابتدأنا إليه المَصيرْ

وقُوَّاتُنا فيضُ إمدادِهِ ... إليه التجأنا ونعمَ (النصيرْ)

❋ ❋ ❋ ❋

ولَعَمْرُك إنه لا مجال في الباب الذاتيّ للتطوُّح مع أفانين التصورات، مادام هناك شيء مشهور مبرور هو الإيمان.

وهذا الإيمان ليس سوى التصديق القطعيّ الجازم لوجود مَنْ هذه صفاتُه؛ ذلك لأن الصفة لا تقوم إلا بالذات ، فصانع الكرم (**كريم**)، وواهب الحياة (**حيّ**) ، وهكذا في السمع والبصر وسائر إدراكات ومشاعر الإنسان.

كل ذلك فيض ممنوح من جانب الذات الأقدس ،الذي تجلَّى بهذه الصفات ، وهو القائل تبارك وتعالى : ﴿**وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾ [يوسف: 105].



(اللهم) نَجِّنا بفضلك وحفظك الإعراض عن آياتك،أوالإنصداف عن عظـيم بيّناتـك،أو الإنصراف عن كريم آلائك في جليل أسمائك وصفاتك، واكتبنا يا**(ربنا)**من عبادك المخلَصين.

لا**(إله)** إلّا أنت-سبحانك- نعم **(المؤمن)** ونعم **(البصير)** ، تنزهت ذاتك عن الشرـك وتجـاوز الحد ،(**لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علي نفسك**).



المبحث الرابع عِلْم المَنْطِقِ وعَلاقته بالإيمان

وفي المنطق قسمان: (**التَّصَوُّرَات**) و(**التَّصديقات**) وهو ما يتعلق بالبرهان.

أما(**التصورات**): فتُنَظِّم البحث في كل ما يمكن تصوُّره، وترسم الخطوط الرئيسية لسَيْر الفكر في طريق مستقيم، يدور على ضبط القياس في تكوين المقدمات المُنْتِجة نتيجة معقولة؛ لأن المنطق في ذاته هو علم يَعْصِم الذهن عن قَبُول الخطأ القياسيّ في القضايا الكلية والجزئية والسالبة والمُوجِبة وغيرها من فنون النظر.

وأما (**التَّصديقات**): فهي أمور ترتكز على عناصر غيبية، لا يمكن تحديدها بأشكال القياس المنطقيّ، فالكلام عن ذات (**الله**) جلَّ وعلا وعن الملائكة وعن الجن وعن الحشر والمعاد والجنة والنار والثواب والعقاب وما وراء العقل مُطْلَقًا، كل ذلك غير ممكن التصُّور ولا الحدّ ولا الرسم ولا صياغة تعريفه صياغة عقلية -أي منطقية- فلَزِم من هذا أن تكون كل هذه الشئون من قسم (**التَّصديقات**) لا من قسم (**التَّصَوُّرَات**).

وما هو التصديق؟

أليس هو الإيمان بوجود حقائق ثابتة بالأثر، مجهولة بالنظر والمعاينة، لا يمكن تصوُّرها؟.

ومن هنا تتبيَّن علاقة القِسْم الثاني من أُولَيات المنطق بالإيمان، أن أُصَدِّق بوجود (**الله**) تعالى وجودًا ذاتيًا قائمًا بالصفات التي تقوم به، مع العلم باستحالة تصوُّر ذاته ﷻ، وكذلك الإيمان بالملائكة والجن والكائنات المجهولة في عالم الخَفَاء الذي هو خفاء نسبيّ، أي بالنسبة لنا نحن الذين لم يمكن لنا تصوُّر شيء واضح الأثر على العين.

و لذا وجب علينا من باب الإنصاف واحترام العقل – فضلاً عن الوحي والدين- أن نُعْلِن الإيمان به تصديقًا قاطعًا ،لا يتسلَّل إليه الشك ولا يرقى إلى الرَّيب.

ولعلَّ في الأمثلة ما يُقَرِّب البعيد إلى أذهان الباحثين :

فإليك مثلاً زهرة بيضاء من زهرات القُرُنْفل، وفي قاع كأسها عند براعم التـذكير لـون ذهبـيّ، وهي قائمة على عود من الأخضـر الفاتح، فانظر إليها وأنعم النظر، ثم أمعـن الفكـر وقـل لي: ألا تشهد فيها بِعَيْنِي رأسك وعين بصيرتك آيات الإبداع في الصُّنع والتكوين والقدرة المريدة الفعالـة في الإنشاء والتكوين؟..

فأنت الآن تشهد أمام ضميرك الحيّ الواعي أن مُنْشِئها (**بديع- حكيم خبـير- قـادر- علـيم**)، ولكنك رأيت أثر هذه الأسماء ولم تشهد المُسَمَّى، فلزم التصديق بوجوده وإن رأيت أثره ولم تشـهد ذاته .

ومن هذا المثال نبتدئ الطريق إلى مراقبة تجلِّيات ذلك (**الخالق - البـديع**) بـما ذرأ عـلى الأرض، ثُمَّ في نفسك أنت وما يحيط بك من مُتعَلَّقات شأنك بين الحياة والمـوت واليسرـ والعسرـ والبسـط والقبض وهكذا.

فإن إمعان النظر والمطالعة الواعية في جميع صفحات هذا الكون من كتاب الوجـود المشـهود ، يَزِيدُك إيمانًا على إيمانك ويعطيك برهانًا على مقارعة الذين هم عن طريق الإيمان ناكبون وللحقائق يُعَادُون.

ومن حقه- تعـالى- أن يسـألهم مُسْـتَنْكِرًا في آياتـه المُحْكَـمات: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [**الواقعة**: 82] ؛ لأنه - سبحانه- يقول : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38، 39] .

وهذه (**الآيـة**) بذاتها تمثِّل القسمين المنطقيـين ألا وهمـا (**التصـور والتصـديق**)؛ فـنحن نتصـور الممكنات التي يتيسّر إدراكها، ونصدق بالكائنـات المجهولـة الخفيـة وبـالأسرار الكونيـة التـي لا يمكن وقوع إدراكاتنا عليهـا، وإلا غمرتنـا (آيتـه) تعـالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: 39] .

والتكذيب ضد التصديق، ولا ندري كيف يصل الأمر بإنسان عاقل أن يكذِّب بشيء ظاهر الأثر واضح المبتدا والخبر: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49]، وهو يرى دائمًا وكلما نظر معالم التقدير وآيات التدبير، ورغم ذلك يُكَذِّب به ﷻ ويكفُر، وهو (المُقَدِّر) (المدبِّر).

ولو أننا أعرنا (القرآن) التفاتة كريمة عميقة، لَشهِدْنا العجب العُجاب فيما يعرضه هذا الكتاب الكريم من (آيات (الله)) ﷻ (آية بعد آية)، في بدائع الكون الواسع الفسيح، بأنهاره وجباله وسمائه وخمائله ورياضه وحياضه.

على أن «يس»[64] أعمق (سور القرآن) في عرض مصنوعاته سبحانه، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يس: 33-35].

وهكذا نرى في بقية هذه (السورة) الكريمة صورًا للعرض الواقع من آيات الليل والنهار والشمس والقمر، والفُلْك السائرة فوق مياه الأنهار والبحار حتى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس: 51، 52]، وتناوُل آية البعث والنُّشور والحساب: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يس: 54].

---

(64) وقد أخرج الإمام (الترمذيّ) والإمام (البيهقيّ) عن (أَنَس) قال: قال رسول (الله) ﷺ: «**إن لكل شيء قلبًا وقلب (القرآن) (يس) ومن قرأ (يس) كتبَ (الله) له بقراءتها قراءة (القرآن) عشر مرات**»، وأخرج (الدارميّ) عن (الحَسَن) رضي الله عنه أجمعين قال: بلغني أنها تعدِلُ (القرآن) كله، وقد ورد في فضلها الكثير.

وإنْ كل ذلك إلا دفع لطيف –بالبُرْهان العقليّ وبالمشاهدة ومتابعة التجلِّيات الربَّانية– من حظيرَة الشرك والشك إلى رياض الإيمان واليقين :

(فللـهِ) مـا آتـاكَ! لم تَفُـزْ بهـا — بـدائعُ آيـاتٍ عـلى رُسْـلِها تُمْـلَى
أَإنْ قلتُ يومًا باسمِها رَدَّني الهوى — ومطلعُ أسرارِ الحيـاةِ بهـا يُجْـلَى
وإن لم أَقُلْ ما الحقُّ يُمْلَى فما الـذي — سواه تَرَجَّى أن أَسُوقَ بـه القَوْلَا
أَأُنْكِـرُهْ والحادثـاتُ شـواهدُ — كما قُلْتَ هذا يا رفيقَ الهُدَى قَبْلَا
فعُـدْ بي إليهـا مـرَّةً بعـدَ مـرَّةٍ — بعـزةِ مُلْـكٍ لا يـزولُ ولا يَـبْلَى
وبَـادِرْ هواهـا في مطـالعِ حُسْـنِهِ — فما تَرَكَتْ صعبًا ولا تركَتْ سَهْلاَ

* * * *

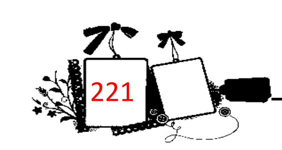
نعم بادِر يا أخي إلى اليقين بحدوث العالم ، تجد نفسك مُلْزَمًا –إلزامًا منطقيًا رياضيًا– أن تؤمن بأن مُحْدِث العالم سابق عليه قديم بالنسبة إليه أزليّ فـوق النِّسَـب والإضـافات.فإذا ظهـر شيء مما تبصرون فهو مصدره، وإذا بطن شيء مما لا تبصـرون فهو مبدؤه.

ومن كان هكذا ،منه المبدأ والبدء وإليه الحُكْم والمعاد ، كان (واحدًا–أحدًا) يُرَى أثره ولا يُعْلَم خبره ؛ ومن هنا تظهر قيمة الإيمان ويُوضَع الناس على كِفَّتَيْ ميزان. نسأل (الله) ﷻ أن يجعلنا ممن ثَقُلت موازينهم وحَقَّ يقينهم :

يـا (ربُّ) عَبْـدُك بَاعَهـا — نفسًـا تَحِـنُّ إلى وفائِـكْ
وتُحِـبُّ وِرْدَكَ صَـافيًا — وصـفاءُ وِرْدِكَ مـن صَـفَائِكْ
(عجبًـا خَفـاؤُك مِـنْ ظهـورِكَ — أم ظُهُـورُكَ مِـنْ خفائِـكْ)
فلقـد شَـهِدْتُكَ حانيًـا — حاشَـاكَ تُعْلِـنُ عَـنْ جَفَائِـكْ


* * * *





المبحث الخامس دلالة الأثر على المُؤَثّر بَدَهِيَّة

مما لا يحتاج إلى استخدام الرَّوية والبحث أمر (**دلالة الأثر على المؤثر**)، فإنني عندما أشعر بقبض من العُسْر، ثم أجد يدًا بيضاء قذفت إلى يدي بمبلغ من المال يغني حاجتي، ثم غابت عني في ديهور الغيب، ثم سألني أحدالأصدقاء عن مصدر تحوُّل عسري إلى يسر- وقبضي- إلى بسط، فإن الواقع يُلْزِمني أن أقول إن الذي صنع هذا الكرم صانع (**كريم، رءوف، رحيم**)، عَرَفْتُ أسماءه هذه وصفاته من فعله، وما ترك فعله من الأثر المحمود وتحقيق الأمل المنشود.

ومتى كان وصول المدد في ساعة الحرج والوقت المناسب، عَلِمْتُ -لهذه المناسبة- أن الفاعل (**لطيف**) (**ودود**).

وهكذا فيما سوي هذا المثل من حوادث الكون وأحداث الزمان.

وقد بيَّنَّا ونحن بصدد تجلِّيات الأسماء التقابل بين الاسمين الكريمين (**القابض- الباسط**) وأنه واحد بالذات مع الاختلاف بين تجلِّيات كلّ من الاسمين، وقلنا إن تعدُّد الصفات -لِتعدُّد الأسماء- لا يدل على تَعدُّد الموصوف أو المُسَمَّى، الذي قامت بذاته الأَحَدِيَّة هذه الصفات والأسماء.

فمن هذا المنهج البعيد عن لولبيات الفلسفة وحلزونيات الاستقراء والاستنباط، نُواجِه البداهة الواضحة في مُطالعة المُكَوَّنات لندرك -ولو شيئًا من الإدراك- ما يجب لصانعها من الصفات وما يستحيل عليه- تعالى- من أضّدادها، وما يَقْضِي به تقديسه- سبحانه- عن ما للحوادث من سمات وهنَّات وهفوات وأخطاء، باعتبار كونه - ﷻ- (**الحكيم- العليم**) (**العليّ- العظيم**) (**المُقَدِّر- المُدَبِّر**) (**الظاهر**) بما شاء أن يظهر به في الشأن اليوميّ، (**الباطن**) بما لا يزال مُنْتَظَرًا زمنه المُقَدَّر مما هو في عالم الغيب.



وهنا نلتقي مرة أخرى بالمنطق العقليّ لنُصَدِّقَ (**بعالِـمِ الغيـب**)، ونحـدد ونتصـور ونقـيس ونـزن ونُبَيِّن ونعرف في عالم الشهادة.

أما الذات الأقدس فلا بطون عليه ؛ لأنه لا ظَهَر لغيره ولا بَطُن عن نفسه؛ للوَحْدانية الثابتـة بـين (**الباطن -الظاهر**) و(**الأول -الآخر**).

وهذا التحقيق إنما يُراد به التنويه عنه ﷻ نفيًا تقضي به نظريات المنطق نفسها؛ لأنه لو كان في العـالم إلهان اثنان ،فـإنما تعيَّنـت (**الثَّنويـة**) بيـنهما بـالاختلاف في الإرادة والقـدرة والعلـم والحيـاة إلي آخـر الصفات.

واختلاف الإرادة بين الاثنين المُفْتَرَضَيْن، يترتب عليه تطرُّق الفساد إلى الكون؛ حيث تصـطدم السيارات الفلكية لاختلاف التوجيه الناشئ عن اختلاف الإرادة.

ولَمَّا كان الكون لم ينفسد والسيارات لم تصطدم؛ لَزِم من ذلك لزُومًا منطقيًّـا رياضـيًّا التسـليم بوَحْدة الإرادة التي لا تختلف على نفسها ولا تصطرع مع غيرها من الإرادات كقوله تعـالى : ﴿ **لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء: 22]، وكذلك قوله جل شأنه : ﴿ **وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ** ﴾ [الجاثية: 37].

من أجل ذلك -حيث لا نهاية لعِلْمه و(**لا مُعَقِّب لحُكْمه ولا رادَّ لقضـائه**)- فـإذا كانـت مشـيئتان متعارضتان لإلهين اثنين ، وتغلبت مشيئة أحدهما على الآخر؛ صار لزامًا أن يندحر المغلوب عـلى إرادة المنهزم بمشيئته وتبطُل دعوى الأُلوهية بالنسبة إليه.

وعليه يكون (**الإله**) الجدير بصفات الألوهية (**صمدًا ، واحدًا ، أحدًا**) ليس له ثانٍ ،وهذه هـي النتيجة المنطقيةالتي تشكل في ذاتها وانعكاساتهاجوهر التوحيد في سورة (**الإخلاص**)



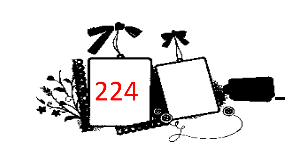


وهكذا تعود إليه من جديد صفة (**الوَحْدانية**)، ويبطُل عنه الشِّرْك بغيره؛ ويلزم بذلك التوحيد المنزه عن كل شائبة من الريب .

والتوحيد صفة ملازمة لذات (الحقّ) ﷻ ؛حيث يقول في (آية) جامعة مانعة :

﴿ **ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ** ﴾ [سبأ: 1، 2] .





المبحث السادس معالم نُفوذ المشيئة ظاهرة في الآفاق وفي الأنفُس

يقول تعالى : ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: 20-23] .

وآية﴿ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ آخذة بأبصار الناس وألبابهم ، فلكل ذي عين أن يشهد، ولكل ذي قلب أن يَعْجَب ويُعْجَب،إذا أراد الوصول من (**عين اليقين**) إلى (**حقّ اليقين**)، متى كان هو نفسه من المُوقِنين غير المتردِّدين (**الضالين**) ، الذين قذفت بهم حيرتهم في دياجير حالكة من الأوهام والشُّكوك والرِّيَب.

وفي الأرض – سوى المظاهر والظواهر– حكمة التَّناسُب والملاءمة بين النبات والحيوان والماء والتراب والهواء والنار.

والنسبة منعقدة بين الإنسان من ناحيته الحيوانية ، وبين كل ما يحيط به من نبات وحيوان يدخل في نطاق حاجته غذاءً أو دواءً وعلاجًا، فضلاً عن النسبة المنعقدة بين سَيَّارات السماء ونجومها، لتكوين الفصول الأربعة ،التي لها شأنٌ في تطوير الانتقال الطبيعيّ في العالم النَّباتيّ والحيوانيّ.

فهل يمكن للإدراك العقليّ أن يتجاهل ما يلزم من العلم والحكمة والقدرة والإرادة ؛ لعقد هذا التناسب والتناسق والملاءمة أو التكامل بين كل هذه الكائنات؟. وهل يسيغ للعقل الاعتراف بالحكمة دون الاعتراف (بالحكيم–الحميد)؟ !. .



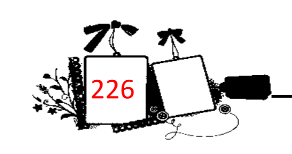
هذه (**آيات**) ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ وطَرَف من (**آيات**) ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ، فلْنَعُد بها مبادرين إلى (**أنفُسنا**) لقوله تعالى : ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ؛ لنجد الحواس وأدوات الملاءمة ومواقع المناسبة .

فإن لنا سمعًا نسمع به الأصوات ، وإن لنا فِقْهًا نفهم به مدلولات الكلمات ، وبصرًا نشهد به المُصَوَّرات على اختلاف ألوانها وما فيها من الملاءمة أو التَّنوع على السواء.

ولنا كذلك عقول مُهَيَّأة ليَميز (الله) لنا بها (**الخبيث من الطيب**)، على أن الخُبْث في المجال العقليّ قد لا يكون متعلِّقًا بماديَّات الأشياء، بل بأرواحها ومعانيها ومصادرها ومراميها.

ولنا قوة مُخَيِّلة تتخيل ما نسمع وتجعله كأنما هو رأى العين، وفينا قدرة مُصَوِّرة تتصور المشهودات عند غيابها ، والأحكام والحساب والرسم والخط وما إلى ذلك.

أليس في انعقاد النسبة ماديًّا بيننا وبين ما أخرج ﷻ لنا من الأرض، وما خلق لنا فيها مما يحتاج إليه كياننا وبقاء نوعنا ، وخلق لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكن إليها، ووَهَبَنا من أزواجنا وذرِّيَّاتنا قُرَّة أعْيُن،أليس كل هذا – فضلاً عن الصفات التي ذكرناها– براهين دامغة على رحمته ولُطْفه، وسريان حنانه وعطفه؟.



وقد بيَّن -سبحانه- ماهية المكفول ، ثم قفَّى على أثر ذلك ببيان مصادر الكفالة عندما قال : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: 22]، وظاهر اللفظ أن ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ هي السحاب، الذي يُخْرِج (الله) به ثمرات الأرض يانعة جَنِيَّة، وعند قوم من أهل الإشارة أن﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ هي سماء التقدير الأزليّ ، ولكن العِبَارة أَوْلَى بالأخذ من الإشارة ؛ لأن (الله) تعالى يقول : ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا ﴾ [ق: 9] ، وهو القائل : ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: 30].

فكـأنَّما بَعَـثَ الحياةَ مع الْـحَـيَا ... وأدارَهَـــا تَسْرِـــي مــــع الأرواحِ
وأقامَ من زَهْرِ الرِّياضِ على الرُّبَى ... نِعَــمًا يراهــا المســتنيرُ الصَّــاحِي
متَجلِّيـاتٍ مـن عـوارفِ فَضْـلِهِ ... وَجَـلَا بأحسـنِهَا النهـارُ الضَّـاحِي
أرأيتَهَـا عَلَــمًا عــلى مَلَكُوتِــهِ ... أم أَعْوَزَتْــكَ وســائلُ الإيضــاحِ
فاشــهدْهُ يــابنَ الحــيِّ في آياتِــهِ ... واشــهدْهُ في المِشْــكَاةِ والمصــباحِ
و(اللهُ نــورٌ) إن رأيتُــكَ مُبْصِــرًا ... تَهْــدِي لكــلِّ مَــبَرَّةٍ وصــلاحِ
و(اللهُ) أكـــبرُ لاحَ في أســـمائِهِ ... تَهْـدِي الأنـامَ بهـا سـبيلَ فـلاحِ

* * * *

ثم عَلِمَ ﷻ ما ينطوي عليه الإنسان من شكّ حول هم رزقه، ولكي يُزِيل هذا الشكّ من نفس هذا الكائن الآدميّ، الذي يتغلب عليه جهله فيدركه الشكُّ مما لا شكَّ فيه، أقْسَم ﷻ بذاته، وأسند إلى الإشارة بيان قدرته في السموات والأرض ، فعقَّب على (آية) الرزق بقوله : ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [الذاريات: 23] أي واقع وبرهان ساطع لا يتطرق إليه الجدل : ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23] فهل أنتم في نُطْقِكم هذا تَشُكُّون؟!.

وذلك لأنه هو (الرزاق -ذو القوة- المتين) ، وهو يفعل ذلك بوصف كونه (الرءوف- اللَّطيف) بعباده، ومن شأن الرأفة واللُّطف تدبير الرزق، فدبَّر وقدَّر ؛ فبرهان الوَحْدانية ثابت بوجود التَّناسُب بين ماهيَّات الإنسان الطبيعية وبين ما خَلَق(الله) سبحانه له.

فما من شيء مما يخرج من الأرض أوْ يَنْزِل من السماء ،إلا وبينه وبين الإنسان نسبة تكوينية ثابتة بالتقدير العلميّ والنظام التشريحيّ، حتى حشرات الأرض ودوابُّها وزواحفهاوقوارضها وطيور السماء والأرض والوحوش الضَّوارِي، وغير ذلك كله بينه وبين الإنسان نسبة ، باعتباره داخلاً في شئون التكوين والمقاومة والإمداد.

فإن كثيرًا من الأمصال الحشرية والزواحفية هي شفاء وعلاج ،لما قد يصيب هذا الإنسان من أمراض وفيروسات، وفي أوبار الوحش وعظام الفِيَلة وفِرَى الثعالب في الغابات نسبة ثابتة لصالح الإنسان.

وتشترك الأسماء الإلهيَّة في هذه الآفاق المختلفة المتباينة بين السماء والأرض، مثل: (**المدبِّر- الحكيم- الخبير- الغنيّ- الحميد- المُحْيِ- الوهّاب- الرزَّاق**) ، وهكذا كل ما تَسَاوَق مع حال الإنسان ومعنى المقام.

الأمر الذي يدل على شمول الإحاطة الإلهية والرحمة التدبيرية بهذا الكائن المُسْتَخْلَف في الأرض؛ ليكون المجلَى المشهود على تصّرُفاته جميع تجلِّيات الأسماء والصفات القائمة بالذات العلية ؛ لتدل عليها بالدليل الماديّ المشهود.

وهكذا يبدو من تناسُق النشأة الوجودية ومشهوداتها وغيبياتها وأسرارها، وَحْدانية (**المدبِّر**) الذي لا يتناقض مع ذاته ولا يختلف عن صفاته ، فالاسم (**المنتقم**) داخل في نطاق الوقاية في الاسم (**الحفيظ**) ؛ لأن الحفظ معناه حماية المحفوظ ووقايته مما لا يلائم وجوده ؛ ولذلك قال عزجاهه : ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: 255].

ولو لم يشأ حفظًا ما كان هناك معنىً للوجود؛ لأنه لا يكون وجودًا إلا إذا لُوحِظ فيه معنى البقاء، الذي هو حفظ الكائن الموجود ؛ وذلك لأن الممكن غير المستحيل، فالممكن موجود جوازًا والمستحيل عدم مَحْض، ومتى كان العدم مستحيلاً على ذات الوجود ؛ فهذه الذات مصدر جميع الممكنات ولو لم تشأ حفظها لانعدمت؛ لعدم تعلُّق مشيئة الحفظ على الفور؛ ولهذا قال: ﴿**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ [إبراهيم: 19، 20].

وعلى هذا فالوقاية والصيانة والإمداد بالقوة والثبات ،والعمل على استمرار الحماية داخِلٌ في نطاق الاسم (**الحفيظ**)، والذات التي يقوم بها هذا الاسم هي التي تسري قوتها في هذه الأَنْفُس، وقد أشار ﷻ إلى هذا المعنى بقوله : ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ [الرعد: 33].

ولا يتوهَّمَنَّ أحد من هذا القول أنه دليل على (الحلول)؛ لأنه في قيامه ﷻ على كل نفس إنما هو من تجلِّيات الاسمين الكريمين (**الحيّ – القيُّوم**) ، واهب الحياة والقائم بالفيض والإمداد السرمديّ على مخلوقاته بالقوة، التي هي من تجلِّيات الاسم (**القَوِيّ**) وأعطى الإنسان المشيئة وتوجيه تلك القوة.

فإذا ما أساء هذا الإنسان استخدام القوة فعليه وإن أحسن فله، وتلك الذنوب التي يُحَمِّلها الإنسان لنفسه بخطئه ورُعُونته وسوء تقديره وإهماله، يكون مسئولاً عنها بسوء استخدامه للقوة الإلهية المُطْلَقة واستعمالها في غير ما خُلِقَت من أجله.

وهكذا اندفعت ثرثرات المُتَشَدِّقين في مسألة (**القضاء والقدر**) و(**الثواب والعقاب**).

وقد همس في نفسي هامس أن أقدِّم إلي (**الشيطان**)الرجيم صورة إشكال على أمر القضاء والقدر منظومًا بما يلي، موجَّهًا إلى (**المُقَدِّر**) –جلَّ وعلا– والعُذْر إليه :

إذا كُنْتَ أنتَ الَّذِي قَدَّرَا ... ولا شيءَ إلا بِهِ قد دَرَى

ولا فِعْلَ إلَّا بإمدادِهِ ... ومَنْ عِنْدَهُ كلُّ ما قد جَرَى

ففيمَ الحسابُ وفيمَ العقابُ ... وفيمَ الثوابُ وقد خُيِّرَا!

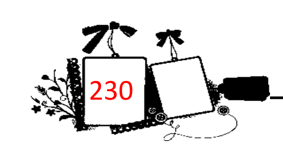
* * * *

ثم ناداني صوت الإيمان لفض إشكال (**إبليس**)اللعين ، فأجبت على القافية بهذا البيان:

تعلَّــقَ عِلْمِــي بِــذَا في الأَزَلْ ... ومِـنْ صـاعِدٍ في العُـلاَ أو نَـزَلْ
وآتَيْتُـكَ العَقْـلَ فصْـلَ الخطـابِ ... إلى مـا عَـلاَ بالهُـدى أو سَـفَلْ
وأعطيتُــكَ الجِسْــمَ فِي طَبْعِـهِ ... ولـلنفسِ مَيْـلٌ لمعنـى الجَـدَلْ
وآتَيْـتُ وحيًـا (رَسُـولَ) الهُـدَى ... وعَلَّمْتُ فِـيمَنْ هَـدَى أَوْ أَضَـلَّ
وَقَـدَّرْتُ جُـزْءَ اخْتِيـارِ الْعِبَـادْ ... ونَوَّهْـتُ بالعَـدْلِ فِـيمَنْ عَـدَلْ
وأَنْزَلْـتُ حُكْـمًا يُنِـيرُ السَّـبِيلْ ... ويَهْـدِي إلى الرُّشْـدِ حَيًّـا عَقَـلْ
فَمَـنْ شَـاءَ أَمَّ طَرِيـقَ السَّـلاَمْ ... ومَـنْ شَـاءَ عنـهُ مع العِلْـمِ ضَـلَّ
وعِنـدِي لكـلٍّ جَـزَاءٌ وِفَـاقٌ ... مِـنَ الفضـلِ أو مِـنْ جَحِيمٍ جَلَلْ
فـما كُنْـتَ حيًّـا هُنـا مُكْرَهًـا ... فأنـت خليـقٌ بعُقْبَـى العَمَـلْ
فـإِنْ كـانَ خـيرًا فـنِعْمَ الجَـزَاءْ ... وإنْ كـانَ شَرًّا فسـاءَ المَثَـلْ
وقُوّاتُنـا طَـوْعُ تَقْـدِيرنا ... عـلى العِلْـمِ في ماضـياتِ الْأَزَلْ
عَلِمْنَـا بِـما شِـئْتَ أو لم تَشَـأْ ... مِـنَ البَـدْءِ حَتَّـى انْتِهـاءِ الأَجَـلْ
ومـا عِلْمُنَـا مُكـرِهٌ في الحُصُـولْ ... وقُـدْرَاتُنَا فـوقَ معنـى الزَّلَـلْ
وهـذا هـو العـدلُ في شَرْعِنَـا ... كـما جـاءَ مِنَّـا كِتـابٌ نَـزَلْ
ولـيس عـلى مُكـرَهٍ مِـنْ حِسَـابْ ... إذا مـا غَـزَى في الهَـوَى أو نَـزَلْ
لِأَنَّ السُّــؤَالَ إلى عَاقِــلِ ... ولـيسَ إلى هـازِلٍ قَـدْ هَـزَلْ
ومـا الفِعْـلُ إلَّا عـلى نيَـةٍ ... فـلا ذنـبَ للعقـلِ فـيما فَعَـلْ
ولكنَّـهُ ذنـبُ أهـوائِكُمْ ... عـلى قُـوَّةِ (الله) فـيما حَصَـلْ
فقُوَّاتُـهُ حَـقَّ إطلاَقُهَـا ... عـلى كـلِّ شيءٍ عَـلَا أو نَـزَلْ
لِـتَعْلَمَ أنَّ مقـامَ العُقُـولِ ... لَـهُ الفصلُ فـيما بـه قـد فَصَـلْ

****





المبحث السابع أثر الحكمة الإلهيَّة في تدبير النواميس الكونيَّة

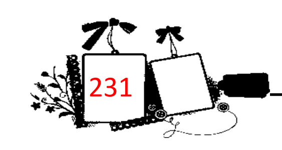
سبحانك (اللَّهم) منتهى سير الإدراكات دون سياج عزتك، نشأ كل شيء وَفْقَ مُرَادك مستمرًّا بإمدادك، أنت تفضَّلْتَ فنَزَّلت الملائكة بالرُّوح من أمرك على من تشاء من عبادك، وجَلَوْتَ على البصائر من بدائع آياتك ولوامع بيِّناتك ما أسفر عن أسمى معاني تصويرك وإبداعك، وآتيت الإنسان من لطائف نورك ما فتح له أبواب النظر وفسح له أبهاء الفكر بين العين والأثر، ودلَّت عليك الكائنات بذاتها، فما هي إلا عن تجلِّيك تشهد .

فانظر –هدانا (الله) وإياك– بعين بصيرتك، ثم تعمَّقْ وأمعن النظر في كل صغير أو كبير ظهر : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: 53] ، ثم اخرج بها بما شَهِدْتَ على عَيْنَيْ رأسك ، تجدهما في تكافل تام مع عين بصيرتك.

فمشهد التفاحة الجَنِيَّة يمنح ظاهرك من عَيْنَيْ رأسك بمطالع الحُسْن نجمًا جميلاً، ويمنح أنفك ولسانك معنى ذلك الحُسْن ، ثم يضفي علي بصيرتك معنى ذلك كله.

وبهذا– وحده مثلاً – كانت التفاحة اليانعة النضيرة نعيمًا في مظهرها ومخبرها ومداها، وما كان هذا ليتمّ –على هذا المِنْوال المُحْكَم– لولا وجود ارتباط بين هذه الشجرة وبين وَحْدانية الحركة الكبرى الصادرة عن الناموس الكونيّ، التي لا يتناقض قانونها بأي وجه من الوجوه أو صورة من الصور.

ومن حقك أمام هذا أن ترى تفاحتك مِنْحَة جميلة ، قدمتها إليك يد الرحمة البيضاء ، التي من شأنها أن تدبِّر وتصوِّر وتقدِّر وتخلق ما تشاء وتختار، ألا تراها تودُّدًا من (المُنْعِم– الودود) إليك ، وتنازُلاً من الفضل الأعلى هابطًا بين يديك؟.. فماذا تُسَمِّي هذا الذي يتودَّد إليك بالنعمة وأنت تخافه في النِّقْمة؟..



ألا تراه في صفاته (**لطيفًا خبيرًا ودودًا رءوفًا**) ، يسري حنانه ﷻ في حلاوة التفاحة وطِيب عطرها وحُسْن تكوينها وتلوينها ؟.. ثم قل لي ألا ترى أن هذا التودُّد من آثار عطفه عليك ورحمته بك؟..

فإذا أنت شكوت الإمساك المَعَوِيّ –وهو أمر يدخل علاجه في أثر الناموس الكونيّ في عالَم النبات– فإنك ترى نفس اليد البيضاء التي منحتك التفاحة، تأخذ بيدك في لُطْف وتحملك في رِفْق لتجلس بك تحت ظلال الْكُرُوم، وفي مُتَناول يدك قُطُوف دانية ، وعلى مرأى ومسمع منك قنوات جارية ، فتناول يا أخي عنقود العنب ، ثم أبْشِر على الفور بانتهاء أزمة ذلك الإمساك، ثم اسأل نفسك هل تنكر شعورك بحنان الذي صنع لك من لَدُنْه كُرُوم الأعناب؟..

هكذا يا أخي وعلى هذا النحو السهل اليسير الواضح ، نستطيع أن ندرك العلاقة الوثيقة بين قوة التدبير الجامع الشامل عن طريق النواميس الكونية وقوانينها ، التي لا تنحرف مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك : ﴿ **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا** ﴾ [الإسراء: 77].

لأن الإسلام هو دين الفطرة ، وإنها كانت وستظل دومًا : ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [**الروم**: 30] للحياة في كون متماسك الأطراف مُتَّحد القُوَى متناسق الحركة متناسب الوضع متلائم الطبع ، تتعاون فيه القُوَى المختلفة بين السموات والأرض والجبال والأنهار والنجوم و(**الكواكب السيارة**) [65] جميعها على إعداد جزئياته وكُلِّياته ، فلا تَشِذّ قوة من تلك القُوَى العلوية والسفلية عن نظام الوَحْدانية الكونية التي يسميها (**فلاسفة اليونان**) وَحْدة الوجود ، ويسميها (**فلاسفة المسلمين**) الكُلّ الطبيعيّ، وهي عندهم غير الكل الوجوديّ؛ لأن الطبيعة هنا أثر أو نتيجة مقدماتها في الكل الوجوديّ .



(65) وجميع ظواهر الطبيعة الكونية ومظاهرها الواضحة الجلية التي يراها الإنسان في حياته كل يوم كالشمس والقمر والرياح والسحب والأمطار والرعد والبرق ومراحل الجنين والمحاصيل والثمار والأشجار وغير ذلك من آيات بيِّنات كالليل والنهار وتعاقُب الفصول .

فالطبيعة بذاتها وبميزانها الصَّرْفيّ فعيلة بمعنى مفعولة، أي أنها طبيعة مطبوعة وطابعها إنما أنشأها بقوة الكل الوجوديّ ، السابق بالترتيب الذاتيّ على الكلّ الطبيعيّ لسبق المؤثّر على الأثر، وما يبدو لنا واضحًا من ملاحظة حكمة التدبير ودقة التقدير التي تتجلَّى في ميزان النواميس الكونية ، التي يَحْفَل بها الكتاب في مثل قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7].

وهذا﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ هو القانون الذي يحكم به – ﷻ – حركة مُلْكه وملكوته في نظام لم يتطرَّق إليه خلل منذ نشأ، وهو –سبحانه– يكرر تساؤله التقريعيّ في سورة **(الرحمن)** إحدى وثلاثين مرة : ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها **(الثَّقلان)** من **(الجن والإنس)** على السواء.

وهو تساؤل معجز مفحم ، لم يملك أمامه **(الجن)** إلا أن يقولوا كما أبلغ الرسول ﷺ: «**ولا بشيءٍ من آلائِكَ (رَبَّنا) نُكَذِّبْ**» .

وهو ﷻ الذي علَّم **(القرآن)** وأحكام الشرائع لهداية خلقه، وهو الذي خَلَقَ الإنسان على أحسن تقويم وكَمَّله بالعقل والمعرفة، وعَلَّمه النُّطق والبيان، وسَخَّر له الشمس والقمر ، ورفع السماء وأنارها بالنجوم، وأوجد الأرض وما فيها من نخل وفاكهة وثمرات ورَيْحان ، وهو الذي أنعم بكل النِّعم وأفاض بكافة المِنَح : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: 18].

ويؤكد سبحانه ضرورة **(تدَبُّر آيات القرآن)** الدالة على عظمته ووَحْدانيته ووجوب تقديسه، وأنه تعالى جعله في مُتَنَاول العقل الإنسانيّ والمُدْرَكات البشرية بقوله : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

وهو سبحانه الذي خلق هذا الكون الفسيح ، وجعله كتابًا مبينًا بآيات خَلْقه ومعجزات إنشائه لقوله : ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].

وبهذه الثُّنائية الخالدة في الخَلْقِ الأعظم بين الإنسان وكتابه الأقدس ، قبس (الله) الأقدس الخالد ، وكلامه الأزليّ ، وحكمته الأبدية ، وبيانه القويم «**القرآن العظيم**»، أفضل ختام لرسالتنا هذه ، في استكناه ذات (الله) ﷻ وصفاته وأسمائه وأفعاله،في ظلال آياته وآلائه وأفضاله.

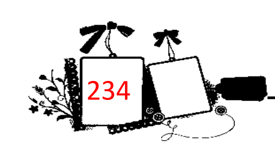
فإن (**القرآن**) الحكيم هو الكشَّاف لِـمَخْفِيَّات كنوز الأسماء الـمُسْتَتِرة في صحائف السموات والأرض، وهو كذلك مفتاح حقائق الشئون المُضْمَرة في سطور الحادثات، وهو لسان الغيب في عالَم الشَّهادة، وهو خزينة المُخَاطَبات الأزلية التنزيهية والالتفاتات الأدبية الرحمانية في الدنيا والآخرة علي السواء.

و(**القرآن**) الكريم هو القول الشارح والتفسير الواضح، والبرهان القاطع والتُّرجمان الساطع ، لذات (الله) ﷻ وصفاته وأسمائه ، وجميع شئونه القدسية العلية ، وهو الماء والضياء للإنسانية الكبرى ، فهو الحكمة الحقيقية الأبدية الأزلية للبشرية بأَسْرها، وهو المُرْشِد الهادي لما خُلِق البشر من أجله.

وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، فإنه كذلك كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذِكْر فهو أيضًا كتاب فِكْر، يهدي إلى الرُّشد ويبيِّن غوامض السُّبل في ظُلُمات الحياة الدنيا وظَلْمانياتها ، يهدي الناس لخير الدنيا، والفوز في الآخرة بجنات النعيم المقيم : ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: 88، 89].

مَحْمُودْ عِزَ الدِّينْ بَرَكَاتْ





خاتمة الكتاب دُعاءَ ورَجاء (في نُور الذَّات والصِّفات والأسماء)

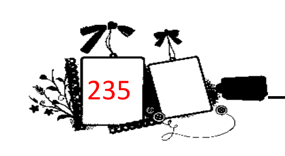
لا (إله) إلا (اللهُ المَلِكُ الحقُّ المُبِين)، لا (إله) إلا (الله العدل اليقين)، لا (إلـه) إلا (الله) (ربنا) و(رب) آبائنا الأوَّلين، سبحانك إني كنـتُ مـن الظـالمين، لا (إلـه) إلا (الله) وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد، يُحي ويُميت وهو (حيٌّ) لا يمـوت، بيده الخير وإليـه المصـير، وهـو عـلى كـل شيء (قـدير)، لا (إلـه) إلا (اللهُ) إقـرارًا بربُوبيَّته، وسبحان (الله) خُضُوعًا لعظمته[66].

(اللَّهُمَّ) يا (نور) السَّموات والأرض، يـا عـماد السَّـموات والأرض، يـا (جَبَّـار) السموات والأرض، يا (ديَّان) السَّموات والأرض، يا (وارث) السَّـموات والأرض، يا (مالك) السَّموات والأرض، يا (عظيم) السَّموات والأرض، يا (عـالِم) السَّـموات والأرض، يا (قَيُّوم) السَّموات والأرض، يا (رحمن) الدنيا و(رحيم) الآخرة.

(اللهُمَّ) إني أسألك أنَّ لك الحمد، لا (إله) إلا أنت (الحَنَّان المَنَّان بديع) السَّـموات والأرض، (ذو الجلال والإكرام)، برحمتك يا (أرحم الراحمين)، بك أصبحنا وأمسينا، وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير.



(66) هذا دعاء مبارك عظيم الشأن جليل المقدار، قيل: إن (جبريل) عليه السلام والإكرام أتي (النبي) ﷺ فقال: يا (محمد)، (السلام) يقرئك السلام، ويخصك بالتحية والإكرام، وقد أوهبكَ هذا (الدعاء الشريف)، وهو مكتوب حول (العرش) وعلى حيطان (الجنة) وأبوابها، وهـو دعـاء مستجاب حفظه الصحابة والخلفاء الراشدون.



أشهد أن لا (**إله**) إلا (**الله**) وأن (**محمدًا**) رسول (**الله**) ﷺ، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الساعة آتية لا رَيْب فيها، وأن (**الله**) يَبْعَث من في القُبور، الحمد (**لله**) الذي لا يُرْجَى إلا فضله، ولا (**رازق**) غيره، (**الله**) أكبر ليس كَمِثْلِهِ شيء في الأرض ولا في السَّماء وهو (**السميع البصير**).

(**اللهُمَّ**) إني أسألك في صَلَاتي ودُعَائِي بركة، تُطَهِّر بها قلبي، وتَكْشِفْ بها كَرْبِي، وتغفر بها ذنبي، وتُصْلِح بها أمري، وتُغْنِي بها فقري، وتُذْهِب بها شرِّي، وتكشف بها هَمِّي وغَمِّي، وتُشْفِي بها سَقَمِي، وتقضي بها دَيْني، وتجلُو بها حَزَني، وتجمع بها شملي، وتُبَيِّض بها وجهي، يا (**أرحم الراحمين**).

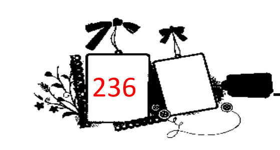
(**اللهُمَّ**) إليك مددتُ يدي، وفيما عندك عَظُمَت رغبتي، فَاقْبَل (**اللهُمَّ**) توبتي، وارحم ضعف قُوَّتي، واغفر لي خطيئتي، واقبل معذرتي، واجعل لي من كل خير نصيبًا، وإلى كل خير سبيلاً برحمتك يا (**أرحم الراحمين**).

اللهُمَّ لا (**هادي**) لِمَن أَضْلَلْت، ولا (**مُعْطِيَ**) لما منعت، ولا (**مانع**) لما أعطيت، ولا (**باسط**) لما قبضت، ولا (**مُقَدِّم**) لما أَخَّرت، ولا (**مُؤَخِّر**) لما قدَّمت.

(**اللهُمَّ**) أنت (**الحليم**) فلا تَعْجَل، وأنت (**الجَوَّاد**) فلا تبخل، وأنت (**العزيز**) فلا تَذِلّ، وأنت (**المنيع**) فلا تُرام، وأنت (**المُجِير**) فلا تُضَام، وأنت على كل شيء (**قدير**).

(**اللهُمَّ**) لا تحرمني سِعَة رحمتك، وسُبُوغ نعمتك، وشمول عافيتك، وجزيل عطائك، ولا تمنع عني مواهبك لسوءِ مَا عِندي، ولا تُجَازِنِي بقُبْح عملي، ولا تَصْرِفْ عني وجهك الكريم برحمتك يا (**أرحم الراحمين**).

(**اللهُمَّ**) لا تحرمني وأنا أدعوك، ولا تُخَيِّبْنِي وأنا أرجوك، (**اللهُمَّ**) إني أسألك يا (**فارج الهَمّ**) ويا (**كاشف الغَمّ**)، يا (**مُجِيب**) دعوة الُمْضطَرِّين، يا (**رحمن**) الدنيا، يا (**رحيم**) الآخرة، إرحمني برحمتك يا (**أرحم الراحمين**).



(اللهُمَّ) لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدَّمْتُ، وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وأنت **(المُقَدِّم)**، وأنت **(المُؤَخِّر)**، لا **(إلـهَ)** إلا أنت.

أنت **(الأوَّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطن)**، عليكَ توكَّلْتُ وأنت **(ربُّ العرشِ العظيم)**.

(اللهُمَّ) آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها يا خير من زكَّاها، أنت **(وليُّها)** و**(مولاها)** يا **(رب العالمين)**.

(اللهُمَّ) إني أسألك مسألة البائس الفقير، وأدعوك دعاء المُفْتَقِرِ الذَّليل، لا تجعلني بدعائك ربِّ شقيًّا، وكن بي **(رءوفًا رحيمًا)**، يا **(خير المَؤُولِين)**، يا **(أكرم المُعْطِين)**، يا **(رب العالمين)**.

(اللهُمَّ) **(ربَّ)** (جِبْريل وميكائيل وإسرافيل وعَزْرائيل) عليهم السلام، إعصمني من فِتَن الدنيا، ووفِّقْني لما تحب وترضى، وثبِّتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا تُضِلَّني بعد إذ هديتني، وكن لي عونًا و**(مُعِينًا وحافظًا وناصرًا)**، يا **(رب العالمين)**.

(اللهُمَّ) استر عورتي، وأَقِلْ عثرتي، واحفظني من بين يديَّ ومن خلفي، وعن يَميني وعن شِمالي، ومن فوقي ومن تحتي، ولا تجعلني من الغافلين.

(اللهُمَّ) إني أسألك الصبر عند القضاء، ومنازل الشهداء ~ ، وعَيْشَ السُّعداء، والنصر على الأعداء، ومُرَافَقة الأنبياء والأولياء والأصفِيَاء عليهم السلام، يا **(ربَّ العالَمِين)**، آمين يا **(أرحم الراحمين)**.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: 10].

(اللهم تقبل و ارحم)

تم بحمد الله وتوفيقه



وإلى لقاء قريب إن شاء اللّه مع :

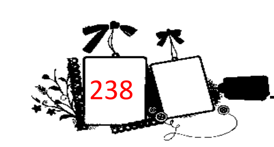
(ميزان الاعتبار بين الجبر والاختيار)

مَحْمُودْ عِزَ الدِّينْ بَرَكَاتْ ،

من كبار علماء الدقهلية

ـ القاهرة ـ

17رمضان **1431**هـ - **28** أغسطس **2010**



(رثاء ووفاء)

جمعية الشبان المسلمين
بالمنصورة

رثاء ووفاء

تعرف جمعية الشبان المسلمين لفقيد الاسلام الاستاذ المغفور له

محمود عز الدين

مكانته العاليه، ومنزلته الرفيعة، وجهاده المبرور، فى رفع كلمة الاسلام ونشر تعاليمه السمحة، وتزويد جماهير المسلمين بالعلم النافع، بلسانه الطلق، وقلمه السيال، ورأيه الحر وفكره المستنير، وحجته الدامغه، وطاقاته المخلصه - وعرفانا بفضل العاملين فى سبيل الله.

تقيم الجمعية مجلسا قرآنيا عليا بمقرها الجديد بشارع الجيش:

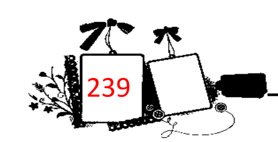
مساء الخميس ٢٥ من جمادى الاولى ١٣٩٢ الموافق ٦ من يوليه ١٩٧٢

وهى تدعو اليه جماهير المسلمين عامة، وتلاميذ الفقيد ومريديه خاصة للاستماع الى آيات الكتاب المبين، والانتفاع بتسجيلات الاستاذ الراحل، وكلمات الرثاء من العلماء والشعراء

و إنا لله وإنا إليه راجعون

رئيس مجلس الادارة
محمد محب حماد
المحامى

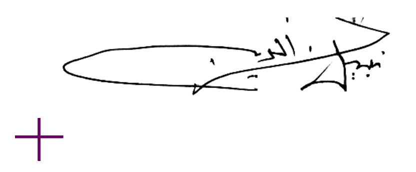
مكتبة ومطبعة النهضة ت ٢٩٢٢

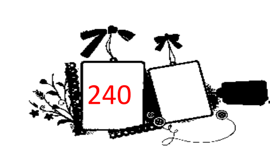




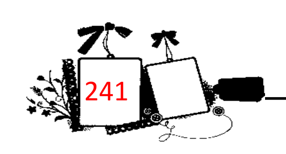
صورة المؤلف بريشة نجله:

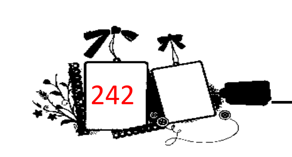
نبيل عز الدين





الفهرس




242